عباس محمود العقاد





اسم الكتاب: حياة قلم .
اسم المؤلف: عباس محمود العقاد .
تاريخ النشر: ديسمبر ١٩٩٦ .

رقم الإيداع: ٤٠٠٨ /١٩٩٦ .
الترقيم الدولي: I.S.B.N 977-14-0420-2
تصميم الغلاف: م / محمد العتر

الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
المركز الرئيسي: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة
مدينة السادس من أكتوبر
ت: ٣٣٠٢٨٧ - ٣٣٠٢٨٩ / ٠١١ .
فاكس: ٣٣٠٢٩٦/٠١١ .
مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة .
ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٥٩٠٨٨٩٥ / ٠٢ .
فاكس: ٥٩٠٢٢٩٥/٠٢ .
ص.ب: ٩٦ الفجالة
إدارة النشر: ٢١ ش أحمد عرابي - المهندسين - القاهرة
ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٣٤٧٢٨٦٤ / ٠٢ .
فاكس: ٣٤٦٢٥٧٦/٠٢ .
ص.ب: ٢٠ امبابة

تقديم

بقلم: طاهر الطناحي

الآن سبق وصدر كتاب « أنا » لفقيد البيان عباس محمود العقاد .. وقد حوى أربعين مقالاً تناولت حياته الشخصية بما لها من صفات وطباع وخصائص ، وتربية أدبية وفكرية ، وبما طبع أو انطبع في نفسه من إيمان وعقيدة ومبادئ ، وبما تأثر به من بيئة وأساتذة ، أو بعبارة جامعة : «عباس العقاد الإنسان»... !

وكنت ألمعت في مقدمة «أنا » إلى أن حياة العقاد لها جانبان تاريخيان : جانب شخصي إنساني ، وجانب اجتماعي عام ، يتصل بمن عاصرهم وعاشرهم من الناس في حياته الصحافية والأدبية والسياسية ، ويتناول الأحداث التي اشترك فيها ، وخاض من أجلها عدة معارك قلمية ، وكانت صناعة القلم ابرز ما فيها منذ بدأ اشتغاله بهذه الصناعة، وهو في السادسة عشرة من عمره .

وفي منتصف أغسطس سنة ١٩٥٧ م أخذ يكتب عن الجانب الاجتماعي والسياسي من حياته بعنوان «حياة قلم» . فكتب عدة فصول بدأها بولادة هذا القلم في أسوان ، وتحدث عن ظروف هذه الولادة ، وعن الجيل الذي ولد فيه ، وقارن بين قلمه وقلم «عبد الله النديم» في ذلك الحين ، ثم تحدث عن الصحافة قبل خمسين سنة ، وعن موزعي الجرائد ، وفي مقدمتهم المعلم « عكريشة » ، وعن أحاديثه مع الساسة من الوزراء وغير الوزراء ، وكيف شق هذا القلم طريقه ، وما وقع لهذا القلم وصاحبه من أزمات ، وكيف اشتغل بالصحافة في الحرب العالمية الأولى ، وكيف انقطع عنها ، ثم عاد إليها إلى آخر ما تناوله في الفصل الثامن في هذا الكتاب «حياة قلم» حتى انتهت هذه الحرب ، وقامت ثورة سنة ١٩١٩ م .

وهنا وقف عن كتابة هذه الفصول أو المذكرات التاريخية التى تعد بلا شك جزءا من تاريخ مصر، ومرجعا للمؤرخ فيما عالجه العقاد من موضوعات عن هذه الحقبة التى تداولت نحو عشرين عاما من الحياة العامة عاشها وساهم فيها بقلمه .. !

ثم يبقى ما تلا هذه الحقبة من جهاد وجهود، وأحداث وأطوار، لهذا القلم فى الميدان العام .. فهل عوضتنا كتاباته الأخرى ومؤلفاته عما نقص من سلسلة هذه المقالات ؟

١

الواقع أن حياة العقاد العامة، أو حياة قلمه منذ ثورة سنة ١٩١٩ م تكاد تكون معروفة لأبناء هذا الجيل من زملائه الأدباء والصحافيين، ومن السهل الرجوع إليها فى الصحف والمجلات التى اشترك فيها، وعالج فيها ما عالج من موضوعات سياسية واجتماعية وأدبية، وقد كان كاتب الوفد الأول منذ فجر هذه الثورة إلى أن اختلف مع زعماء الوفد سنة ١٩٣٥ كما سيجىء فى هذه الصفحات ..

وقد كتب عن هذه الثورة، وأبدى آراءه فى رجالها وأحداثها كسياسى مفكر، وكوطنى كبير، مستقلا عن آراء حزبه، وإن كان هو كاتب هذا الحزب، والمؤيد لسياسته التى تتفق مع آرائه فى ذلك الوقت، وقد كان زعيم الوفد سعد زغلول يقدره كل التقدير، ويقول عنه مايرويه لنا الأستاذ كامل سليم سكرتير مجلس الوزراء، وسكرتير الوفد المصرى حين سافر الوفد إلى أوربا للمفاوضة، فقد كتب مقالا فى مجلة الثقافة فى ٢٧ يوليو سنة ١٩٤٠ م بعنوان : «سعد زغلول كما عرفته، رجلا، وزعيما، وسياسيا» وقد جاء فيه :

« وسألته مرة عن رأيه فى كاتب كبير – يعنى العقاد – فقال :

« أديب فحل، له قلم جبار، ورجولة كاملة، ووطنية صافية، واطلاع واسع. وما قرأت له بحثا، أو رسالة فى جريدة أو مجلة إلا أعجبت به غاية الإعجاب. وهو لا يعالج موضوعا إلا أحاط به جملة وتفصيلا، إحاطة لا تترك بعدها زيادة لمستزيد .. وله أسلوب أدبى فريد»!!

٢

والذين يراجعون كتاب « سعد زغلول » الذى ألفه العقاد سنة ١٩٣٦ م يستطيعون أن يلموا بتاريخ زعيم الثورة وأحداثها ورجالها وتطوراتها ومفاوضاتها إلى أن توفى « سعد » فى أغسطس سنة ١٩٢٧ م، ويعد هذا الكتاب من حياته السياسية و«حياة قلمه» وطورا من أطواره الوطنية.

ولما توفى سعد زغلول، وكانت الأحزاب المصرية مؤتلفة مع الوفد لم يستمر هذا الائتلاف سوى عام، ثم مالبث الخلاف أن عاد بين الوفد وحزب الأحرار الدستوريين. وتولى زعيم هذا الحزب رياسة الوزراء، وعطل الحياة النيابية، وحكم البلاد بيد من حديد، حتى دعى حكمه باليد الحديدية. ورأى العقاد، أن مصر فى ذلك العهد امتحنت بالحكم الدكتاتورى، وكان «موسولينى» قد ظهر فى ايطاليا بالدكتاتورية السياسية، فألف كتابه « الحكم المطلق فى القرن العشرين »، وحمل فيه على هذا الحكم الاستبدادى حملة شعواء، وأبان فساده سياسيا وعلميا واجتماعيا. وتحدث عن الديموقراطية ونجاحها، ونجاح الحكم النيابى، ثم أصدر كتاب « اليد القوية فى مصر » سنة ١٩٢٨ وكان الحكم المطلق وقتئذ قد أصبح عدوى فى بعض البلدان الشرقية والغربية، وظهر هتلر بديكتاتوريته فى ألمانيا، فكتب العقاد عدة مقالات ضده، ثم أخرج كتاب «هتلر فى الميزان»، ثم كتاب « النازية والأديان » .. !

وكانت سنة ١٩٣٠ م وقد أعيدت الحياة النيابية، وكان العقاد وقتئذ عضوا فى مجلس النواب، ثم أشيع أن الملك فؤاد سيقيل الوزارة، ويعطل الحياة النيابية، فوقف على منبر المجلس فى إحدى الجلسات، وتحدث عما يشاع من تعطيل الدستور، وحل البرلمان، واحتد فى خطابه، ودفعته وطنيته الجريئة الصريحة إلى أن قال كلمته المشهورة :

«إن الأمة على استعداد لأن تسحق أكبر رأس فى البلاد يخون الدستور، ولا يصونه»...!

وكان لهذه الكلمة دويها فى جميع الأوساط، واتخذها المنافقون والملكيون حجة ضده، وحبالة ينصبونها للإيقاع به والانتقام من جرأته، ولما كان وقتئذ

عضوا فى مجلس النواب الذى أعيد بعد استقالة رئيس الأحرار الدستوريين ، وكان يتمتع بالحصانة البرلمانية ، فقد أخذوا يتربصون له حتى عطلت الحياة النيابية فى وزارة صدقى باشا ، وكان مايزال يحرر موضوعاته السياسية ، ولم يكن قد اعتزل السياسة .. وذهبوا يجمعون مقالاته المعارضة لسياسة الحكم ، ثم أحيل للمحاكمة بتهمة : « العيب فى الذات الملكية » . فحوكم فى أكتوبر سنة ١٩٣٠ م وحكم عليه بالسجن تسعة أشهر . قضاها بين سجن الاستئناف ، وسجن قره ميدان بالقاهرة . وحينما أفرج عنه فى شهر يوليو من ذلك العام قصد فورا ضريح سعد زغلول وأنشد فى مستقبليه من الجماهير الوطنية «على ضريح سعد» التى يقول فيها :

إلى الذاهب الباقى ذهاب مجدد	**وعند ثرى سعد مثاب ومسجد**
إلى مرجع الأحرار فى الشرق كله	**إلى قبلة فيها الإمام موسد**
نحيى من الدنيا التى نستعيدها	**مكانا من الدنيا له العود أحمد**

ثم ختمها بقوله :

وكنت جنين السجن تسعة أشهر	**فهأنذا فى ساحة الخلد أولد**
ففى كل يوم يولد المرء ذو الحجى	**وفى كل يوم ذو الجهالة يلحد**
عداتى وصحبى لا اختلاف عليهما	**سيعهدنى كل كما كان يعهد**

وبعد خروجه من السجن ببضعة أعوام استكتبه لمجلة « كل شىء » فى « حياة السجن » . فكتب لهذه المجلة عدة مقالات جمعها فى كتاب بعنوان : «فى عالم السدود والقيود» .

ولا ريب أن هذه المدة ، وتلك المقالات ، كانت فترة هامة من حياته وحياة قلمه ، وقد استكتبته يوما لمجلة «المصور» عن تجاربه فى الانتخابات، وقد دخلها ومارسها ، ونجح فيها ، فكتب مقالا طويلا ، نقتبس منه مايلى :

« مارست الانتخابات بأنواعها التى عرفناها فى مصر منذ إعلان النظام الدستورى الحديث ، مارست الانتخاب على درجتين، والانتخابات على درجة واحدة. واختبرت الإخفاق فى هذه التجارب، كما اختبرت النجاح بالتزكية ، والنجاح بالكثرة الساحقة .

«وفى وسعى أن أقول كلمة محققة عن كل نوع من هذه الأنواع ، وإن كانت الكلمات المحققة فى شئون الانتخاب أقل من القليل .. ! !

«فالمحقق عندى فى الانتخاب على درجتين أنه نظام لا مزية له على الإطلاق ، وإنما تظهر صورته فى حالتين غير محمودتين : إحداهما تدخل الإدارة ، والثانية شراء الأصوات .

«أما الفوز بالتزكية . فقد طعن فيه بعض الباحثين الدستوريين ، وأشاروا فى علاجه إلى إعادة باب الترشيح مرة أخرى فى كل دائرة لم يتقدم لها أكثر من مرشح واحد .

«أما النجاح بالكثرة الساحقة . فقد عرفت صعوباته الكثيرة ، وعرفت أصعب هذه الصعوبات ، وهو بذل الوعود الانتخابية والسعى فى تحقيقها ، وإذا قلت الوعود الانتخابية فإننا أعنى الوعود العامة، ولا أعنى الوعود الشخصية. لأننى أعلنت فى كل دائرة تقدمت فيها أننى لن أقبل الوساطة فى مسألة شخصية ، إلا أن تكون لتقرير لحق أو دفع لمظلمة ...

٢

عاش «العقاد» منذ ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨م - ومنذ قامت الثورة القومية فى سنة ١٩١٩م بقيادة سعد زغلول - فى جهاد وطنى عنيف ، مؤيدا لسياسته ، فقد كان يقدره ويؤمن بإخلاصه ووطنيته ، وكان سعد يحبه ويحترمه على صغر سنه بالنسبة له ، وكانت جريدة البلاغ فى عهده هى جريدة الوفد الأولى ، فكان هو كاتبها الجرىء ، وسهمها النافذ الذى يرمى به الوفد خصومه ، ولم تر كاتبا سياسيا مثله يكتب كل يوم مقالة سياسية طول اشتغاله بالسياسة إلى جانب ما يؤلفه من كتب أدبية ، وما يكتبه من مقالات فى الأدب والفن والفلسفة والترجمة والتاريخ كل ثلاثاء .

وقد عانى العقاد ما عانى الوفد من شدائد ، واحتمل متاعب السجن والاضطهاد ، واستمر مع خلفاء سعد فى الوفد مدافعا عن آرائه ، مناهضا للاستعمار والمستعمرين ، محاميا عن الأهداف التى قام الوفد من أجلها وهى

الحرية والاستقلال والدستور، ولم يكن في تأييده لسياسة الوفد يدافع عن حزب ولا عن آراء زعيم، لأنه كان يكره الحزبية، ولم يكن كاتبا حزبيا، وقد كان يرى أن الوفد في ذلك الوقت الذي يخوض فيه المعركة يمثل: «عقيدة وطنية» و«فكرة سياسية حرة»، وأن الصحافة الوفدية التي يكتب فيها هي وسيلة التعبير عن هذه العقيدة، وتلك الفكرة، وقد كتب عن العقيدة الوفدية. فقال: «.. نحن لا نحب أن نعرف العقيدة الوفدية من طريق البرامج والأقوال، وإنما نعرفها من طريق الوقائع التي تنطق بها أعمال الخصوم، قبل أن تنطق بها ألسنة الأصدقاء والأنصار. وتتلخص العقيدة الوفدية على هذا المعنى في عبارة وجيزة هي: «المحافظة على القومية المصرية بقوة الأمة المصرية» ومن أجل هذا يبغضها أشد البغض كل من يكرهون أن تكون لهذه الأمة قوة تعتمد عليها، وتقف بها في وجوه أعدائها، ولو لم تكن «الوفدية» هي مناط هذه القوة، لما أبغضها الطامعون في ضعفنا وعجزنا عن المقاومة والاستقلال بالإرادة. ولو كان للعقيدة الوفدية شركاء في هذه المزية لأبغضهم المستعمرون ومنكرو إرادة الأمة...»

إلى أن يقول عن الصحافة الوفدية التي كان أكبر كتابها

«.. إنما تؤدي الصحافة الوفدية واجب التعبير عن عقيدة البلاد السياسية، لا واجب الدعاية الحزبية وما إليها، وما من مبدأ أصيل تدين به صحافة مصرية بريئة إلا والأمة تصدقه قبل ذلك تصديق من لا يحتاج فيه إلى إقناع، أو تدليل...»

هكذا كان رأيه في «الوفد»، وعلى هذا المعنى كان يدافع عنه ويؤيده، وهو في ذلك كان يدافع عن عقيدة وطنية، ويؤيد مبدأ وطنيا كان يؤمن به كل الإيمان، وهو «المحافظة على قومية الأمة بقوة الأمة» لا بقوة أحد سواها.

ولم ينصرف العقاد يوما عن تأييد هذه العقيدة، ولم يخرج عن سياسة الوفد الذي تأسس وقام على هذه العقيدة، حتى أصاب الوفد ما أصابه من الانحراف وانتقل من هيئة شعبية وطنية إلى حزب سياسي يقوم على برامج، ويعتبر الحكم وسيلة لتحقيق هذه البرامج، ويسعى ما استطاع إلى تولي الوزارة ويتهافت عليها تهافت المستوزرين..!

وفي أوائل عام ١٩٣٤م نظم العقاد «نشيده القومي» وكان وقتئذ يحرر مقالاته السياسية في البلاغ، وقد جاء في مطلع هذا النشيد:

قد رفعنا العلم للعلا والفدى

في ضمان السماء

أرض الهرم حي مهد الهدى

حي أم البقاء

وعلى أثر نشر هذا النشيد اجتمع طائفة من كبار أدباء مصر ومفكريها، وأقاموا له حفلة تكريم في مسرح حديقة الأزبكية - برياسة زعيم الوفد - حضرها جمهور كبير من أعلام الفكر والبيان، وأعضاء البرلمان والوزراء، ورجال التعليم، وكرائم السيدات، وكان في مقدمة المتكلمين عن العقاد الدكتور طه حسين، فألقى خطبة ضافية عن «العقاد ولواء الشعر» قال فيها:

«إنه مهما كرم العقاد، فإن مكرميه لن يبلغوه حقه من التكريم بالقياس إلى إحسان العقاد إليهم...».

ثم يستطرد، فيقول «تسألونني لماذا أؤمن بالعقاد في الشعر الحديث، وأؤمن به وحده، وجوابي يسير جدا، لماذا؟ لأنني أجد عند العقاد ما لا أجده عند غيره من الشعراء.. وإن شئتم، فإني لا أجد عند العقاد ما أجده عند غيره من الشعراء، لأني حين أسمع شعر العقاد أو حين أخلو إلى شعر العقاد، فإنما أسمع نفسي، وأخلو إلى نفسي..» «إنما أرى صورة قلبي، وصورة قلب الجيل الذي نعيش فيه، وحين أسمع لشعر العقاد، إنما أسمع الحياة المصرية الحديثة، وأتبين المستقبل الرائع للأدب العربي الحديث..».

وبعد ذلك يضرب الأمثلة من «ديوان العقاد» ويشيد بقصائده، ولا سيما قصيدة «ترجمة شيطان» التي يقول فيها إنه لم يقرأ مثلها لشاعر في أوربا القديمة وأوربا الحديثة، ثم يقول في النهاية: «ضعوا لواء الشعر في يد العقاد، وقولوا للأدباء والشعراء: أسرعوا واستظلوا بهذا اللواء فقد رفعه لكم صاحبه»..!!

٤

وكان خريف سنة ١٩٣٤م ، وتألفت وزارة محمد نسيم باشا الثالثة فى ٢٢ نوفمبر من ذلك العام ، بعد استقالة وزارة عبد الفتاح يحيى باشا التى سارت على سياسة إسماعيل صدقى باشا ، وكانت الأمة غير راضية وقتئذ عن سياسة صدقى فى الحكم والحياة النيابية التى قامت على دستوره الجديد - فلما تولى نسيم باشا الحكم ، وأوقف دستور صدقى باشا ، انتظرت الأمة منه أن يعيد دستور ١٩٢٣م ونظامه النيابى ، وانتظرت من الوفد أن يطالبه بذلك خصوصا وقد أعلن تأييده للوزارة النسيمية ، ولكن نسيم باشا كان متباطئا فى الاستجابة لرغبة الأمة ، وكلما ألحت عليه بالرجوع إلى الحياة النيابية ودستور سنة ١٩٢٣م الذى كان خيرا من دستور صدقى باشا ماطل وتغافل ، وأخذ يحكم الأمة حكما فرديا غير دستورى ، وأثارت سياسة نسيم باشا «كاتب الوفد الأول» منذ ظهرت بوادر هذا الحكم ، ولم تمض على نسيم باشا ثلاثة أشهر فأخذ ينقد سياسته ويحذر رجال الوفد من أطماعه ونواياه ، فقام يوافق الوفد على معارضة «العقاد» للوزارة النسيمية التى كان يؤيدها ، ويعلم صلتها بالإنجليز ، وحدثت مشادة بينهما فى بيته انتهت بخروجه على سياسة الوفد التى كانت تمالىء هذه الوزارة وكان العقاد يكتب مقالاته وقتئذ فى جريدة «روز اليوسف» ، فاشتدت حملته على هذه السياسة وعلى زعيم الوفد وصحبه واضطر نسيم باشا أن يصدر فى ١٠ مايو نوفمبر سنة ١٩٣٥م بيانا سياسيا جعل عنوانه: «بيان للناس» . فكتب عباس العقاد مقالا نشرته روز اليوسف فى اليوم التالى بعنوان : «قصة الدستور فى بيان نسيم باشا» جاء فيه :

«وإن الدستور فى بيان نسيم باشا - على حد تعبير صديقنا الدكتور طه حسين - لقصة، وإنها لتختلف عن كل ما أذاعه المطبلون للوزارة النسيمية والمزمرون ، حين طلعوا علينا بأسطورة منتصف شهر مايو الماضى ومنتهاه ثم بأعجوبة الخريف والشتاء .. لكن ما لنا وللإنشاء الذى يتطرق إليه التحريف والتصحيف أو الشدة فى التعبير والإساءة فى التصوير .. وأمامنا بيان رئيس مجلس الوزارة وقد تضمن من الوقائع ما يكفى سرده فى ترتيب لتقديم القصة للقراء أصدق تقديم .. ».

ثم سرد هذه الوقائع التى أحصاها فكانت ثلاثا وعشرين واقعة . وفى مقدمتها : «ولى نسيم باشا الحكم . وهو لا يقصد إلى إعادة دستور ١٩٢٣م بالذات ، إذ اكتفى الأمر الملكى الذى استصدره فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٤م بأن يشير إلى أن البلاد سيوضع لها نظام دستورى ، ولما أراد نسيم باشا تنفيذ الأمر الملكى الصادر له أبلغه المندوب السامى أن الحكومة البريطانية ترى «إن البلاد قد تستفيد من تأجيل المسألة . وإن مصلحة البلاد تقتضى عند سنوح الفرصة أن يكون شكل الدستور الجديد ، موضع درس مهم يتناول جميع وجوه المسألة .» .

وقد علق العقاد فى نهاية مقاله على الوقائع التى تضمنها البيان ، فقال :

«وبعد ، أفليست هذه القصة التى استخرجناها بكل أمانة من بيان نسيم باشا ، مؤيدة التأييد كله ، لكل ما سبق لنا ذكره عن نسيم باشا وموقفه من الوزارة ومن الإنجليز ومن الدستور ؟

«وقد قلنا منذ الساعة الأولى إنه قد ولى الحكم بتفاهم مع مستر بيترسون على أن يحكم مصر من غير دستور سنتين كاملتين . وأن الدستور الذى يقدم لمصر بعد ذلك لا يكون هو دستور ١٩٢٣م ، بل دستورا جديدا محدودا !!».

٥

لقد أقسم «العقاد» لزعيم الوفد فى أكتوبر سنة ١٩٣٥ وهو يشير إلى قلمه الرصاص الذى كان يكتب به مقالاته - وكان يحمله وقت جداله معه فى بيته بالإسكندرية - ألا ينتهى هذا القلم حتى تنتهى وزارة نسيم باشا من دست الحكم ، وقد صدق .. فما كاد يمضى اليوم الرابع من يناير سنة ١٩٣٦م حتى استقالت الوزارة النسيمية استقالة أشبه ما تكون بالإقالة وتولت الحكم بعدها وزارة «على ماهر باشا» ! -

وأصر «العقاد» على مخالفته لزعيم الوفد فى سياسته التى كانت تهدف إلى تولى الوزارة فى ذلك الحين ، مع مهادنة الاستعمار ، وممالأة مندوب المستعمرين فى مصر ، واشتد فى حملته على الوفد فى معارضته ، واحتد

زعيم الوفد ، وهو يجادله في اجتماع ضمه وضم سكرتير الوفد وبعض أعضائه، وذكره «بأنه زعيم الوفد» فقابل العقاد احتداده بأشد منه ، وأجابه قائلا :

«إنك زعيم الوفد ، لأن هؤلاء الذين حولك أجلسوك على هذا الكرسى ، أما أنا، فإن قلمى وحده هو الذى وضعنى فى مكان قدره رئيسك سعد زغلول وقدرته الأمة .

وأخذ الوفد يحارب جريدة روز اليوسف ، ويحاربه ، حتى عطلت هذه الجريدة، وكان قد انفصل قبل ذلك عن عبد القادر حمزة ، صاحب «البلاغ» لخلاف شخصى لا صلة له بالسياسة ، فاتفق مع صاحب امتياز جريدة «الضياء» عبد الحميد حمدى على إصدار جريدته لحسابه ، وكان هو مدير «السياسة» فيما رئيس التحرير «كليم أبو سيف» . وصدر العدد الأول منه بتاريخ ٨ فبراير سنة ١٩٣٦م فى ١٢ صفحة افتتحه «العقاد» بمقال ملأ أعمدة الصفحة الأولى بعنوان : «عهد وذكرى» ، جاء فيه ما يوضح فيه خطته ، فقال :

«فى هذا اليوم نحن بادئون بعمل جديد، ومثابرون على خطة معروفة معهودة لزمناها عشرين سنة فى خدمة الصحافة والقضية الوطنية، فمن الإطالة على حضرات القراء، أن نفيض فى الشرح، ونسهب فى العهود والوعود فيما هو معروف معهود. وحسبنا اليوم أن نقول أننا سنمضى على ما كنا فيه، لنكون قد قلنا ما فيه الكفاية ، واستغنينا عن الفضول والتكرار، فإن كان لابد من إيضاح لهذا الإجمال ، فإيضاح هذا الإجمال إننا سنعلن ما نعتقده من رأى فى غير محاباة ولا إحجام ، وأننا لن نتردد فى إبداء الرأى الذى نؤمن به ، كلما وجب إبداؤه وتعزيزه ، وإننا منذ اليوم الذى قضت فيه هذه الخطة نفسها بأن نستقل عن جميع الهيئات والأحزاب قد آلينا على أنفسنا ألا يعوق هذا الاستقلال عائق ولا يحجبه حجاب نحن قادرون على أن نميطه ونعلو عليه .. فسياستنا فى جميع المسائل والحوادث سياسة قومية تنظر إلى الأعمال ، لا إلى العناوين، وإلى المبادئ القومية ، والمصالح المصرية، لا إلى الأحزاب والهيئات ...».

ثم انتقل إلى حرية الرأى والشجاعة الأدبية فى إبدائه ، تلك الحرية التى حاربه فيها زعيم الوفد وقتئذ ، فقال :

«حرية الرأى والشجاعة الأدبية فى إبدائه هما المثل الأعلى فيما نتوخاه من عمل صحافى ومن خلق قومى تدين به الأمة ، وتعكف عليه ، ولا تعدل به مطلبا من المطالب ، ولا برنامجا من البرامج ، ولا وعدا من الوعود ! ..

«حرية الرأى والشجاعة الأدبية فى إبدائه أنفس من الاستقلال ، لأن الأمة التى تملك رأيها ، وتملك شجاعة إيمانها وفكرة الخصب ، وأدبه الرائع ، وعلمه الفياض – هى مستقلة فعلا وحقا ، ولو احتلتها فيالق الغاصبين .. فأما إذا خسرت الأمة حرية رأيها وشجاعة إيمانها ، فلا خير لها فى استقلال ، ولا دستور ، ولا نيابة ، ولا انتخاب ، لأنها تساق سوق العبيد لكل من خطر له أن يسودها من الأقرباء أو البعداء ، وتعيش عيشة العبيد ، ولو لم يكن لها سيد قريب أو غريب .. ولا فرق بين عبد مسود ، وعبد مطلق اليدين والقدمين ، لأن العبودية فى النفوس والقلوب لا فى القيود والأغلال ...»

ثم أخذ يحصى الحقائق التى دافع عنها، واختلف فيها مع الوفد ، ورأى فيها آراء سديدة صدقتها الحوادث ، وأثبتت صحتها الأيام . ثم قال فى النهاية

«.. نعم ما صنعناه ، ونصنعه فى كل حين ، وذلك هو العهد الذى نعاهد القراء عليه ، وتلك هى الذكرى التى نعود بها إلى الأذهان والضمائر ..» !

٦

هذه مقتبسات من الافتتاحية التى صدر بها هذا العدد وقد وطد «العقاد» العزم على متابعة إصدارها ، ولكنه مالبث أن حاربه خصومه بأساليبهم الحزبية ، واتفقوا مع متعهد توزيع الصحف على قتلها ، وهى فى المهد .. فانصرف «الكاتب الكبير» عن السياسة إلى الكتابة الأدبية وتأليف الكتب كما كانت عادته فى كل أزمة يتعطل فيها عن الكتابة السياسية، فيجد فى ميدان التأليف والكتابة فى الصحف الأدبية والعلمية مجالا لعلمه البليغ .

انقطع «العقاد» عن الكتابة السياسية ، أو انصرف عنها حينا .. ثم كان انشقاق الوفد الثانى بزعامة أحمد ماهر ، وتألف حزب «السعديين» ، وأصدر جريدة الدستور ، وطلبوا منه أن يكون رئيسا لتحريرها ، فلم يقبل ، واعتذر

بانصرافه عن الكتابة السياسية ، وكان وقتئذ يؤلف كتاب «سعد زغلول» الذى صدر فى ستمائة وثلاثين صفحة ، ولما أصدر هذا الحزب جريدة «الأساس» كان محمود فهمى النقراشى زعيم هذا الحزب ورئيس الوزارة وقتئذ بعد مقتل أحمد ماهر ، فألح على صديقه «عباس العقاد» ، أن يحرر فى جريدة الأساس ، فأخذ يكتب مقالاته السياسية مستقلا فى آرائه التى يراها فى الأحداث الوطنية والمسائل القومية كعادته فى كل ما يكتب ، وخصص «يوم الثلاثاء» للكتابة الأدبية، ولكن جهده الأكبر منذ تعطلت جريدة الضياء فى سنة ١٩٣٦ قد انصرف إلى تأليف الكتب وتحرير الفصول الأدبية فى المجلات الشهرية والأسبوعية .

ونستطيع أن نقول أن المدة التى بدأت من سنة ١٩٣٦ إلى أن انتهت بوفاته فى مارس ١٩٦٤ كانت أخصب إنتاجا ، وأكثر تأليفا من غيرها فى حياة قلمه المباركة ، فقد ألف فيها خمسة وسبعين كتابا من نحو مائة كتاب ونيف ألفها طول حياته .

هذا عدا نحو خمسة عشر ألف مقال أو تزيد كتبها فى الآداب والعلوم والفنون فى الصحف العلمية والأدبية مما يملأ مئات من الكتب الأخرى إلى ما خلف من مؤلفات غزيرة .

٧

ولقد كان ديمقراطيا فى حياته ، واشتراكيا تعاونيا فى مذهبه ، فقد سئل يوما : «لماذا هو ديمقراطى؟» فأجاب : لأننى لست بالمذل ولست بالذليل ، ولست بالمؤمن بصلاحية الاستبداد فى جميع الأحوال ، وهذه هى الأسباب التى تبغض إلىَّ الاستبداد حيث كان ، وتحبب إلىَّ الديمقراطية حيث كانت ، ولو كانت بين أناس لا يستحقونها حسن استحقاق

«فالحرية فى أقبح أوصافها خير من الاستبداد .. وقد شبع العالم من عيوب الحكم المطلق ألوفا بعد ألوف من السنين ..» .

وقال عن مذهبه الاشتراكى من مقال كتبه فى ذلك : «إنه هو اشتراكية التعاون التى تحداها ولاة الأمر فى وطننا ، لاصلاح المجتمع بتحسين معيشة

العامل والفلاح ، وتحديد الثروة على أنواعها ، وتقريب المسافة بين طبقات الأمة وهى اشتراكية تؤتى ثمراتها على التحقيق ، كلما تتابعت بها التجربة بعد التجربة ، على أساس التوفيق بين تقييد الاحتكار والاستغلال ، وإطلاق النشاط الحر ، والكفاية الضرورية فى ميادين العمل كافة .. » .

٨

وقد كتب فى عهد ثورتنا الحاضر مقالات العروبة والعرب والسياسة العربية من جوانب العامة ، وكتب عن كتاب «فلسفة الثورة» للرئيس جمال عبد الناصر مقالا ضافيا قارن فيه بين الثورة الفرنسية والثورة التركية ، والثورة الصينية ، والثورة المصرية ، ثم قال عن كتاب رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر :

«وبعد هذه المقارنة السريعة بين ثورتنا ، وثورات غيرنا نرى أن التفاهم على التفصيلات قريب كالتفاهم على الأصول الكبرى .

فقد قرأت الصفحات الثمانين التى كتبها الرئيس جمال عبد الناصر فى كتاب «فلسفة الثورة» فخرجت منها وأنا أعتقد أن الخلاف عليها أقل خلاف فى مثل هذه الصفحات وفى مثل هذا الموضوع .

«صواب ولا شك أن الحركة المصرية ، لا توصف بأنها تمرد عسكرى» .

«وصواب ولا شك أن الحاضر يعيش ببقية من مساوئ العهود الماضية ، وهذا هو سبب الأسف والأسى ، ولكنه كذلك باب الأمل والعزاء ، لأنه يدفع اليأس من النفوس إذا عولج ، فلم يذهب به العلاج بين عشية وصباح «إذ لم يكن فى غمضة عين أن تزول رواسب قرون» .

وصواب كذلك ، أن الشك آفة معطلة للجهود معطلة للأفكار والآراء ، فليس الإنصاف وحده بالذى يشفع لأصحاب الشكوك ، ويعفيهم من عقاب لم يستحقوه وحدهم بعد أجيال وأجيال ، ولكن العلاج المأمون نفسه هو الشفيع البليغ شفيع الانصاف .

«يقول السيد الرئيس جمال عبد الناصر : (كان من السهل وقتها ، ومازال سهلا حتى الآن أن نريق دماء عشرة أو عشرين ، أو ثلاثين ، فنضع الرعب

والخوف فى كثير من النفوس المترددة، ويرغمها على أن تبتلع شهواتها وأحقادها وأهواءها ..).

«ثم يقول: (.. ولكن أية نتيجة كان يمكن أن يؤدى إليها مثل هذا العمل ؟.. كان من الظلم أن يفرض حكم الدم علينا دون أن ننظر إلى الظروف التاريخية التى مر بها شعبنا والتى تركت فى نفوسنا جميعا تلك الآثار).

«نعم يكون ذلك ظلما، ويكون أكثر من ظلم، لأنه يصيب من لم يصبه العقاب فيضاعف داء الشك والحذر، ويبطل فائدة العلاج، ويئس من عقباه..».

ثم يتناول «العقاد» بعد ذلك ما جاء فى «فلسفة الثورة» بالتعليق.. ويقول فى ختام المقال:

«.. على أن الصفحات الثمانين التى تشتمل عليها «فلسفة الثورة» لا تنحصر بالقارئ فى حدود الأفق المصرى، وإن كانت لا تخرج به من آفاق المسألة المصرية فى أوسع حدودها.. فالمصرى فى عصرنا هذا لا يهتم بوطنه حقا إن لم تشغله علاقاته بثلاثة آفاق أو عوالم.. لا تنفصل لنا من وطنه. وهى العالم العربى والعالم الأفريقى والعالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه.

«.. أين نحن من العالم العربى ؟

«أين نحن من العالم الأفريقى ؟

«أين نحن من العالم الإسلامى ؟

«نحن فى قلب كل عالم من هذه العوالم فليس فى وسعنا أن نجهل علاقتنا بها ومستقبلنا معها. يقول الرئيس جمال: (إن نصف الاحتياطى المحقق من البترول فى العالم يرقد تحت أرض المنطقة العربية.. فنحن أقوياء أقوياء ..)

«ويقول: (إننا لن نستطيع بحال من الأحوال حتى لو أردنا - أن نقف بمعزل عن الصراع الدامى المخيف الذى يدور اليوم فى أعماق إفريقيا بين خمسة ملايين من البيض، ومائتى مليون من الأفريقيين.. إننا فى قلب أفريقيا، والنيل شريان الحياة لوطننا يستمد ماءه من قلب القارة ..).

«ويقول الرئيس عن العالم الإسلامى: (حين أسرح بخيالى إلى ثمانين مليونا من المسلمين فى أندونيسيا وخمسين مليونا فى الصين، وبضعة ملايين فى الملايو وسيام وبورما، وما يقرب من مائة مليون فى الباكستان وأكثر من

مائة مليون فى منطقة الشرق الأوسط، وأربعين مليونا داخل الاتحاد السوفيتى، وملايين غيرهم فى أرجاء الأرض المتباعدة - حين أسرح بخيالى إلى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة أخرج بإحساس كبير بالإمكانيات الهائلة التى يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعا، تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصيلة بالطبع، ولكنه يكفل لهم ولإخوانهم فى العقيدة قوة غير محدودة).

ويعلق «العقاد» على كلام الرئيس، فيقول:

«وهذا كله صحيح فى الجملة والتفصيل، وليس الاهتمام به من طموح الشباب، كما يتخيل المتخيل الوادع فى عقر داره، بل أخشى أن أقول إنه من أعباء الشيخوخة قبل أوانها.. بل من همومها فى أبانها، إن كان حمل الهموم البعيدة وقفا على الشيوخ.. !

«ماذا نصنع أن جنى البترول على العالم العربى، فضيعه بدلا من تزويده بأسباب القوة والمنعة.

«وماذا نصنع أن أصبحت أفريقية للمستعمرين الأوربيين ولم تصبح فى الغد القريب أفريقية للأفريقيين.

«وماذا نصنع أن تهدم معنى الحياة، كما تمثله المادية الحيوانية، أو كما تمثله الحضارة الحسية، ولم نعتصم من التيار الجارف بعصمة شريفة تعمر نفوس الملايين، وترتفع بها من غمار الذل والاستكانة، أو غمار القنوط والحيرة ؟

«فروض جسام، ولكنها فروض واقعة لا تهدأ ولا تنام ..»!

٩

ذلك بعض ما جاء فى مقال العقاد عن «فلسفة الثورة»، وهو مقال يعد من عيون مقالاته التى لم تجمع فى كتاب، وقد آثرنا أن نتحدث عنه فى هذا التقديم.

أما مقالاته الفلسفية والأدبية والعلمية الأخرى فقد أضفنا بعد الفصل الثامن إلى هذا الكتاب فصولا أخرى تحتوى على «ذكريات شخصية» ومقالات عن

«أرض الميعاد» هي بحوث كتبها بعد زيارته لفلسطين قبل التقسيم ، ومقالات أخرى في الأدب والفلسفة والشعر والدين ، وهذه المقالات اخترناها مما لم ينشر في كتاب من كتبه ، وفي عزمنا أن ننشر من هذه المقالات مجموعات أخرى في كتب ملائمة لموضوعاتها المتقاربة ، أو المتجانسة في الفن ، والفلسفة والعلوم والآداب عما قريب ! ..

وقد أنتج في الأثنتي عشرة سنة الأخيرة أضعاف ما أنتجه في غيرها من السنين السابقة لعهد الثورة ، فمنذ قامت الثورة المصرية في سنة ١٩٥٢ إلى أن توفي أنتج ما يربو على أربعين كتابا ، وهذا يدل على نشاطه الكبير في شيخوخته بعد أن بلغ الثالثة والستين من عمره .

ولقد كانت الدور العلمية والأدبية تتسابق إلى نشر مؤلفاته ، كما كانت الصحف والمجلات تهتم بنشر بحوثه ودراساته ، وكان من عادته فيما عدا مؤلفاته ومقالاته السياسية أن يفضل اقتراح الجريدة أو المجلة في الموضوع الأدبي أو العلمي الذي تريده، أما الموضوعات السياسية فهو صاحب اقتراحاتها ، لا يقبل من أحد أن يملي عليه اقتراحًا سياسيا يكتب فيه ، ولو كان سعد زغلول الذي كان يقدره ويحبه ، وفي ذلك يقول :

«إنني أفضل اقتراح المقالات الأدبية للمجلات والصحف اليومية لسببين :

«أحدهما أنه يريحني من حيرة التردد بين الموضوعات الكثيرة ، فلا أضيع الوقت بين المناسب والأنسب ، وبين الحسن والأحسن . وثانيهما أن محرري المجلة أو الصحيفة أولى باختيار موضوعاتها وتنسيقها ، لأن الكتاب قد يكررون الموضوع إذا اختار كل موضوعه مستقلا باختياره من غير مشاورة ولا مقابلة ، فلا محل للاعتراض على محرر المجلة إذا اقترح موضوعا لكل كاتب يعاونه على عمله ، ولا مساس بكرامة الكاتب من الاقتراح عليه بل هو نقيض ذلك دليل على الثقة ، وتحقيق لقول القائل : «اطلب تجد» ويقصدون به القدرة على الاستجابة لكل سؤال .

«وإنني على ترحيبي بالاقتراح الأدبي ، أرفض كل اقتراح سياسي بالكتابة في مسألة من مسائل السياسة وقد كان سعد زغلول رحمه الله - وهو زعيمنا الذي نحبه ونجله - يعلم ذلك، فلا يقترح على الكتابة ولا الكف عن الكتابة

وغاية ما يستبيحه من طلب الكتابة إذا أرادها أن يبسط المسألة للمناقشة ، ويسمع ما نقوله فيها : فإن يجد أن الرأي متفق مع وجهة نظره قال : «أود أن أقرأ لك شيئا في هذه المسألة» .. !

«وقد حدث أن اللورد جورج لويد «المندوب السامي في ذلك الحين» طلب إليه أن يكفنا عن الحملة عليه ، وأرسل إليه من يبلغه أنه يحسبه موعزا بها ، فما زاد على أن قال قولته المشهورة : «هذا شرف لا أدعيه ، أو تهمة لا أدفعها» .

«ولم يفض إلينا بما حدث إلا بعد انقضاء الأزمة . وقد سيرت فيها الأساطيل للإنذار والإرهاب ، أو للتهويل والتمثيل ، وإننا نحمد الله على ما فرق به بين الأدب والسياسة ، فلولا ذلك ما طلبنا بأنفسنا اقتراحا في الكتابة الأدبية ، ورفضنا الاقتراح في السياسة وأنكرناه وإن تحركت له الأساطيل» !

هذا ما أردنا أن نقدم به حياة قلمه ، وأن نتتبع أحداثه وتطوراته السياسية والأدبية بالإجمال ، بعد ما وقف به الأستاذ العقاد عن ابتداء ثورة سنة ١٩١٩م، فقد كان في عزمه أن يكمله لولا أمر ما وقف به هذا الموقف .

ويرى القراء فيما قدمنا من صفحات هذا التقديم صورة واضحة - وإن كانت مركزة في لمحات - عن جهاد هذا القلم وصاحبه في نحو خمسة وأربعين عاما من حياته الفذة ..!

فحياة قلم العقاد فذة عظيمة بلا ريب ، ليست كحياة أي كاتب أو أديب في عصره ، ويزيد هذه الحياة قيمة ومكانة أن صاحب هذا القلم كان عصاميا في نشأته وجهاده ، وأنه في كل ما حصله من علوم وفلسفة وآداب ، كان أستاذ نفسه وولي أمره ، ومدرسة فكرية جامعة ، ومكتبة نفيسة بالاطلاع الواسع .

وقد زود اللغة العربية وعلومها وآدابها بثروة قيمة إلى ثروتها الكبرى ، ولو أن كتابات العقاد ومؤلفاته ، فقدت من المكتبة العربية لخسرت خسارة فادحة لا تعوض ، لأنها عصارة فكر قوي ، وحصيلة قريحة خصبة ووليدة ثقافة أصيلة ، وإنتاج ذهن عبقري ، عاش صاحبه أديبا مجاهدا ، وعالما مفكرا ، ومؤلفا غزير الإنتاج واسع الاطلاع ، وفيلسوفا سامي المبادئ ، عظيم الأهداف ..!

طاهر أحمد الطناحي

... ولادة قلم ...

ألا أعرف نفسي؟

سؤال نسمعه كل يوم ولا نجيب عنه، ولا يجيب عنه قائله، لأنه في عرفنا جميعا غني عن الجواب، أو جوابه بلسان الحال يغني عن جوابه بلسان المقال وكأننا نقول لكل من يسأله: عفوا .. كيف لا تعرف نفسك؟ .. تعرفها بالتحقيق

ومع هذا أقول بعد تجربة طويلة للبواعث النفسية التي تدفعني إلى أكبر الأعمال وصغر الأعمال على السواء:

إن الإنسان يعرف نفسه بالتخمين لا بالتحقيق، وأنه كثيرا ما يكون تخمينه عنها غريبا يبحث عن سر غريب، ولا فرق في هذا بين البحث عن نفسه والبحث عن أعمال غيرنا إلا في الدرجة والمقدار، بحكم العادة والتكرار

حديث مع نفسي!

إنني أعمل في تحرير الصحف من خمسين سنة(١)، وكنت أكتب لها متطوعا قبل ذلك بسنوات قليلة .. وأزيد القارئ فأقول: إنني منذ بلغت سن الطفولة وفهمت شيئا يسمى المستقبل لم أعرف لي أملا في الحياة غير صناعة القلم ولم تكن أمامي صورة لصناعة القلم في أول الأمر غير صناعة الصحافة

ولكنني مع هذا أسأل نفسي الآن كما سألتها من قبل: لماذا اخترت هذه الصناعة دون غيرها في طفولتي، وجعلتها أملا من آمال الحياة الكبرى .. بل أمل الحياة الأكبر؟ فلا أدري باعث هذا الاختيار على سبيل التحقيق، ولا أستغني فيه عن التخمين أو التخمين الكثير، بعد المقارنة بين ذكريات الطفولة

(١) كتب هذا الفصل - وهو أول فصول حياة قلم - في أغسطس سنة ١٩٤٧

وملابساتها وبعد الترجيح من هنا والشك من هناك، كما يفعل الباحث في السير والتراجم حين يعمد إلى التخمين عن حياة الآخرين.

وأكثر من هذا إنني «أضبط» نفسي وهي تروغ مني وتحاول أن تقنعني بوجهة غير الوجهة التي تعنيها أو تعنيني، ثم نتلاقى مبتسمين. وأكاد أسألها: أأنت هنا؟ وتكاد تسألني: وها أنت يا صاح؟ .. ثم لا نلبث أن نعلم أننا لم يفهم بعضنا بعضا من الكلمة الأولى، وإننا نحتاج بعدها إلى كلمة أو كلمات نثوب بعدها إلى التفاهم والاتفاق.

* * *

قلت: إنني لم أعرف لي في طفولتي أملا غير صناعة القلم.

وهذا صحيح ..

وهذا غير صحيح ..!

صحيح إذا نظرنا إلى الوجهة القصوى في نهاية الطريق.

وغير صحيح إذا نظرنا إلى عطفة هنا أو منعرج هناك أو زقاق بين بين في أثناء الطريق.

كلا! بل تمنيت حينا أن أكون جنديا، وتمنيت حينا آخر أن أكون عالما زراعيا، وهما فيما يبدو صناعتان متباعدتان!

ولكنني لم ألبث أن علمت أنني تعلقت بالجندية لأنني أريد صناعة القلم، وتعلقت بالعلوم الزراعية لأنني أريد صناعة القلم، وإن صناعة القلم كانت تلمحني بعينيها الساحرتين من وراء النقاب وأنا أحسبني أغازل صناعة السيف أو أغازل صناعة المنجل والمحراث ..

حادث مع قومندان الإنجليز:

كانت لعبة الجيوش في أواخر القرن التاسع عشر لعبة الأطفال المفضلة في أسوان، وكانت دروب المدينة وحيشان المدارس والمكاتب ميادين قتال لا ينتهي بين جيش مصر وجيش السودان وجيش الدراويش وجيش الترك وجيش الإنجليز .. وكلهم بين قادة وجنود من صغار الأطفال الذين لا يجاوزون العاشرة، لأن المسألة كانت جدا - ولم تكن لعبا فحسب - مع الأطفال في

هذه السن على الخصوص . إذ كانوا يسمعون أن الدراويش إذا دخلوا قرية قتلوا رجالها وسبوا نساءها ، وحملوا أطفالها مطعونين على أسنة الحراب، فلا جرم تشغلهم هذه الحرب عن شاغل من شواغل الخطر والخوف فضلا عن شواغل الألعاب ..

ومما أتمثله أمامي حتى الساعة ، وأبتسم له كلما تمثلته - منظر زميلنا المقدام «عبد المعطي فرج» قائد الجيش السوداني المغير على مكتب «القومندان» في المعسكر الإنجليزي وهو يصيح وأذنه في يد القومندان الجبار :

«مش أنا يا عمي .. مش أنا والله يا مستر ..» ويكاد القومندان يقهقه وهو يدفعه إلى الخارج ويزجره قائلا «سأعلمك كيف تنط يا خنزير!»

ذلك أننا في هذه الهجمة زودناها حبتين ، ولعلها زادت في الحقيقة أكثر من حبتين ..

قررنا - نحن قادة الجيوش المصرية - والسودانية - أن نهجم حقا على القومندان الإنجليزي في معقله بجانب المدرسة . وكان هذا القومندان رجلا صارما يخشاه الإنجليز من مرءوسيه ويستعيذ من شره أهل المدينة الخاضعون لأحكامه العرفية ، فما هو إلا أن سمع دبة عبد المعطي تحت السور حتى وثب إلى الباب مستغربا أن يجترئ أحد على اقتحام مكتبه هذا الاقتحام في وضح النهار ، وفتح الله على قائدنا المغوار - عبد المعطي - بالعذر الوحيد الذي لا يقبل التصديق في هذا الحرج الشديد . إذنه بين أصبعي الرجل ولسانه يصيح: إنه ليس هو المقبوض عليه .

على الربابة :

هذه اللعبة - لعبة الجيوش - كانت شغلنا الشاغل في المدينة التي لا لعب ولا لهو فيها ، وكانت من جانبي أنا على الأقل لعبة عسكرية أدبية في وقت واحد .. لأنني كنت قائد الجيش المصري الذي يطلب المبارزة من الأعداء ويطلبها على الطريقة العنترية الهلالية الزينية المشهورة في ملاحم شعراء الربابة : فلا يبدأ الصدام قبل تبادل الشعر الحماسي على حسب المقام ..

وكان زملاؤنا - أو أعداؤنا - يستعينون في تحضير هذه الحماسيات بشعراء الربابة الذين امتلأت بهم قهوات البلدة في أيام الحملة السودانية وأغنوها عن المسارح وملاعب البهلوانات والفرفورات ، لازدحام المدينة بالجنود والباعة من أبناء الصعيد - طلاب هذا الضرب من القصص والأناشيد - ومن لم يجد من الطلاب بغيته عند شاعر الربابة طلبها في بيت هنا أو قطعة هناك من كتب المحفوظات أو روايات التمثيل ، وفيها الكثير من مواقف الفخر والحماسة أو مواقف التخويف والتهويل .

وكنت أنا قد جربت نظم الشعر في بعض المقاصد المدرسية ، فشجعتني التجربة على نظم الأناشيد الحماسية لميدان المبارزة . وأردت أن أثبت للسامعين أنني صاحب تلك الأناشيد فالتزمت في نظمها أن أذكر اسمي كاملا في كل قطعة منها ، وانتصرت بها انتصارا أعظم من انتصار القتال . إذ أوشكت المناوشة كلها أن تنحصر في الاستماع إلى قصائد الفخر والحماسة بغير قتال ..

وانتهت مدتي في الجندية بنهاية هذه الجندية المتطوعة !! فلم يعسر علي أن أفهم أن حماسة النشيد هي بيت القصيد عندي من الجندية والتجنيد . وأنها كانت متنفسا للملكة الناشئة التي لم تستقر بعد على قرار ..

سر الولع بالزراعة :

أما الولع بالعلوم الزراعية ، فلم ألبث أن علمت أنه في دخيلته ولع بتطبيق الأشعار التي أقرأها عن الأزهار والعصافير والحدائق وجداول الماء والأنهار .. وربما كان مدخلها إلى نفسي أعمق من ذلك وأخفى مكانا عن النظرة الأولى التي نظرتها بها يوم ذاك ، فإن علوم الزراعة تعين على مراقبة أطوار الحياة وغرائب الحيوان والنبات ، وليس أوثق من العلاقة بين الدراسات النفسية وبين تلك الغرائب والأطوار ، ولا أراني حتى الساعة أوثر كتابا في سيرة علم من أعلام التاريخ على كتاب في طبائع الأحياء والحشرات أو آثارها القديمة في بقايا الحفريات ..

كانت أمنية الجندية وعلوم الزراعة إذن ترجمة لأمنية الكتابة مستعارة فى صور الصناعات الأخرى ، وبخاصة حين نذكر أنها كتابة لا تخلو من نضال ، ولا تخلو كذلك من زراعة ولا من عناية بالحياة والأحياء .

ومثل هذه الترجمة فيما أظن معهودة فى كل محاولة ناشئة قبل أن تستقر على قرارها . فلا يزال الناشئ يتمنى شيئا بعد شئ ويجهل ما يتمناه حتى يثبت فيه على القرار الأخير .. ويومئذ يعلم أنها كانت جميعا أمنية واحدة فى باطنها ، وأنه كان بينه وبين نفسه فى هرب ولقاء كأنهما فى طرد البحث والاستخفاء

أول مجلة :

وأحسبنى حتى الساعة لم أبلغ من معرفة الباعث الصحفى فى نفسى مبلغ اليقين الجازم الذى لا رجعة فيه ولكننى على يقين جازم من أننى أنشأت صحيفة فى طفولتى الباكرة ، وأننى لم أنشئها قبل أن أطلع على ودائع دولاب المنظرة فى بيتى ، وأكثر ما فيه صحف أسبوعية أو شهرية قديمة ، وأكثر هذه الصحف القديمة من مجلات عبد الله نديم ، وليس بينها أكثر عددا ولا أكبر حظوة عندى يومئذ من مجلة «الأستاذ» .

ودولاب المنظرة مستودع عزيز يعرفه أبناء الريف ولا تخلو منظرة فى بلدة ريفية من دولاب منه على الأقل . يفرغ فى جوف الحائط ويقام عليه باب بمفتاح أو بغير مفتاح ، ويغلب أن يكون الباب بغير مفتاح لأن الودائع التى يحرص عليها أصحابها لا تودع فى المنظر على متناول الداخل الغريب .

وعلى تعداد الصحف فى دولاب المنظرة عندنا لم تكن بينها صحيفة أبرع فى العناوين من صحف عبد الله نديم ، وكان هذا الصحفى المطبوع أستاذ زمانه ، بل لعله أستاذ من أساتذة العناوين فى كل زمان ..

من عناوينه عنوان «كان ويكون» للترجمة ، وعنوان «التنكيت والتبكيت» لاسم صحيفة ، وعنوان «المسامير» لكتاب هجاء ، وعناوين أخرى بهذه البراعة لعشرات من الفصول والأخبار .

معارضة النديم !

وافتتنى العناوين البارعة فقرأت كل ما وجدته من صحف النديم ، ووجدتنى ذات يوم أقطع الورق قطعا على قدر المجلة وأعمد إلى مكان العنوان منها فأكتبه بخطى متأنقا وأعارض عنوان «الأستاذ» بعنوان «التلميذ» .

أما المقالة الافتتاحية فقد كانت أيضا من قبيل المعارضة لمقالة من أشهر المقالات التى تردد صداها زمنا فى البيئات المصرية ، وهى المقالة التى جعل عنوانها «لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا» ، وافتتح بها الجزء الثانى والعشرين من السنة الأولى .

فكتبت مقالى الافتتاحى وجعلت عنوانه «لو كنا مثلكم ما فعلنا فعلكم» .

وكان فحوى مقال النديم أننا نطلب الاستقلال وندعى أننا والأوربيين أشباه وأمثال ، ولكن الأوربيين ينكرون هذه الدعوى ، ولا يكلفون أنفسهم غير دليل واحد يثبتون به الفارق البعيد بيننا وبينهم ، فإذا قلنا لهم نحن مثلكم قالوا لنا تلك دعواكم ، ولو كنتم مثلنا لفعلتم مثلنا ..

واستغرقت مقالة النديم أكثر من عشرين صفحة ختمها بقوله «إن آخر الدواء الكى وقد بلغ السيل الزبى فإن رفأنا هذا الخرق وشددنا أزر بعضنا .. أمكننا أن نقول لأوربا نحن نحن وأنتم أنتم ، وإن بقينا على هذا التضاد والتخاذل واللياذ بالأجانب فريقا بعد فريق حق لأوربا أن تطردنا من بلادنا إلى رؤوس الجبال لتلحقنا بالبهيم الوحشى وتصدق فى قولها : لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا» .

* * *

وتناولت فى مقالى فقرات النديم واحدة واحدة بردود لا أذكرها الآن ، ولكنى أذكر منها ما يدل عليه العنوان ، وفحواه إننا نحن الشرقيين لو كنا مثلكم – أيها الغربيون – فاتحين منتصرين لما فعلنا فعلكم من نهب الأموال واستباحة الحقوق وافتراء الأكاذيب والتعلل بالمواعيد ، ولكننا لسنا مثلكم ولا نريد أن نفعل فعلكم ، وسترون فعلنا عما قريب ..

ثم أصدرت من صحيفة التلميذ المخطوطة بضعة أعداد لم يكن لها من قراء غير زملائى فى المدرسة وأقاربى المشجعين أو المتندرين المتفكهين . ولم يكن لها من اشتراك غير تعب النسخ لمن يراها مستحقة لهذا الثمن ..

عـادة .. مـن أيامهـا !

أخالنى الآن على حق إذا قلت إن هذا السر – سر دولاب المنظرة – هو كذلك سر الاتجاه الأول عندى إلى صناعة القلم ، ويؤيد هذا الظن الراجح أننى تعودت من أيامها عادة لم تفارقنى إلى اليوم فى تجهيز ورق الكتابة الصحفية بصفة خاصة .. فهذه الورقة التى أكتب عليها الآن مقصوصة على النحو الذى اخترته لصفحات مجلة «التلميذ» ... ومتى كتبت طويتها طولا كما تطوى المجلة ووضعتها فى غلاف مستطيل كالغلاف الذى توضع فيه المجلات . وقد اتخذت من هذه الأوراق ومن ذلك الغلاف ذخيرة حاضرة أوصى بصنعها إذا نفدت من السوق ، كما تنفد أحيانا فى بعض أيام الحروب العالمية .

* * *

وعلى هذا النحو من التخمين نعرف أنفسنا باحثين مترددين ، قبل أن نصل إلى اليقين إن وصلنا إلى يقين

لكننى لا تفوتنى كلمة سمعتها من صديق كان يدئننى كلما تساءلت عن سر اتجاهى إلى صناعة القلم فيقول : وهل من حاجة إلى البحث عن سر هذا الاتجاه ؟ ألا يكفى أنك أنست من نفسك القدرة على الكتابة فاتجهت إلى صناعة الكتابة ؟ ..

ولست على رأى الصديق فى هذا التعليل لاتجاهاتنا النفسية ، فإن الملكة النفسية تخلق فينا قبل أن تخلق لها أدواتها ، وربما كانت سهولة الكتابة عندى نتيجة مستفادة من سهولة القراءة ، ولم أكن قارئا لأننى سأكون كاتبا يوما من الأيام متى تيسرت الأداة .

على أن شعور الطفل بقدرته على الكتابة لا يأبى عليه أن يتمنى الوزارة أو يتمنى الوجهة الاجتماعية أو يتمنى صناعة القلم مبتدئا بغير الصحافة من الأعمال الكتابية . ولست أعتقد أن مئات الأطباء والمهندسين والصناع وذوى الملكات المنوعة الذين ظهروا من أبناء جيلى قد استلهموا اختيار صناعاتهم من وحى القدرة على علم من علومهم المدرسية ، بل لعلهم توجهوا وجهتهم فى مستقبلهم على الرغم من جميع تلك البدع .

جيـــل وجيـــل

كان عبد الله النديم أستاذ مدرسته فى الصحافة والدعوة الوطنية ، وكان كل من نشأ بعده بقليل بين واحد من اثنين : إما تلميذ يقتدى به ، وإما خصم يبغضه وينحى عليه

ونشأ مصطفى كامل فى هذه المدرسة . وكان خصوم النديم يزعمون أن الخديو لم يعرض عن الأستاذ ويقبل على التلميذ إلا لأن أبناء الأسرة الخديوية غضبوا لتقريبه رجلا كان يحرضهم فى الثورة العرابية ويعمل على تقويض عرشهم . فاختار الخديو من تلاميذه شابا بعيدا عن هذه الشبهة وميزه على أستاذه لمعرفته باللغة الأفرنجية . وقال ولى الدين يكن فى كتابة «المعلوم والمجهول»

من أجل هذا قال أكثر الأمراء من الأسرة الحاكمة على مصر أن مقام الإمارة لا يقرب منه النديم لأنه عدو أسرته وجنسه . وبهذه السياسة المضحكة آل الأمر إلى الاعتماد على «كامل» وقد كان كامل ممن يرددون نغمات النديم ، وإنما ميز المعقد عن المحتذى إلمامه باللغة الفرنساوية واستطاعته بيان آرائه للغربيين ولم يقدر النديم على مثل ذلك» .

إلا أن الأمر لم يكن فى هذه المسألة خاصة أمر اللغة الأفرنجية ، لأن الخديو قرب إليه الشيخ على يوسف التميمرى وهو ممن أنشأوا الصحف منافسة للنديم وتطلعوا إلى محاكاته فى النهج والأسلوب . ولكنها مسألة المدرسة الصحفية التى كانت تحمل علم الدعوة أمام الصحافة المسخرة للدعاية الأجنبية ، ولم تكن هناك مدرسة تحمل هذا العلم فى أول عهد الاحتلال غير مدرسة النديم .

ويصدق هذا على جيل النديم والجيل الذى تلاه ، ولكنه لا يصدق على الجيل الذى نشأ بعد ذلك بسنوات ، لأن هذه الفترة قد اتسعت لعوامل جديدة فى السياسة والتفكير تختلف العوامل التى غلبت على الثورة العرابية أو على جيل المخضرمين بين الثورة والاحتلال .

ولهذا أرجع إلى ظواهر كثيرة صاحبت نشأتي الصحفية فلا أستطيع أن أقول إنني على الجملة من تلاميذ مدرسة النديم . وإن كان النديم أول من لفتني إلى العمل في الصحافة وكانت مطالعته أول مطالعة وجهتني إلى هذه الصناعة.

لا بل هناك مشابهات عديدة بين النديم وبيني لا أدري هل جاءت من وحي القدوة الخفية أو جاءت مصادفة بغير قصد مني ولا من غيري ..

فقد تعلمت صناعة التلغراف كما تعلمها النديم ، واشتغلت بالتعليم في مدرسة خيرية كما اشتغل النديم ، وجربت الاستخفاء عن الرقابة البوليسية أكثر من مرة في إبان الحرب العالمية الأولى ، وكذلك فعل النديم عند مطاردته في أعقاب الثورة العرابية .

ولكنني - مع هذه المشابهات - لم أشعر من قبل ولا أشعر الآن بأن الرجل قدوتي المختارة بين أمثلة النبوغ التي أتمثلها أو بين الشخصيات المثالية التي أحبها وأحب أن أنتمي إليها ..

وأحسب أن المرجع في هذا الاختلاف إلى سببين : أحدهما يرجع إلى الأحوال العامة، والآخر يرجع إلى المزاج الشخصي الذي فطرت عليه

فالأحوال العامة في عصرنا تخالف الأحوال العامة قبيل الاحتلال أو في الفترة بين الثورة العرابية والاحتلال ، لأن دخول الإنجليز مصر كان مسألة دولية تعمل فيها الدولة العثمانية عملا «قانونيا» يصح الاعتماد عليه باعتبارها صاحبة السيادة القانونية على الديار المصرية ، وكانت مناورات الدول المتنافسة على فتوح الاستعمار بابا مفتوحا على مصراعيه يتسع للمساومات والدسائس والمعاكسات ويتعلق الأمل به من جانب المصريين بين حين إلى حين ..

وهذا فيما نظن أحد الأسباب التي تحولت بأنظار السيد النديم وتلاميذه إلى الدولة العثمانية ، وجعلت سيادة هذه الدولة على مصر ركنا مهما في برنامج مصطفى كامل والحزب الوطني الذي قام على يديه ..

أما في عصرنا - نحن الذين ولدنا بعد الاحتلال - فقد أصبحت مسألة الاحتلال من أعبائنا الوطنية التي لا عمل فيها للدولة العثمانية ولا مناورات

الدولية ، وإنما يقع العبء الأكبر فيها على عواتقنا نحن المصريين .. فلا يجوز لنا أن نفرط في مبدأ الاستقلال من أجل صيغة «شكلية» لا تفيدنا في جهادنا إن صح أنها كانت تفيدنا قبل ذلك .

هذا هو سبب الاختلاف بين جيلنا وجيل النديم فيما يرجع إلى الأحوال العامة .

وأما سبب الاختلاف الذي يرجع إلى المزاج الشخصي فخلاصته في كلمتين: إن الرجل كان ينزع كثيرا أو قليلا إلى شيء من التهريج ، وإنني نشأت في بيئتي البيتية بين أبوين محافظين أشد المحافظة على سمت الوقار و«اللياقة» ونقلت هذا الخلق منهما بالوراثة كما نقلته بالقدوة والمحاكاة ..

كل الناس .. ولا عباس !

ومما يحضرني من ذكرياتي فيما دون العاشرة أنني رفضت كل الرفض أن ألبس البنطلون القصير يوم دخلت المدرسة في نحو السابعة من عمري ، وإنني رفضت أشد الرفض أن أجيب المعلم حين دعاني باسم «عباس حلمي» جريا على تقاليد ذلك العهد التي بقيت إلى الآن في أسماء المعاصرين .. فلم يكن أحد من التلاميذ يدعى باسم أبيه ولكنهم كانوا يلقبون بألقاب حلمي وصبري ولطفي وحسني وشكري وما شاكلها على حسب المطابقة لأسماء المشهورين أو الموافقة لجرس اللقب ورنينه في الأسماع ، فبقيت واحدا من قليلين يذكرون بأسماء آبائهم بين أبناء ذلك الجيل . ولولا إصراري على رفض اللقب المستعار لكان اسمي اليوم «عباس حلمي محمود» كما كتب في قائمة «التصنيف» أي توفيق الأسماء والألقاب .

وإلى اليوم يذكر شيخاتنا وشيوخنا في الأسرة كلمة الأمهات التي كن يرددنها لأطفالهن كلما أصابهم ما يضيرهم من التورط في المزاح معي وراء الحد الذي أسيغه ، فإذا ذهبوا إلى أمهاتهم يشكون ما أصابهم كان الجواب الذي يقال بين الضحك والغضب : امزح مع من شئت يا بني .. ولكن «كل الناس ولا عباس !».

ومن الطبيعي لطفل في هذا المزاج أن ينظر إلى مثله الأعلى فلا يراه في صاحب التنكيت والتبكيت وصاحب المسامير ، وأحسبني لم أفضل الأستاذ

الإمام محمد عبده على صاحبنا النديم إلا لسبب من جملة أسباب ترجع إلى هذا المزج ، فإن وقار محمد عبده هو القدوة التي ارتضيها حين أنظر إلى النديم فيظفر مني بالثناء ولا يظفر مني بالاقتداء ، وكلاهما فيما عدا هذا الخلق صنوان ينتميان إلى الثورة العرابية وإلى مدرسة جمال الدين وإلى العمامة والبيئة الأزهرية ..

مدرستان !..

ولما كانت أسباب الاختلاف بين النديم وبيني ، فالعصر الذي نشأت فيه لا يسمح لمدرسة واحدة أن تطغى على أفكار الناشئة في كل بقعة من بقاع البلاد المصرية .. لأنه كان عصرا مزيجا مضطربا بين عصرين ذهب أحدهما ولم يخلفه عصر قائم على رأى واضح مقسوم بين كل فئة من المذاهب وما يلحقها ويوافقه من التفكير الحديث .

كان عصرنا برج بابل ، يبنى ويعاد بناؤه بين عام وعام .

كنا نعيش في عصر الجامعة الإسلامية على مذاهب ، ونعيش في عصر الجهاد الوطني على مذاهب ، ونعيش في عصر التجديد الفكرى على مذاهب ، ولا نرى أمامنا مذهبا واحدا في قضية من قضايانا الكبرى .. وكلها مشكلات ..

فالجامعة الإسلامية مدرستان : مدرسة جمال الدين ومدرسة الدعاة الرسميين ..

مدرسة جمال الدين تعنى بالجامعة الإسلامية أن تكون جامعة شعوب مستيقظة مسئولة عن شئونها مرعية الحقوق مع ملوكها وأمرائها ، فضلا عن حقوقها مع الطامعين المتربصين بها ..

ومدرسة الدعاة الرسميين تعمل للملوك والأمراء وتريد من الجامعة الإسلامية أن تكون وحدة سياسية بزعامة هذا الخليفة أو ذاك من ملوك المسلمين ، وأعلاهم صوتا في مصر من كان يعمل لخليفة بني عثمان .

ومدرسة الجهاد الوطني على هذه الحال :

مذهب يعتمد على مناورات الدول وحقوق السيادة الشرعية ، ومذهب يستضعف هذا الرأى ، ويحسب العمل فيه من ضياع الوقت على غير جدوى ، وبخاصة في أمر التعويل على السيادة العثمانية ، لأن حقوق هذه السيادة لم تكن عصمة للمعتمد عليها ، بل كان مجرد الانتماء إلى الرجل المريض صاحب التركة المنتظرة – كما كانت الدولة العثمانية تسمى في ذلك الحين – ذريعة إلى ضياع البلد في معركة النزاع على التركة أو في مساومات التقسيم والتفريق !..

بلبال !

ويزيد البرج بلبالا خليط الأصوات المنبعثة من طغمة الدعاة المأجورين المسخرين لخدمة الدسائس الأجنبية .

فمن هؤلاء من كان يضرب المعول في أركان الدولة العثمانية جاهدا مكابرا باسم الإصلاح والثورة على الاستبداد ، وهو في باطن الأمر صنيعة للدول وسمسار من سماسرة الاستعمار الذين يقصدون في الواقع إلى هدم الإسلام وتمكين المستعمرين من الدولة المستقلة الباقية بين بلاد المسلمين ..

ومن هؤلاء من كان يعلن الغيرة على حقوق مصر والدولة العثمانية ، وهو في باطن الأمر صنيعة السياسة الفرنسية في الشرق يناوئ الاحتلال بأمرها ويورط البلد في المشكلات تحقيقا لمآربها ..

ومنهم من كان يثير دعوة الجامعة الإسلامية ليتخذها وسيلة إلى إيقاع الشقاق بين أبناء الوطن الواحد ، تأييدا لدعوى الدول التي تستفيد من تهمة التعصب الديني ، وتلوح بها لإقناع الأجانب بحجتهم الدائمة إلى الحماية من دولة أوربية ..

ومنهم من كان يطلب الدستور ، ولكنه لا يطلبه حبا للحرية ولا إنصافا للأمة بل تعزيزا لسلطان الخديو ، وتمهيدا لإطلاق يده في ميزانية الدولة ووظائف الحكومة بمعزل عن دار المندوب البريطاني ومستشاريها في الدواوين .

بلبال ، وأي بلبال ..

وأشد منه اختلاطاً بلبال آخر في ميدان الفكر والثقافة . ويضطرب فيه القول بين تكفير من يعجب بالثقافة الحديثة وبين اتهام من يزدريها بالجهل المطبق والبهيمية العجماء .. وسوف نعرض لهذا البلبال الفكري في مكانه من الفصول القادمة ؛ لأننا نبدأ بالكلام عن الصحافة وموضوعاتها الغالبة عليها قبيل اشتغالي بالتحرير فيها ، ثم نقفوه بالكلام على غيره من الموضوعات ..

بلبال يجيء إلى جانبه ضوضاء برج بابل .. فأين يذهب الطفل الناشئ في دروب هذا التيه وزواياه بين مهابطه ومراقيه .. ؟!

وأنا في السادسة عشرة !

لا أعيد الآن كل ما عرض لي في هذا الطريق من حيرة وشك وعثرات وأزمات.

لكنني أستطيع العلم بيقين أنني كنت على قرار واضح في كل قضية من هذه القضايا حين بلغت السادسة عشرة ، ثم عملت لأول مرة في تحرير صحيفة الدستور .

الجامعة الإسلامية عندي هي جامعة جمال الدين ، أو جامعة شعوب متيقظة متعاونة ، لا جامعة ملوك وعروش تساق لخدمة هذا الخليفة أو تخليف ذلك السلطان .

الدولة التركية نتمنى بقاءها وصلاحها ، ولكننا لا نتمنى سيادتها ولا نستمع لمن يحاربنا باسم الشورى أو النقمة على الاستبداد ..

الدول الأجنبية لا تنفعنا إن لم ننفع أنفسنا ، وسياسة «مصر للمصريين» هي أقوم سياسة لشعب المصريين ويهتدون بهديها فيما لهم من حق وعليهم من واجب ..

الحزب الوطني حزب مخلص مجتهد ، ولكنه مفرط في مجاملة «يلدز» و«عابدين» مقصر في مساعيه نحو «مصر للمصريين» .

الملوك والأمراء يخدمون القضايا بمقدار ما تخدم عروشهم ، فإن تلاقت مصالحهم ومصالح الوطن فحبا وكرامة ، وإن تشعبت الطريق بين هذه المصالح وتلك المصالح فلا خفاء بالطريق القويم ..

الحكم الدستوري لا غنى عنه ، ولا وجه للمقارنة بينه وبين حكم الاستبداد بحال من الأحوال ..

داخل النطاق :

منذ كتبت في صحيفة الدستور لم تخرج كتابتي عن هذا النطاق في قضية من هذه القضايا .

لم أمدح الخليفة «عبد الحميد» إلا في مناسبة واحدة وهي إعلان الدستور ، ويومئذ كتبت أبياتاً أهنئه بها وأسجل تاريخ السنة بحساب حروف الأبجدية ، فكان التاريخ هذه الشطرة :

«قد أنشأ الدستور عبد الحميد» .

ومجموع حروفها بحساب الجمل «١٣٢٦» ، وهي السنة الهجرية التي أعلن فيها الدستور .

ولما توفي مصطفى كامل شيعته صحيفة الدستور – وهي من صحف الحزب الوطني – برثاء أبلغ من رثاء صحيفة اللواء ، ولكنني أحجمت عن رثائه بثناء خلو من النقد وأحجمت في ذلك المقام من نقد سياسته قبل الأستانة وقبل الخديو وقبل السيادة العثمانية ، وكاشفت الأستاذ فريد وجدي بحرجي وحرج صحيفته وهي لسان الجامعة الإسلامية الأولى ولسان الحزب الرسمي الثاني بعد اللواء ، فقال لي رحمه الله أنه يفهم هذا الحرج وأنه يقيده مثلي بما أتحاشاه، فآثرت الصمت عن الرثاء على ثناء بغير نقد أو نقد متحفظ متحرج ، بين مضطرب الآراء ..

* * *

وانقطعت الصلة بيني وبين الصحيفة بضعة أشهر لا أكتب فيها ولا أكتب إليها ، ولكنني كتبت إليها مقالي الوحيد من الخارج يوم أعلن الدستور في إيران ، وقلت فيه مهنئاً للشاه الصغير : لو كنت في فرنسا لكان مصيرك كمصير الصبي ابن لويس السادس عشر ، ولكنك تحمد الله لأنك في بلد إسلامي وتحمد لشعبك – ولا ريب – جميل هذا الصنيع .

والآن – بعد نصف قرن كامل – أقول إننى قد جربت هذا البرنامج السياسي، الصحفي، فى مشكلات هذه الحقبة وأزماتها جميعا .. فحمدت مغبة هذه التجربة ، ولم أجد فيما وجدته من الحوادث المتناقضة برنامجا أصح منه ولا أصلح لقضية مصر وقضايا الأمم الشرقية ، ولا أعلم أن الحوادث بعد الحوادث كشفت لنا عن خطة أهدى منه للعاملين وأحق منه باتباع المتبعين ..

وبعد ، فإننى لا أحب أن أنافق القارئ باصطناع التواضع الكاذب طلبا للثناء الأكذب ، فأقول إن الحكاية سهلة على كل من يطلبها ، وأنها حكاية يطلبها كل من شاء بغير عناء ..

الاستقلال..

كلا ! .. ليس من السهل على كل ناشئ في العشرة الثانية من عمره أن يسلك سبيله بين تلك النقائض والشبهات دون أن يروض نفسه على استقامة القصد إلى الحقيقة واستقلال الرأى بين شتى الدوافع والمغريات ..

ولكننى أعود فأقول إنه لا استقلال الرأى ، ولا استقامة القصد ، كانت كافية لهدايتى إلى سبيلى لو لم أستفد من ظروف الأونة التى نشأت فيها وظروف البلد الذى نشأت فيه..

لقد كانت الأونة فى مصر آونة نادرة ، لم تمتحن فيها العقول بعد بمحنة المحن فى العصر الحديث : محنة تكوين الرأى جماعات جماعات ، فلا ينطوى الشاب فى جماعة صاخبة حتى يحرم القدرة على نقدها ونقد سواها ، فهو مع جماعته التى انطوى فيها يقبل خطأها كما يقبل صوابها ، وهو مع الجماعات الأخرى يرفض صوابها كما يرفض خطأها ، وإنه لخاسر مضلل فى كلتا الحالتين ..

وكانت البلدة التى نشأت فيها بلدتى أسوان بأقصى الصعيد ، يكاد الناشئ فى مثل سنى أن يأوى بها إلى صومعة من صوامع الفكر يقلب فيها وجوه النظر فى كل ما يسمع أو يبصر من الشئون العامة ، بغير تضليل أو تهويل ..

وتهب الزوبعة القريبة فلا تفاجئنا فى وسط غبارها فتعمى البصائر عما فيها ، ولكنها تقترب منا رويدا رويدا فلا تصل إلينا حتى تتكشف على جلاء ..

* * *

وهل فى ذلك عبرة ؟ ..

نعم .. عبر قريبة فيما نرى ، فخير ما يصنعه الشاب فى فترة تكوين الرأى أن يروض نفسه سنوات على النظر إلى ما حوله مستقلا عن طغيان الجماعات ، فلا يدخل فى جماعة منها بعد ذلك عرفها بمحاسنها وعيوبها معرفة تمييز وتمحيص ، ولم يعمل فيها آلة من الآلات ..

... قلم يشق طريقه ...

صحيفة مطبوعة بعد المخطوطة

أصدرت صحيفتي المخطوطة – التلميذ – وأنا تلميذ في الثانية عشرة ، لم أبرح المدرسة، ولم أملك في يدي مبلغا من المال يكفي للتفكير في طبع ورقة .. إن وجدت المطبعة حيث كنت في الصعيد الأقصى .. وهي غير موجودة ! ..

لكنني الآن موظف حكومة ، تخرجت من المدرسة الإبتدائية واشتغلت بالقسم المالي في مديرية الشرقية ، وعرفت لي مبلغ من المال أقبضه في أول كل شهر: خمسة جنيهات ! .

ومن هذه الجنيهات الخمسة أستطيع أن أدخر شيئا في كل شهر ، وأن أجمع من هذه الجنيهات المدخرة مبلغا يكفي للانفاق على العددين الأولين من صحيفة مطبوعة ، ثم لا حاجة بعد ذلك إلى المال لأن الصحيفة تباع وتأتي بتكاليفها عددا بعد عدد ، أو عددين بعد عددين ..

وكنت قد عرفت شيئا عن تكاليف الطباعة في مدينة الزقازيق عاصمة الشرقية، لأنني اشتقت إلى بلدتي أن فارقتها يافعا لأول مرة فنظمت قصيدة على وزن قصيدة «المعري» التي يقول في مطلعها

علاني فإن بيض الأماني — فنيت والظلام ليس بفان

فقلت في مطلع قصيدتي

ذكرياتي نعيمها ذكرياتي — حبذا لو علمتما ما أعاني

وقلت منها أذكر أسوان:

«ليت أرجو عودا إلى أسوان»

ولا يحضرني الآن الشطر الأول من البيت ..

وراقت القصيدة من سمعوها من الزملاء المتأدبين ، فاقترحوا على طبعها يحتفظ كل منهم بنسخة منها .. وتكفل أحدهم بتقديمها لمطبعة المدينة فلم تكلفنا ورقا وطبعا أكثر من ثلاثين قرشا لمائتي نسخة ، وقيل لنا أنها تكلفنا أقل من خمسين قرشا إذا طبعنا منها مائتي نسخة أخرى فعرفنا السعر وعرفنا الفرق بين تكاليف طبع القصيدة وتكاليف طبع الصحيفة ، وهي في تقديرنا تقع في ثماني صفحات بدلا من صفحتين .

حسبة ميسورة مشجعة ، ومرتب شهر واحد يكفي للبدء في طبع الصحيفة على بركة الله!

وماذا يبقى بعد الطبع مما يحتاج إلى التدبير والاستعداد ؟

لا شيء !

فالتحرير مضمون بغير كلفة ، لأنني محرر الصحيفة الوحيد ..

والتوزيع مضمون لا خوف عليه ، وكيف لا يكون مضمونا وهؤلاء قراؤنا يتهافتون على اقتناء النسخة الأولى ويستنفدون منها مائتين في يوم أو يومين ؟

* * *

ومن البديهي أنني لا أصدر الصحيفة وأنا موظف بالحكومة .. ولا أطبعها ، من ثم ، في الزقازيق حيث طبعت القصيدة .

إلا أنها عقبة هينة لا يصعب علينا تذليلها ، فليس أهون من الانتقال إلى القاهرة بعد الاستقالة من الوظيفة ، وليس أبناء القاهرة بأقل من أبناء الزقازيق إقبالا على قراءة المنظوم والمنثور .. وكنت أذهب إلى القاهرة مرة في كل أسبوع أو أسبوعين لأشهد التمثيل في مسرح الشيخ سلامة حجازي ، وأتروحى الأزهر باحثا عن الكتب الأدبية القديمة بثمن رخيص ..

فذهبت إلى القاهرة وأحببت أن أحقق وأدقق وأستوفي المعلومات اللازمة قبل الشروع في العمل ، ووقع اختياري – لاستقصاء البحث في المسألة – على صاحب مكتبة عظيم الخبرة بالمطبوعات القديمة والحديثة ، كثير الاتصال بالصحفيين والأدباء تعودت أن أشتري منه ما أجده عنده وأن أوصيه باستحضار الكتب النادرة من الطبعات المرجوعة .

والواقع أن «الاستقصاء» الذى عولت عليه لم يكن ليعوقنى عن المضى فيما نويت . وإنما هو مسألة شكلية على حكم العادة فى الاستشارة والاستخارة .. وليقل صاحبنا ما يقول ، فإننى أعددت الصحيفة كتابة وتقسيما وتبويبا وتسمية وإخطارا للحكومة ، ولم يبق من معداتها شىء غير الطبع والتوزيع ..

* * *

وكنت أتردد بين اسمين : اسم «البيرق» واسم «رجع الصدى» ، ولا أحسبنى يومئذ قصدت الفرق بين الاسمين وعنيت مافيه من الدلالة على الصحيفة التى تقود القراء ويلتف بها الشعراء كما يلتفون بالبيرق ، أو عنيت ما فيه من الدلالة على الصحيفة التى تردد أصداء الآراء ولا تزيد على عرض الحوادث والأنباء .

لا أحسبنى قصدت إلى هذه التفرقة ، ولكننى انتهيت على غير قصد منى إلى تفضيل اسم «رجع الصدى» على اسم «البيرق» ... وكتبت العنوان بخطى ليخرجه الحفار كما كتبته، بدعه من بدع التجديد فى العناوين ! .

ولست أنسى نظرة الكتبى العتيق إلى من تحت نظارته المسمومة فى موضعين أو ثلاثة :

«ماذا ؟ تترك خدمة «الميرى» وتشتغل بالغزازيط والجرانيل؟ إن كنت لا تدرك ما أنت مقدم عليه فانتظر هنيهة لترى مائة من هؤلاء «السائمين» الضائعين يتمنون التراب تحت قدميك فى وظيفتك ولا يصلون إليه ... ؛ ياصاحبى .. إننى أراك أعقل من هذا يا بنى .. فلا تخيب أملى فيك ... » .

ولم يقنعنى كلامه ، لأننى لم أسمع منه جديدا عن خدمة «الميرى» وقداستها فى عرف أبناء جيله ، ولم يزحزحنى تحذيره قيد شعرة عن نية المضى فى الاستعداد والتنفيذ ..

وإنما زحزحنى عن هذه النية قيد فرسخ - لا قيد شعرة وحسب - منظر أو منظران من المناظر التى كانت تتكرر فى كل حلقة صحفية ولا يستغربها أحد من المتفرجين لأنها من أدوات المهنة المتفق عليها ومن أدوارها التى تعاد فى كل قصة . فلا يجهلها إلا الذين يجهلون الصحف والصحفيين أو الجورنالجية وجماعة الغزازيط وتجار التجريس والتثبيط !

كانت بجوار المكتبة مطبعة صغيرة تطبع فيها الصحف الأسبوعية وكان «مدير» إحدى الصحف يرجو صاحب المطبعة أن يعجل بإصدار العدد ويأبى صاحب المطبعة أن يخرج العدد ، ما لم يحصل على أجرته وأجرة العدد السابق الذى صدر قبل أسابيع ، ووقف المدير ينتظر وكيلا له أرسله إلى المشتركين للتحصيل وعاد الوكيل على صورة يقصر عنها أمل المتسول الذى يريد أن يبالغ فى إثبات صناعة التسول واستدرار شفقة المحسنين والمسيئين ! ..

فصاح به المدير : ما وراءك ؟

فأخرج له الوكيل إيصالا معادا من أحد المشتركين ، وقال إن الاشتراك مسدد قبل الآن..

فسأله المدير : وأين الإيصال الآخر ؟

قال الوكيل : إن الرجل قطعه ورماه فى خلقتى !

فهم المدير بضربه وهو يقول مختنقا من الغيظ : رماه فى خلقتك ؟ مستحيل.. إن فضيحة بيته معروفة ويخشى من الإشارة إليها بكلمة ، فلا تقل أنه قطع الإيصال ورماه فى خلقتك الشريفة ، بل قل أنك سكرت بالاشتراك كعادتك وجئتنا برائحة الخمر تفوح من فيك..

وكان هذا أول الأدوار التقليدية المحفوظة ولم يكن آخرها ولا أقبحها ، وفى واحد منها الكفاية للعدول على الأقل عن الخطوة الأولى ، وقد عدلت عنها إلى الآن .

ولكن لم أحتقر الصحافة:

إن هذه المناظرة المخجلة حقرت فى نظرى طائفة من المتطفلين على الصحافة ، ولكنها لم تحقر صناعة الصحافة ، ولا نزلت بأعلامها النابهين إلى منزلة أولئك المتطفلين . ولست أعتقد أننى كنت مستطيعا أن أحتقر هذه الصناعة من أجل ذلك المنظر المخجل . ولو كنت من المستخفين بها والزاهدين فيها .. لأن قوة الدعوة القلمية فى تلك الفترة قد بلغت فى القاهرة

مبلغا لا يدانيه ما بلغته فى عاصمة من عواصم المشرق والمغرب ، ولا أخالها تبلغه اليوم على عظم الفارق بين صحافة اليوم وصحافة مصر والشرق قبل خمسين سنة..

كانت القاهرة مركزا لكل دعوة تهتم بها دول العالم ذوات المطامع فى المشرقين الأدنى والأقصى ، ومركزا لكل دعوة يديرها دعاة الجامعة الإسلامية ودعاة الوحدة العربية ودعاة تركيا الفتاة ودعاة الإصلاح فى إيران وأواسط آسيا ، ودعاة الحركات الوطنية فى مصر نفسها وفى سائر الأقطار الأفريقية من شمالها فى بلاد المغرب إلى جنوبها فى بلاد السواحل وزنجبار .

وكانت قوة هذه الدعوة تخيف الملوك والساسة على عروشهم وعلى أرواحهم وأبدانهم ولا تمهلهم أن يتجاهلوها أو يغفلوا طرفة عين عن أخطارها وعواقبها . وقد حدث أن حركة فى القاهرة زلزلت عرش عبد الحميد فى الأستانة ، وإن رجلا شهرته دعوة القلم واللسان ذهب إلى ايران لإتمام هذه الدعوة فطرده الشاه وأهانه اثنان من وزرائه ، فقتل الثلاثة جميعا . وقال قاتلوهم إنهم قضوا عليهم بالحق انتقاما لذلك الطريد : جمال الدين . كانت هذه الحقيقة من وقائع الخيال الخية عن المقال ، ومن طرائفها المروية أن السلطان عبد الحميد كان ينام فى يلدز وعيناه فى شارع محمد على بالقاهرة ، واتفق يوما أن المويلحى الكبير[1] صاحب «مصباح الشرق» - دخل مكتب «المؤيد» ووجد فيه نخبة من كتاب عصره وفضلائه ، فتوقف عند الباب وقال وهو يرفع يديه إلى سقف الحجرة : قادر أنت يارب أن تسقط هذا السقف على من تحته فيستريح عبدالحميد ! .. قال محمد عبده ، وكان من زوار الحجرة : نعم .. لو تقدمت أنت خطوتين ! وتلك نادرة من نوادر الفكاهة التى تخلقها الحقيقة الواقعة ، وما يكون لها أن تخلقها لو كانت محض مزاح .. !

تهيأت القاهرة لاجتماع هذه القوة فيها لامتيازها بين عواصم الشرق بمركزها التاريخى ومركزها الحديث ، ولم تتهيأ لها مدينة أخرى على مثالها من الأستانة عاصمة الخلافة إلى مادونها من عواصم الولايات المتحدة والحكومات. ولم تكن القاهرة عاصمة الدعوة الكبرى مصادفة ولا لعلة من العلل العارضة ..

[1] يقصد إبراهيم المويلحى صاحب صحيفة «مصباح الشرق» ووالد محمد المويلحى

فالأستانة هى عاصمة الخلافة ، ومركزها بهذه الصفة أهم المراكز فى العالم الإسلامى وعالم السياسة الشرقية على إجماله .. ولكن قيام الدعوات القلمية ، أو اللسانية فيها أمر لا يخطر على بال الدعاة لشدة الحجر فيها على الأقلام والألسنة ، وحظر الاجتماع فيها وتأليف الجماعات للمقاصد السياسية ..

وعواصم الشرق الأدنى مهمة بشهرتها وموقعها ، ولكنها لم تكن قط مركزا يتلقى منه العالم الشرقى دعوة عامة على نطاق وسع ، وحكمها حكم الأستانة فى حرية الدعوة والاجتماع ..

أما القاهرة فقد كانت ، منذ بنيت فى أيام الفاطميين مركز داعى الدعاة ، أستاذ الأساتذة فى فنون الدعوة بالقول والإشارة ، أى بالخطب والرسائل والرموز السرية والمواكب والزفات !

ثم أصبحت مركز الإعلان الاقتصادى والسياسى فى الحقبة التى اشتدت فيها المنافسة بين أصحاب التجارة من طريق البحر الأحمر وأصحاب التجارة من طريق رأس الرجاء ..

ثم جعلها الخديو إسماعيل قطعة من أوربا بمحاكمها المختلطة ، وامتيازاتها الأجنبية ، واشتباك المصالح المتعارضة فيها بين الدول ، وتلاطم التيارات حولها من داخل البلاد العثمانية فى شئون الحكم أو شئون الثقافة ..

ثم انطلقت فيها حرية الصحافة وحرية الاجتماع ، فتمت فيها معدات الدعوة ، وترادف عندها نمط الدعوة القديم ونمط الدعوة الحديث ..

تاريخ الشرق مرتبط بصحافته..

وفيما تقدم من العوامل والمهيآت كفاية .. ولكننا نحسب أنها لم تكن لتفعل فعلها بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لو لم تكن الدعوة فى هذه الفترة مطلوبة من كل صوب ، ولو لم تكن بلاد الشرق متعطشة الأسماع إلى كل صوت ينادى بكلمة الأمل ، أو كلمة النصيحة والتحذير ..

ولا ننسى سحر «الكلمة المطبوعة» فى جدتها قبل أن تبتذلها كثرة التداول ، وتدخلها الألفة فى عداد اليوميات الرتيبة التى تنتظر فى أوقاتها ولا تحتاج إلى لهفة الانتظار ..

وإن تعجب لسر من أسرار تلك الدعوة فى نفاذها ، وبعد مداها ، فاعجب للبون الشاسع بين ضخامة أثرها وضآلة وسائلها ، وانظر إلى البون الشاسع مثلا فى صحيفة كصحيفة «العروة الوثقى» أو «أبو نضارة» أو «اللطائف» أو «الأستاذ» ، ورقة ذات مقال وبضعة أخبار من قبيل الأخبار البوليسية أو البرقيات المقتضبة ، وتحاول أن تتبع أثرها إلى أقصى مداه فلا تستقصيه ، لأنك قد تسمع صداه فى تخوم الصين وعلى متون الرمال فى جوف الصحراء ..

ولا محل للمقارنة من الوجهة الفنية بين تلك الصحافة وصحافتنا اليوم ، ولكن لا محل كذلك للمقارنة بين دعوة يطلبها الناس ويتشوقون إليها ودعوة تصب عليهم وتحال عليهم بأفانين الترغيب والتقريب .

إن منظر الحسب بين مدير الصحيفة الأسبوعية ووكيلها قد يصح أن يثنى عن طبع العدد الأول من صحيفتى المطوية وأن يضعف أملى فى تحمل تكاليفها بعد عدد أو عددين ..

ولكن هل تراه يغلبنى عن هذه القوة الهائلة وأنا أحسها من حولى كالدوامة المدوية فى لجة البحر الموار بالأمواج والرياح ؟ ..

إن ألف دجال باسم الطرق الصوفية لا يمسحون من الضمائر قداسة الدين ، وإن ألف دجال باسم الصحافة لا يمسحون قداسة «الكلمة» الحية بين أناس يحتاجون إلى الكلمة حاجتهم إلى العمل فى ساعة اليقظة من سباتهم الطويل ..

إن الصحف التى تستغل مخاوف الملوك وفضائح الدول لا تستطيع أن تملأ الجو من أعلاه إلى أدناه ، ولا أن تستوعبه بجميع زواياه ..

فإذا وجدت هذه الصحف ، فهى الشفاعة المقبولة أو غير المقبولة لوجود طبقات فى الجو الصحفى إلى جانبها ، تنزل من الملك إلى الوزير ومن الوزير إلى الرئيس الصغير ومن الرؤساء إلى عمد القرى ومشايخ الحارات ، ومن هؤلاء مادون ذلك فى طبقات ذلك الجو الفسيح ..

وليقل العائب العائب ما شاء ، فإنه لن يستطيع أن يقول فى النهاية شيئا عن تاريخ الشرق الحديث دون أن يقول معه شيئا عن الدعوة القلبية وعن الصحافة والصحفيين .

صحيفة الدستور:

كانت صحيفة «الدستور» التى أصدرها الأستاذ «محمد فريد وجدى» منذ نصف قرن أول صحيفة يومية عملت فى تحريرها ..

ولا أقول أنه كان «عمل ضرورة» .

ولا أقول كذلك إنه كان عمل اختيار .

ولكنه كان ضرورة مختارة بين ضرورات ، إذا صح هذا التعبير ، وأبادر لأقول أنه صحيح غاية الصحة ، لأننا فى أعمالنا التى نعدها من معالم حياتنا لا نستطيع أن نقول عن عمل واحد أنه كله اختيار ، أو أنه كله اضطرار ..

وكان فى وسعى قبل العمل فى تحرير الدستور أن أعمل فى تحرير «اللواء» أو فى الترجمة باللواء على الأصح .. لأننى علمت أنهم يطلبون مترجمين يعرفون الإنجليزية أو الفرنسية ، بعد تفكيرهم فى إنشاء «لواءات» غير اللواء العربى تصدر باسم «الاستاندرد» و «ليتندار» .

التحرير والترجمة:

وكانت الترجمة الصحفية من أعمال تلك الفترة التى كان أمثالى يستطيعونها ، وكانت ظروف التعليم والنشأة «الأسوانية» مما يرشحنى لأدائها ، ويجعلنى من المفضلين فى «امتحاناتها» .

فقد كنا نتعلم دروسنا المهمة باللغة الإنجليزية ، ومنها دروس الجغرافيا والمعلومات العامة «أو الأشياء» .

وكانت صحف المدارس المقروءة فى إنجلترا بين «المطالعات» الإضافية المقررة علينا فى السنة الرابعة الابتدائية .

وإلى هنا نتساوى جميعا فى مدارس القطر كله ، ثم يأتى دور النشأة الأسوانية بميزة تنفرد بها مدينة أسوان ولا تشاركها فيها سائر المدن فى الوجهين .

كانت المكتبات الأفرنجية تفتح فى موسم الشتاء لبيع الكتب والمجلات والصحف الأجنبية المحلية، وكان كبار الزوار لا ينقطعون عن زيارة المدرسة

خلال الموسم الذى كان يمتد من ديسمبر إلى مارس ، وتتبع زيارتهم أحيانا دعوات خاصة تجلس فيها مع أبنائهم ولا تتكلم أثناءها بغير اللغة الأجنبية .

وتضاف إلى ذلك حالتان طرأتان على أسوان – فى ذلك الحين – لم تجتمعا لبلد من بلدان السياحة ، وهما حملة السودان وبناء الخزان ..

ففى أثناء حملة السودان ، كان الحاكم العسكرى ومحافظ المدينة وقاضى المحكمة وقادة الفرق الموزعين على المصالح ، طائفة من الإنجليز العسكريين أو المدنيين لا يعرفون العربية ، وكان كل بيت فيه «ولد من أولاد المدارس» مرجعا نافعا لقراءة الأوراق الرسمية أو ترجمة العرائض إلى «الحكام» على حسب الاحتياج ، وكان «نصف الفرنك» نفحة سخية يحصل عليها «الولد» المترجم الذى يستطيع أن يخط فى الورق بضعة سطور تدل على معنى من المعانى مفهوم بالإشارة أو التخمين .. فأما «الولد» الذى تتكرر الشهادة له بحسن الترجمة فنصف الفرنك قد يتعدى معاملته إلى نصف ريال ، ويزداد التقدير مع زيادة القراءة أو الحوار ..

أما بناء الخزان فقد جلب إلى المدينة مئات من المهندسين والخبراء والمفتشين يقرءون الصحف الأفرنجية طوال اليوم ، ويدفعنا حب الاستطلاع إلى النظر فى هذه الصحف وفى صحف السائحين ، فلا يفوتنا – مع تتابع النظر – أن نعرف أقسام الصحيفة وعناوينها وأماكن البرقيات والأخبار منها ، وأن نختطف عبارة هنا وتعليقا هناك فلا يخفى علينا معناها بالمقابلة بعد المقابلة أو بالتصحيح بعد التصحيح ..

مع مصطفى كامل :

فلما علمت أن «اللواء» يطلب مترجمين يعرفون الإنجليزية خطر لى أن أستقيل من وظيفتى وأن أرشح نفسى للعمل فيه .

ولكنى ترددت ، وطال التردد حتى أحجمت ، ثم فضلت ترك هذه «الفرصة» وانتظار فرصة غيرها لسببين :

«أولهما» أنى إذا أقدمت على هجر الوظيفة الحكومية مفضلا عليها الصحافة فليكن ذلك لأكتب لا لأترجم ، فإننى ما أحببت الصحافة لأنها مورد رزق أفضل

من موارد الوظائف الحكومية ، ولكننى أحببتها لأنها مجال للكتابة أو صناعة القلم بغير وساطة من صناعة النقل أو الترجمة !

والسبب الثانى شخصية مصطفى كامل رحمه الله ، فإن محادثتى الأولى له لم تشجعنى على مزاملته فى عمل دائم ، وصورته لى رجلا معتدا بذاته ، ضيق الحظيرة ، لا يسمح حتى للفكاهة أو «القافية» أن تفتح عليه بابا لتصحيح قولة قالها أو رأيا ارتآه ..

كنت أشرع بالتعليم فى المدرسة الإسلامية بأسوان ، وحضر مصطفى كامل متفقدا المدرسة ومعه الكاتبة الفرنسية مدام «آدم جولييت» وسيدة إنجليزية ، وكانت الحصة حصة محفوظات ولغة .. فأملى مصطفى كامل على التلاميذ هذا البيت لأبى العلاء :

والمرء ما لم تفد نفعا إقامته ... غيم حمى الشمس لم يمطر ولم يسر

وترجمه للسيدتين بطلاقة وإيقاع ، ثم طلب من التلاميذ أن يشرحوه ويعلقوا عليه ، فاضطربوا ولم يحسنوا الشرح أو التعليق ..

والتفت مصطفى كامل إلى ، وإلى الأستاذ «محمد شلبى عيد» متسائلا ، فأدركته قائلا إن التلاميذ معذورون .. لأنهم فى أسوان يعلمون أن الغيم الذى يظلل الرءوس شىء نافع لا يضربون به المثل لقلة النفع .. فلعله أنفع لهم من شعاع الشمس ومن المطر ..

«حسن تخلص» كنت أقدر من «خطيب» مثله أن يتقبله بالاستحسان والارتياح ، ولكنه تجهم وزوى وجهه ، وبدا لى أن الاستدراك عليه – ولو من باب الفكاهة – أمر كثير على طاقته الفكرية والنفسية ، وأرى الآن أنها لم تكن منه فلتة عارضة فى زيارة عاجلة ، لأن حياة الرجل كلها لا تعرض لنا لمحة واحدة فيها شىء من سماحة الفكاهة أو سماحة التوفيق بين الآراء .

فريد وجدى .. والدستور ..

ولم يطل بى الانتظار حتى أعلن الأستاذ فريد وجدى عن عزمه على إصدار «الدستور» .

ولم يكن اسم «فريد وجدى» غريبا عنى ، ولا عن قراء ذلك الجيل من طلاب الثقافة الإسلامية الفلسفية .. فقد كانت له كتابات ضافية يرد بها على كتاب الغرب وفلاسفته المنكرين لحقوق المسلمين وفضل الإسلام ، وكانت له شهرة بالاطلاع على ثقافة الدين وثقافة العصر الحديث . فلما لقيته وحدثته لم يكن أيسر من الاتفاق معه على العمل فى صحيفته وخرجت أقول لنفسى إن أكبر خلاف بينى وبين كاتب كهذا لن يعوقنى عن العمل معه لأننى عجبت لحرية فكره، مع اشتهاره بالتعصب والمحافظة ، بل بالتزمت والحرج فى شئون الدين والدنيا .. فما من فكرة كان يرى أنها قضية مسلمة ، وأنها لا تقبل المناقشة .

وأظن اليوم أن فرط الثقة بقوة الحجة والقدرة على الاقناع هو الذى يسوغ له أن يسمع كل رأى ، ويقبل كل تحد ، ويجيب عن كل سؤال . ودام عملى فى صحيفة الدستور من عددها الأول إلى عددها الأخير إلا أشهرا قليلة فارقتها فيها ثم عدت إليها .. فأكاد أقول إن ما خالفته فيه أثناء هذه المدة أكثر مما وافقته عليه ، ولكنه لم يغير كلمة واحدة كتبتها مخالفة رأيه .

كان شديد الإيمان بالجامعة الإسلامية على نحو قريب من مناهج الرسميين، ولم يكن كغيره من طلاب الكسب والجاه من وراء هذه الدعوة ، بل كان يخسر الكثير فى أحرج أوقات الحاجة إلى المال ، ومن ذلك أنه رفض الاتفاق مع حزب تركيا الفتاة اعتبار «الدستور» لسان حال الحزب فى سياسته العثمانية بعد أن تكفل الحزب بالإنفاق على الصحيفة وسداد ديونها ، لأن الحزب كان يشترط أن ترفع من عنوان الصحيفة كلمة «لسان حال الجامعة الإسلامية» .. ولم تمض أسابيع حتى كان الرجل يبيع كتبه بثمن يضارع ثمن وزنها من الورق ليؤدى مرتبات الموظفين والعمال .

وعلى هذا التشبث بهذه الدعوة كنت أخالفه فيها ، وأرى أنها تعمل لنفسها ، ويحصل لها الزمن أضعاف ما يحمله المتطوعون لها من دعاتها المخلصين وغير المخلصين .. فلم يحاول قط أن يفرض على رأيه فى قضية من قضاياها بغير الإقناع أو السكوت .

وكانت صحيفة «الدستور» لسانا ثانيا للحزب الوطنى بعد «اللواء» ، وكان موقف الحزب الوطنى معروفا من سعد زغلول وبخاصة بعد قيام الشيخ جاويش على

تحرير اللواء ولكننى كنت أؤيد سعدا وأرد على ناقديه فى الدستور ، فلم يمنع كلمة واحدة مما كتبته فى هذا الموضوع .

وكان من غلواء الأستاذ وجدى فى محاربة الاختلاط الجنسى أنه كان يشجع الهواة على إنشاء فرق تمثيلية يتم فيها التمثيل بغير ظهور النساء على المسرح، وهذه حذلقة تغرى بالسخرية حتى فى تلك الآونة.. ولم يكن الرجل على جهل بتاريخ التمثيل فى الغرب الحديث أو القديم، فكان إذا لمح منى بادرة من بوادر السخر الخفية لم يزد فى حدته على أن يقول «لقد أجازها شكسبيركم لضرورة من ضروراته.. قبل وقفت ضرورات الدنيا كلها عند شكسبير» !

الغاضبون :

وأعتقد أن اختيار اسم الصحيفة وحده كان ميزانا لنزاهة هذا الرجل ولحريته الفكرية والدستورية ، يغنى عن كثير من الموازين ..

وماذا فى «اسم» على رأى شكسبير أيضا ؟..

فيه كثير وكثير ، ولاسيما فى العصر الذى سميت فيه الصحيفة باسم الدستور..

كان اسم «الدستور» يغضب قصر «يلدز» ويغضب قصر عابدين ويغضب «قصر الدوبارة»

وكان الحزب الوطنى يطلب الدستور ولكنه يتحرج من الدعوة العامة إليه ، لأنه ينكر مقاصد المطالبين به من رعايا الدولة العثمانية ، ويشفق من غضب السلطان عبد الحميد . ويراجع القارئ اليوم صحيفة «اللواء» فيرى أنها كتبت عن المطالبين بالدستور فى تركيا . قبل إعلانه هناك بيوم واحد . فقالت أنهم قوم يسبحون فى الخيال .

وكان الخديو يحرض على طلب الدستور سرا كلما أراد بالتحريض عليه إحراج الإنجليز والحد من سلطة المندوب البريطانى والمستشارين ، ولكنه كان يرفض الإصغاء إلى هذا الطلب كلما ثاب إلى شىء من الوفاق بينه وبين المحتلين .. ولهذا كان حزب القصر يسمى نفسه «حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية» .. ولا يخفى الفارق بين الدستور وإصلاح الدواوين على مبادئ الدستور!

وكان حزب «الأمة» كما يدل عليه اسمه يعارض الحكم المطلق للعرش فى مصر وللعرش فى عاصمة الدولة العثمانية . وكان ينادى بالاستقلال التام فيهدده «المزيد» بحكم القانون أن السيادة العثمانية مقررة فيه . ولكن حزب الأمة على مناداته بحصر الحقوق كلها فى الأمة لم يخل من أقطاب مخلصين كانوا يحسبون الطفرة فى الحكم النيابى خطرا حقيقيا بالحذر والاجتناب .

فإذا ظهر من بين هذه الصفوف رجل لا سند له من أصحاب العروش ، ولا من جمهرة الأحزاب ، فاختار كلمة «الدستور» دون غيرها اسما لصحيفته الوليدة ، فهو اسم يدل على كثير وإن غضب صاحبنا تشكسبير !

صحافة المتطوعين:

فى هذه الصحيفة بدأت عملى الأول ، فماذا كان عملى الأول هذا ؟ أو بماذا نسميه فى «تقاسيم» الصحافة الأخيرة ؟

لا يوجد له اسم واحد ، وقد يحيط به على الجملة أننى كنت نصف هيئة التحرير برمتها ، إذا لم يكن فى قلم التحرير غير كاتبين اثنين : أحدهما أنا والآخر صاحب الصحيفة !

ولا نبخس فى هذا المقام فضل «التطوع» فى تحرير صحيفة الدستور ، ولا فى تحرير غيرها من صحف تلك الفترة .. فقد كان قوام المقالات الصحفية من «تحرير المنزل» وكانت أشهر الفصول على الإطلاق فى ذلك العهد فصولا كتبها المحررون المتطوعون ، وكل حامل قلم فى البلد محرر متطوع ما عدا الجالسين على مكاتبهم فى دور الصحافة المحدودة ، وهم معدودون على الأصابع .

ولقد كان نصيب «الدستور» من التطوع أوفى نصيب . إذ كان فيها «محرر متطوع» دائم يكاد ينهض بعمل الترجمة الفرنسية وحده ، ويكتب إلى جانبها التعليقات وحواشى الأخبار والمتفرقات ..

كان الأستاذ «أحمد وجدى» شقيق الأستاذ فريد صاحب الصحيفة هو ذلك المحرر المتطوع الدائم ، وكان رحمه الله شابا ألمعى الذكاء كريم الخلق

مستقيم الذهن مجتهدا فى كل عمل تولاه . وقد تولى عملا قليلا فى الصحافة ثم تولى عمله فى المحاماة أمام محكمتى الزقازيق والمنصورة ، فاشتهر فى الإقليمين أيما شهرة ، وقامت شهرته على الذمة والعفة كما قامت على البراعة والبلاغة . ولو أمهلته المنية بضع سنوات لما عرفت مصر اسما أشهر من اسمه فى عالم المحاماة .

وكان زملاء «الأستاذ أحمد وجدى» يتطوعون معه بالكتابة والترجمة من حين إلى حين ولكنهم أضربوا جميعا – أو كادوا – بعد الخلاف الذى حدث بين فريد وجدى ومصطفى كامل . وكان فحوى هذا الخلاف أن صاحب الدستور اعترض فى مجلس إدارة الحزب على اختصاص وزارة الخارجية البريطانية بالاحتجاج على الاحتلال ، وقال إن هذا الاختصاص ربما أعطاها الصفة «الاستثنائية» التى تدعيها فى مصر ، ولا ضرر من تعميم الاحتجاج على صيغة من الصيغ إذا كانت الصيغة المكتوبة لا تسمح بتوجيهها إلى أكثر من دولة واحدة ، فأعرض مصطفى كامل عن اقتراحه وأعرض معه أكثر الأعضاء ، وكتب فريد وجدى خلاصة المناقشة فى الدستور فحسبه المؤيدون الأوليون منشقا على الحزب وقاطعوه ، ومنهم بعض أولئك الطلبة «النجباء» الذين كانوا يتطوعون للكتابة فى صحيفة الحزب الثانية !

إلا أننا – نحن هيئة التحرير – المؤلفة من صاحب الصحيفة ومنى ، كنا نعمل فى التحرير والترجمة والتصحيح وتهذيب الرسائل والأخبار .. وكان الأستاذ وجدى قليلا ما يبرح داره ، فكنت أنوب عنه فى أعمال الصحيفة الخارجية ، ومنها الحصول على الأخبار وعلى الأحاديث ، وبينها أول حديث للوزراء المصريين ..

والأخبار لم يكن خطبها فى ذلك العهد بالأمر العسير ..

كان لها مكتب بديوان الداخلية ترسل إليه النشرات من جميع الدواوين ومعظمها عن التعيينات والتنقلات وصرف الأموال فى المشروعات العامة .. ولم تكن هناك حاجة بالمخبرين إلى استطلاع النيات والتقاط الأسرار ، فإن السياسة الكبرى كانت فى علم المندوب البريطانى ومستشاريه ومفتشيه وليس لأحد من الصحفيين صلة بهؤلاء غير أصحاب «المقطم» وبعضهم وكلاء

الصحف الأوربية ، وصلاتهم جميعا لا تفيدهم شيئا من أسرار السياسة العليا ولا تطلعهم على أخبار الميزانية قبل أوانه .

فالمخبر البارع ، والمخبر العاجز ، فى النهاية على حد سواء إلا أن طائفة من المخبرين كانت تساوم «الإدارة» على تكاليف المهنة وتوهم وكلاء الحسابات فيها أنها تحصل على أخبار النقل والتعيين والاعتمادات المالية من قصاصات «المسودات» فى سلال المكاتب المهملة ، وظلت هذه الحيلة تروج عند بعض الصحف فى ما بعد أيام الثورة فى أعقاب الحرب العالمية ، ورأيت بعينى واحدا من هؤلاء المخبرين يبسط هذه القصاصات ويجمع متفرقاتها ويلصقها ليزعم بعد ذلك أنه قد جاء بالخبر المضنون به على غير المجتهد الأريب.

* * *

كنت أذهب إلى مكتب الأخبار الصحفية بديوان الوزارة فأرى هناك على التناوب عشرين أو ثلاثين صحفيا من مندوبى الصحف العربية .

وليس من هؤلاء جميعا واحد فرد يذكر اليوم أو يعرفه السامعون إذا ذكر ، ولكن القارئ قد يعجب لاختلاف مقاييس النظر والتقدير إذا علم أنني كنت فى نظرهم جميعا فضوليا متطفلا على الصناعة ، وسمعت أحدهم يتكلم عن «عمر منصور» مندوب المؤيد ، و«عبد المؤمن الحكيم» مندوب الأهرام ، و«سامى قصيرى» مندوب المقطم ، و«جورج طنوس» مندوب الوطن .. فإذا هو يشيعنى بالإشارة الساخرة ، وهو يسب الزمن لأنه قضى عليه بالعمل فى الصحافة مع أمثالى .

«يحرق بين ها «البريس» Press ما عاد غيرها الزعران يسود ورقتها .. »

... الصحافة قبل خمسين سنة ...

بعد شهرين من العمل فى داخل الصحافة المصرية أمكننى أن ألخص حياتها عند أوائل القرن العشرين فى كلمة واحدة :

تلفيق ! ..

فلولا ضرورة قضت بوجود الصحافة يومئذ على صورة من الصور لكان من أعجب العجائب حقا أن توجد صحيفة واحدة ، وأن تعيش - إذا وجدت - أكثر من بضعة شهور.

كانت موارد الصحف كلها من الاشتراكات ، وثمن البيع للنسخة ، وأجور الإعلانات .. وكانت هذه الموارد لا تكفى كل الكفاية للإنفاق على الصحيفة إلى أمد طويل ، ولكنها مع ذلك لم تكن خالية من عقباتها ومتاعبها ولا من جرائر الخلل الدائم فى وسائلها ومواعيدها .

فلم يكن للصحيفة ، المنتظمة ، بد من مورد آخر غير الاشتراكات وغير البيع وغير الإعلانات ، وهو كذلك مورد مضطرب معرض بطبيعته للفوضى وتبدل الأحوال ، ونعنى به مورد «الإعلانات» السرية من أصحاب الدعايات ، ومعظمها دعايات تصدر من قصور الملوك والأمراء أو من دواوين وزارات الخارجية والسفارات .

فالاشتراكات الصحفية قبل خمسين سنة - كانت من الموارد الثابتة المنتظمة ، بالقياس إلى موارد الصحف فى العصر الحاضر لأن الصحف فى العصر الحاضر تعتمد على البيع فى الأقاليم ولا تعول كثيرا على الاشتراكات ، ولم تكن وسائل البيع فى الأقاليم ميسورة للصحف اليومية ، فضلا عن الأسبوعية أو الشهرية إلى زمن قريب

وكانت الاشتراكات خليقة أن تمد الصحف بمورد نافع لو خلت من موانعها وعثراتها ، ولكنها كانت فى الواقع مولودة بمتاعبها وعثراتها إن صح هذا التعبير..

كان أعيان الريف يحبون أن يشتركوا فى الصحف اليومية لأنها مظهر من مظاهر الوجاهة و«الأهمية» فى القرية أو البلدة الصغيرة .. ولم يكن بالقليل من مظاهر الوجاهة اليومية أن يحضر ساعى البريد إلى الدار يوميا ليدق الباب على مسمع من الجيران وينادى بصوت يشبه صوت المنادى باسم «المحكمة» فى ساحة القضاء :

«بوسطة» ! ..

فإذا بالحى كله يترقب «سدعا» جديدا بعد هذا النداء ، يحيط بأنباء الأرض والسماء ، ويتحدث عن المسكوف و «الانجلاطيرا» وملك «الفرنسا» أو الجمهور كما كانوا يسمعون عنه منذ أيام حملة نابليون ، ويتخللها بالأسطورة الطريفة التى تسمى بالترنسفال .. وبينها وبين السودان فى الجنوب ألوف الأميال . وياله من «واقع» وراء الخيال !

ولم يكن الوجيه الريفى يبخل بثمن هذا المظهر ، أو يماطل الصحيفة بقيمة الاشتراك حبا للمطال .. ولكنه يجود به عن طيب خاطر لو وجد أمامه من يقبضه منه لحساب الصحيفة .. وأين هذا الذى يقبضه لحساب الصحيفة ويؤديه بالأمانة والوفاء ؟

لقد كانت الصحف تنشر ، بين أونة وأخرى ، خبرا مكررا عن الوكيل «فلان» الذى ألغى توكيله وأصبح غير معتمد فى تحصيل الاشتراكات .. وكانت هذه الصحف تنشر قبل ذلك إعلانا موجها إلى وكيلها فى هذا الإقليم أو ذاك تنبهه إلى موعد السداد وتلوح له بالتهديد والإنذار ، وقد ينفع التهديد مرة ولا ينفع مرات ، ولكنه يعاد ثم يعاد ، ويتجدد مع الوكيل الجديد تارة ومع الوكيل القديم تارات ، ولا تستغنى الصحيفة عن مراجعة الوكيل القديم لقلة الوكلاء المتخصصين لهذه الصناعة أو المدربين عليها فى معاملة الصحف والمشتركين والموظفين وأفراد «الجمهور الصحفى» على التعميم ..

«حق» الصحيفة :

وكانت للوكيل فنون فى معاملة الموظفين وإغرائهم بالثناء أو تهديدهم بالتشهير والانتقاد .. ولا غنى له عن هذه الفنون لأنه كان يستعين على الدوام

بالموظف الكبير والموظف الصغير فى تحصيل «حق» الصحيفة و «حقه» هو فى سوقه السوداء .. من وراء الستار ..

ولا مناص من الوكيل لتحصيل الاشتراكات ..

ولا حيلة فى قبول الوكيل على علاته ، لأن معاملات الصحف لم تكن فى ذلك العهد قد نبتت ذلك النبات الذى يسمح «بتكوين» طائفة من الأعوان المدربين ينقطعون لها ويثابرون عليها ، فإذا نجح من الوكلاء واحد من عشرات فإنما ينجح بعد ابتلاء الصحيفة بخسائر هؤلاء العشرات ، على دفعات !

ولنتذكر أن الوكيل - على عيبه هذا - لا يستطيع أن يعمل فى بلاد يجهلها ولا يقيم بين ظهرانيها .. فلابد له من موطن فى إقليم يعرفه ، ولا يتسع هذا الإقليم المحدود لأكثر من مائتى مشترك على أكبر تقدير ..

وكم يصل من هذا المحصول إلى خزانة الصحيفة بعد المطال والعمولة والسوق السوداء؟

قليل .. جد قليل !

وكل صحيفة احتاجت إلى هذا القليل ، فقد كان عليها أن تقبل وساطته وتتجرع غصصه، وتغضى عما تعلمه من عيوبه ومحظوراته ..

عدة الشغل !

ومنها - بل فى مقدمتها - أن تنشر الصحيفة كل ما يصل إليها من رسائل الوكيل .. من مدائحه وأهاجيه فى الواقع ، لأنها «عدة الشغل» التى يعمل بها ولا عمل له بغيرها .. بين الأعيان والموظفين .. فمن تصدى لتحصيل الاشتراكات - وتحصيل غيرها فى السوق السوداء - فلا أمل له فى تحصيل نفعه ونفع الصحيفة بغير تخويف وإغراء ، ولا ضير بالتخويف والإغراء فى سبيل الخدمة العامة والمصلحة القومية .. ولكنه الضير كل الضير على الوكيل الأريب الذى يستطيع أن يجمع المئات من لذعة هنا وأكذوبة هناك ثم يتركك تقنع بعشرات وما دون العشرات .

وأحسب – بعد هذا كله – أن التفاؤل فريضة على الناس يضطرهم إليها الصدق الواقع إن لم يضطرهم إليها شعورهم بالحاجة إلى الأمل والعزاء .

إن الأمور لا تقاس بأسوأ الظروف فى جميع الأوقات . فكثيرا ما تتمخض الظروف السيئة عن حسنات لم تكن فى الحسبان . ولقد رأيت فى ذلك العهد أناسا عملوا فى وكالة الصحف يدينون أنفسهم بنزاهة القاضى وأمانة الطبيب، ويشتغلون بهذه الصناعة لأنها «هواية» تملأ الفراغ بالرحلات والمقابلات فى غير عنت ولا اضطرار . ولكنهم شذوذ القاعدة التى يبعث فيها التفاؤل كما أطبقت علينا ظلمات الشؤم والقنوط .

أما القاعدة المطردة يومئذ . فقد كانت صفحة من صفحات الصحافة الحالكة فى تطورها الأخير . وكانت «تصنيفة» الوكلاء الصحفيين فى القرن العشرين تدل على المورد الذى تتسرب منه اشتراكات الأداييم . فهى «تصنيفة» يتلاقى فيها الكاتب العمومى المتجول . وقارئ الأعراس والمآتم . ومأذون الشرع المفصول . وصاحب الصناعات التى لا تحصى . لأنه «متشرد» عام يشتغل بجميع الصناعات !

التوزيـــع:

أما التوزيع بأيدى الباعة فقد كان موردا للصحف اليومية أهم من مورد الاشتراكات وأيسر منه فى متاعب التحصيل . ولكنه لو اجتمع برمته من جميع الصحف الكبرى التى كانت تصدر فى القاهرة قبل خمسين سنة . لما كان فيه الكفاية لإصدار صحيفة يومية واحدة فى هذه الأيام .

وكان أربعة أخماس النسخ المعدة للبيع توزع فى القاهرة وضواحيها .. ولولا أن الإسكندرية كانت مستقلة بموزعيها المشتغلين ببيع الصحف الأجنبية لما نأتى تدبير مسألة التوزيع فيها ..

ومن المناظر المألوفة اليوم فى عواصم القطر أن يرى المارة للصحيفة اليومية أربع سيارات أو خمسا تتسع الواحدة منها لحمل عشرات الألوف من النسخ وتتولى نقلها يوميا على خطوط الإسكندرية أو بورسعيد أو الأقاليم الوسطى من الوجه البحرى أو أقاليم الصعيد ...

فقبل خمسين سنة لم تكن فى القطر المصرى سيارة واحدة من هذا القبيل . ولو وجدت فيه سيارة واحدة لفرغت من عملها فى حمل صحف القاهرة جميعا بعد نصف ساعة ..

المعلم عكريشة:

وكان المعلم عكريشة يجلس إلى ناحية المكتب وفى يده الجوزة التى لا تفارقه. وأذنه إلى الكاتب الذى يسأل «أولا فأول» . عن عدد الوارد من كل صحيفة . إلى أن يتم الوارد من جميع الصحف اليومية .. ثم تبدأ عملية التفريق على المساعدين من المتعهدين . فأنصاف المتعهدين . فالباعة المتفرقين ..

ولا يكلف الأمر أكثر من جولة سريعة بالنظر فى هذه الزاوية الضيقة لتحصر كل ما صدر من صحف مصر الكبرى فى ذلك النهار : المؤيد . واللواء . والأهرام . والمقطم . والوطن . ومصر . والظاهر . والرأى، الجوائب المصرية والمحروسة. فى بعض الأحيين ..

وكانت هذه الصحف تصدر معا فى وقت واحد بين الساعة الثانية والساعة الثالثة فى المساء . ويحملها عمال عكريشة أو عمال الصحف من مطابعها إلى الزاوية المعروفة . فلا تلبث «عملية» النقل والصف والتفريق أكثر من ساعة واحدة بنصف حمولتها .

وما كانت صحف القاهرة الكبرى تحتاج إلى مكان لتوزيع أوسع من «زاوية عكريشة» على جانب من رصيف المحكمة المختلطة بجوار العتبة الخضراء .

ولم تكن «زاوية عكريشة» هذه مكتبا ولا شبه مكتب . ولكنها كانت منضدة من مناضد الكتبة العموميين على ذلك الرصيف .. وكان المعلم «عكريشة» متعهد بيع الصحف جميعها يستعيرها فى مبدأ الأمر من كاتبها الذى كان يستغنى عنها بعد الظهر – أى بعد الفراغ من كتابة العرائض للمحكمة وكتابة الرسائل لصندوق البريد – ثم بدا له أن يشتريها وكاتبها جملة واحدة . لاتساع دائرة العمل وزيادة الإقبال على الصحف اليومية بعد قيام الأحزاب السياسية . على أثر قضية دنشواى ..

ثم يخلو الرصيف إلا من المعلم عكريشة وكاتبه ومنضدته وقمطره الذى يحمله وراء أذنه ، إلى أن يودعه مكانه فى "الدواة النحاسية الصفراء" ومتى خلا الرصيف هناك لم يبق مكان فى القاهرة خلوا من صبى من صبيان المعلم الكبير تكاد تحسبهم أسرع من الترام لأنهم يجلون حيث لا يصل الترام ، وتكاد تختلط أصواتهم بأصوات بائعى الخضر والفاكهة ، ومنها النداء على «الوطن» و«مصر الفتاة» .

وليس أمامى إحصاء دقيق لتوزيع الصحف فى تلك الأيام ، ولكنه على الحد الأقصى لا يزيد على خمسة آلاف للصحيفة الواحدة ، لأنه الحد الأقصى الذى تبلغه طاقة المكنات الطباعية قبل وصول مكنات البخار والكهرباء .

الإعـــلانـــات:

ولا نعرف اليوم صحيفة تستطيع أن تسقط الإعلانات من حسابها ثم تطمع فى البقاء واستيفاء أبواب الأخبار والتعليقات ، ولكن صحافة الأمس كانت تستطيع بلا تردد أن تسقط إعلاناتها من عددها الأول ثم لا تفقد شيئا يعوقها أسبوعا عن الصدور .

وكانت التقاليد الموروثة - والأمية معا - عائقين طبيعيين لظهور الإعلان الصحفى إلى سنوات قليلة مضت .. لعلها هى السنوات التى ظهرت فيها أول شركة للإعلان الصحفى فى هذه البلاد ..

كان من التقاليد الموروثة أن يشترى الإنسان لوازمه «المهمة» من حيث اشتراها أبوه وجده .

وكان الريفى ينزل القاهرة لشراء لوازم الفرح ، أو لوازم البيت والأثاث ، فيذهب إلى أمكنة معروفة بأسمائها لا تتغير من جيل إلى جيل ، وكلهم يعرف عناوين مدكور والماوردى والجمال الحمصانى ومخازن الحدائد والأخشاب فى ناحية القلعة وسوق السلاح ، ولا نظن أن متجرا من متاجر القاهرة المشهورة نشر إعلانا واحدا ليكسب به «زبونا» لم يكن يعرفه قبل ذلك الإعلان .

أما المتاجر الصغيرة التى تباع فيها لوازم البيوت اليومية ، فقد كانت معروفة فى أحيائها وقراها بغير حاجة إلى إعلان مكتوب ..

ولهذا بقيت إعلانات الصحف سنوات عدة وهى مقصورة على إعلانات البيوع القضائية وإعلانات الوفيات أو إعلانات «ختمى فقد منى وليست على ديون ولم أوقع على سندات أو كمبيالات » .

وإعلانات «الأختام» وحدها عنوان صادق لنصيب الصحف من قراء الإعلانات.. لأنهما عنوان للأمية التى تعجز عن كتابة الأسماء . ومع هذه الأمية لا إعلان ، ولا قراء للإعلان !

الإعلانات السرية :

ونحن الآن نكتب ونقدر ونتذكر لا نرجع إلى الصحف التى عاشت فى مصر وانطوت بعد حين .. ولكننا لا نجازف إذا قلنا أن مصاريفها كانت على التحقيق أكبر من مواردها التى يدل عليها حساب البيع والاشتراك والإعلان .. ولولا أنها اعتمدت فى وقت من الأوقات على مورد الإعانات «السرية» لما طال بها الأجل شهورا ، فضلا عن سنوات

وقد تعلم مبلغ الحاجة إلى هذه الإعانة إذا علمت أن شركات البرق - كشركة روتر ، وهافاس - كانت تتلقى إعانة رسمية من الحكومة المصرية ، وأن مطبوعات الدواوين والسفارات كانت تحال - علانية - إلى بعض الصحف لطبعها ، مع وجود المطبعة الأميرية.

ولم تكن مصادر الإعانة مجهولة بين العاملين فى الصحافة والسياسة ، وإن لم تبلغ من الصراحة فى زمن من الأزمان مبلغ الاعتراف المكتوب .

وربما انقسمت هذه المصادر فى جملتها إلى مصدرين اثنين على شىء من الدوام والانتظام .. وهما القصور الملكية ودواوين السفارات ووزارات الخارجية، وقصر «يلدز» فى الأستانة كان مصدر القسط الأوفر من إعانات الصحافة والصحفيين المتطوعين ..

وقصر «عابدين» بمصر كان المصدر الآخر الذى ينافسه يوما ويعمل معه يدا بيد فى عامة الأيام ..

وكان بخل عباس المشهور يغل يده عن التبرع بالمال من خزانته الخاصة ، فكان يحيل أعوانه من الصحفيين تارة إلى الأوقاف وتارة إلى ديوان الرتب والنياشين .

أسعار الرتب:

وكانت للرتب أسعار مقررة من الباشوية إلى البيكوية من الدرجة الثالثة .

فكانت رتبة الميرامون الرفيعة تباع بألف جنيه ، ورتبة البيكوية من الدرجة الأولى تباع بثمن يتراوح بين خمسمائة جنيه وسبعمائة جنيه أو ثلاثمائة جنيه . وتقدر أسعار النياشين والأوسمة بمقدار قيمتها من المعدن والجوهر وقيمتها من الأولية في ترتيب التشريفات .

ولقد بيعت رتب كثيرة في القهوات ، وبيعت رتب مثلها في مكاتب التحرير والتوكيل ولكنها لم تهبط في السوق – على ما نعلم – إلى ما دون مكاتب التوكيل في القاهرة والإسكندرية .. ولو أن سمسارا من سماسرتها خذله الحظ أو غلبة الطمع فباع رتبة من هذه الرتب لرجل محكوم عليه في جريمة شائنة لبقيت هذه التجارة موردا للصحافة إلى ختام عهد الخديويين ..

والوكالة البريطانية وسفارة فرنسا كانتا في هذا المجال ندين كفئين – أو أكثر من كفئين – لقصور الملوك والأمراء ، ولكن الوكالة البريطانية كانت تكافئ خدامها بالمنافع الجزيلة من الوساطات والشفاعات في دواوين الحكومة ، وقد تجود بالمال من مصروفات «الميزانية» ومن مصروفاتها هي إذا اقتضى الحال . ولا تقصر السفارة الفرنسية عن زميلتها في بذل هذه الإعانات على اختلافها ولكنها كانت تعوض الخدمات الحكومية بالصفقات التجارية ومساعدات المصارف والشركات ، وقل فيها ما لم تكن للفرنسيين مساهمة فيه .

ومن الوظائف التي كانت تبدو للنظر – بريئة – من هذه الشبهات وظيفة المدير العام لدار الكتب المصرية التي كانت موقوفة – باتفاق العرف – على علماء الألمان . ولكن هذه الوظيفة عملت في الدعاية الخفية أحيانا ما لم تعمله وظيفة في السفارات السياسية ، وكان اتصال المدير العام لدار الكتب بزمرة

الصحفيين وحملة الأقلام أمرا لا غبار عليه ، لأنهم كانوا يقصدون إلى دار الكتب للمطالعة والمراجعة والنسخ في جميع الأوقات . وماذا يحول دون الاتفاق على حملة منظمة في الصحف خلال مقابلة أو مقابلتين لنسخ هذه الورقة أو استعارة ذلك الكتاب ؟ .

ونعود إلى الدستور:

ونعود إلى صحيفتنا التي بدأنا فيها عملنا نسأل : كيف عاشت من مواردها الصحفية ؟ وكيف كانت ترجو أن تعيش كما عاشت الصحف في أيامها ؟

نقول اليوم أن ظهورها بوسائلها التي عهدناها ، ولا يخامرنا الشك فيها ، كان عجبا من العجب ، وخلاصة ما يقال عنها أن قلة مصروفاتها كانت هي السند الأكبر لبقائها المزعزع في عمرها القصير .

ضاع الأمل في الاشتراكات بعد شهر أو شهرين ، ولم يكن صاحب الصحيفة – على شهرته بالنظريات ، مجردا من الدراية الحسنة في تنظيم الأعمال ، فاخترع طريقة الاشتراك الشهري بالأذونات مع خصم رسوم البريد من بعض هذه الأذونات . وأفادت هذه الطريقة قليلا ولكنها كانت ، على أحسنها ، فائدة تأجيل للقضاء المحتوم .

وكسدت سوق البيع بعد الخلاف بين الدستور واللواء ، فقصرت الإدارة عدد المطبوع من النسخ على الطلب اليومي ، ولم يزل هذا الطلب اليومي يتناقص من أسبوع إلى أسبوع..

ومن لطائف الأستاذ فريد وجدي – وكان يمزح أحيانا ولا يقول إلا صدقا – أن موظف الإدارة فاتحه في نقص أجور الإعلان فقال له متململا : ألا تحمد الله لأننا لا نغرم حتى الآن إعلانات في الصحف عن ظهور الدستور ؟!

أما الإعلانات السرية فقد كان الدستور خليقا أن يجمع منها الكثير لولا أن الأستاذ فريد وجدي رحمه الله كان يحسب أنه يسخر أصحاب الدعايات لرسالته الدينية ولا يفهم أنهم يسخرونه لدعايتهم السياسية . وقد يصل الأمر إلى تبرعات الأفراد ، فلا يقبل منها الرجل ما يزيد على قيمة الاشتراك المكتوبة

على الصحيفة . وحدث من ذلك أن السيد «توفيق البكرى» أراد أن يعرب للصحيفة عن شكره لموقفها منه أمام الخديو فى مسألة «زفة المحمل» وحضور الطرق الصوفية فيها ، فأرسل إلى الأستاذ وجدى مبلغا لا أذكره على التحقيق، ولكنه يزيد على قيمة الاشتراك بكثير .. فأمر صاحبنا كاتب الحسابات أن يكتب للسيد إيصالات بقيمة الاشتراك ، ويعيد إليه بقية مبلغه مع الإيصال ..

وماذا تكون النتيجة ؟

تكون على هذا نتيجة مكتوبة قبل المقدمة . ولولا قلة المصروفات - كما أسلفنا - لاتصلت النتيجة بالمقدمة فى أيام ، أو على الأكثر فى أسابيع !

ستة جنيهات :

كانت المصروفات القليلة سببا من أسباب بقاء الصحف المصرية فى سنواتها الأولى..

وتظهر قلة المصروفات من تكاليف التحرير فى الصحف اليومية الكبرى . فقد كان قلم التحرير فى أكبر الصحف لا يزيد على خمسة من المحررين والمترجمين والمخبرين وملخصى الأخبار من الأقاليم ، يبدأ مرتبهم من خمسة جنيهات فى الشهر ويندر جدا أن يجاوز العشرين ..

وكان قلم التحرير فى صحيفة الدستور يشتمل على محرر واحد غير صاحب الصحيفة.

وهذا المحرر الواحد هو كاتب هذه السطور ، يشترك فى التحرير والترجمة وتلخيص الأخبار ، ويتناول فى الشهر مرتبا لا يقنع به الآن أحد يعمل فى الصحف من البوابة إلى السعاية ونقل الأوراق بين المكاتب ، ودع عنك التحرير والترجمة وجلب الأخبار ..

ذلك المرتب «مبلغ وقدره» ستة جنيهات ، ولم يكن يزيد على مرتبى من وظيفة الحكومة بأكثر من جنيه واحد .. فلم تكن زيادة المرتب إحدى المغريات لى على ترك الوظائف الحكومية للاشتغال بالصحافة ، لأن المرتبين متقاربان مع الفارق فى الضمان والترقية ومستقبل المعاش ..

إلا أن القيمة فى هذه المرتبات لا تحسب بحساب الأرقام ، فإن الستة ربما ساوت ثلاثين فى الوقت الحاضر أو أربت على الثلاثين ..

كانت خمسة مليمات فى ذلك الحين تعطيك مائدة إفطار حسنة فى الصباح . وقد ترضيك هذه المائدة عند الضرورة فى طعام الغداء أو العشاء ..

مليم ثمن نصف رغيف (شقة من الخبز) يساوى وزن الرغيف فى منتصف القرن العشرين ..

ومليمان ثمن الفول والزيت .

ومليم ثمن صفحة من السلطة

ومليم ثمن برتقالة أو يوسفية أو أصبع موز أو أربع بلحات .

فإن أردت التنويع أمكنك أن تغير هذه الأصناف بالحلاوة الطحينية أو العسل والطحينة أو الجبن أو البيض ، ومن هذه الأصناف ما يغنيك عن الفاكهة والحلويات

وإن أن تتوسع فى طعام الغداء ، فلا تقنع بالأصناف التى تقدم على مائدة الإفطار .. ولكنك لا تحتاج إلى أكثر من عشرة مليمات للصفحة من الخضر المطبوخة وعشر مليمات للصفحة من الأرز ، وعشرين مليما للصفحة من الخضر وفيها قطعة من لحم البقر أو الضأن.

وقس على ذلك سائر المأكولات .

دروس التلغراف :

وكانت مشكلة السكن يومئذ أيسر من مشكلة الطعام ،

فكنت أنا من سكان الضواحى الخلوية ، لا يكلفنى السكن فى الشهر أكثر من ثلاثين قرشا لحجرة ذات نوافذ مطلة على الطريق ومروج الخلاء ، ولم يقع اختيارى على الضاحية التى سكنتها - بجوار حدائق القبة - لأننى كنت من طلاب الترف وسكان المنازل الخلوية، ولكننى كنت أتعلم دروس التلغراف بمدرسته فى ضاحية الدمرداش ، فاخترت السكن إلى جوارها وضمنت أجور

المواصلات باشتراكات «مجانية» على حساب مصلحة السكك الحديدية . فلما اشتغلت بالصحافة خسرت أجور المواصلات ، ولم أعوضها بتذاكر الاشتراك فى الترام أو قطار كبرى الليمون .. إذ كان طلب هذه التذاكر مخالفا لمبدأ صحيفتنا «الحنبلية» .. فعوضتها بخمسة مليمات فى الترام ، أو بمشوار على الأقدام . وقد كنت من الفلاسفة المشائين قبل أن أسمع باسمهم بين الفلاسفة الأقدمين ، وكنت لا أعجز عن مشوار بين أسوان والخزان أو بين أسوان وأبى الريش . فلماذا أعجز عن مشوار بين القاهرة وحدائق القبة أو الدمرداش ؟ ..

لا موجب لهذا العجز على التحقيق . وبخاصة بعد العلم بمدرسة الفلاسفة المشائين ، وبعد ترشيحى بهذه الصفة للتلمذة على أستاذ الأساتذة ومعلم المعلمين : سيدنا أرسطو كما كان يقول أستاذ الجيل «أحمد لطفى السيد» .

ديوان زهير .. بقرش:

هذه ضرورات المعيشة المادية . فما القول فى ضروراتها النفسية أو الأدبية؟

لقد كانت أيسر من ذلك فيما أعرفه من شؤونى الخاصة .. ولعلها أيسر من ذلك فى شؤون الكثيرين ..

ففيما عدا شهود التمثيل مرة أو مرتين عند عرض الروايات الجديدة لم يكن لى مطلب عزيز غير شراء الكتب العربية والأفرنجية .

فهل ترانى أعجز عن «قرش صاغ» ثمنا لديوان البهاء زهير ؟ أو عشرة قروش ثمنا لديوان المتنبى ؟ أو قرشين ثمنا لكتاب المستطرف فى كل فن مستظرف ، وعلى هامشه ، أو فى ذيله ، كتابان آخران ؟ ..

وإذا زادت الحسبة إلى الجنيهات ، فهل ترانى أعجز عن رحلة إلى دار الكتب المصرية لمراجعة المجلدات أو للنقل منها «عند اللزوم» ؟ ..

أما الكتب الأفرنجية فقد كانت لها طبعات يباع فيها الكتاب بشلن واحد ، وكانت هذه الطبعات تحيط بالنخبة المختارة من كتب المنظوم والمنثور ، وما يصعب الحصول عليه فى طبعة منها لأنها مخصصة لصنف من الكتب تنتقيه

ولا تعنى بغيره . فليس من الصعب أن تحصل عليه فى طبعة مثلها فى الثمن وفى جودة الورق والتصنيف .. وعلى هذا أمكننى فى خلال ستة أشهر أن أجمع مائتى كتاب من عيون كتب الأدب الغربى فى جميع اللغات ، مترجمة إلى اللغة الإنجليزية ..

بارك الله فى مصطلحات السياسة وفوارق الأشكال والعناوين فى العلاقات الدولية .

فما زلت من ذلك الحين أومن بأنها شىء صحيح ملموس الأثر ، وليست حروفا على الورق ، ولا ألفاظا تطير مع الهواء .

فالبلاد المصرية كانت - فى الواقع - تابعة للدولة البريطانية فى سياستها الخارجية وحكومتها الداخلية ..

ولكنها لم تكن كذلك فى مصطلحات السياسة ، ولا فى أشكال العناوين ..

وبهذا استطعت أن أشترى كتابا يباع فى إنجلترا بثلاثة جنيهات ولا أبذل فيه أكثر من أربعين قرشا فى مكتبات القاهرة ، لأنه صادر من مطبعة ألمانية حصلت على حقوق طبع الكتب وبيعها فى كل مكان غير «الأملاك البريطانية» .

ولم تكن مصر قط من الأملاك البريطانية بحكم القانون ، فليس فى العرف الدولى ما يمنع المطبعة الألمانية أن ترسل إلى مصر جميع مطبوعاتها لتبيع الكتاب منها بمارك واحد ، أو بشلن واحد على وجه التقريب .. فاستغنينا بهذه الطبعة زمنا عن الكتب الإنجليزية فى طبعاتها الغالية ، وهانت مشكلة الكتاب بعد مشكلة الغذاء .

ولم تبق إلا مشكلة الكساء !

وقد كانت حقا مشكلة المشاكل لا مراء :

لأنها تحتاج إلى مبلغ متجمع لا يوجد فى اليد ساعة الطلب ، ولا تحلها عندى حيلة التقسيط لأنه - على ندرته فى ذلك الحين - لم يكن مريحا لمن يبيع الكساء ولا لمن يلبس الكساء .

ومرة واحدة حللت هذه المشكلة بشراء بذلتين قديمتين ، ولكن الجوار الصالح هدانى إلى حيلة أصلح من هذه الحيلة لتدبير هذه المشكلة . وهى

دوس خصوصى لتاجر أقمشة يتولى تفصيل القماش وتسليمه كسوة كاملة ، ويوفيني الأجر - بذلك - كسوة كل ثلاثة أشهر .. ولم تزد مدة التعليم كله على كسوتين ، لنشاط التلميذ أو لبراعة الأستاذ أو رغبة الفريقين معا فى «فسخ» العقد بسلام !

خصلة مشتركة:

والحال ، بعد هذه القصة عن الكتابة ، أنني نسيت أن أقول إن قلة المصروفات كانت خصلة مشتركة بيني وبين الصحافة التي عملت فيها ، فقد كنت فى سن الحاجة إلى المصروفات قليل الحاجة إلى المصروفات ، وأصح من ذلك أن أقول إن مطالبى فى حياتى ليست بالقليلة ولكنها ليست كذلك من النوع الذى يتوقف على المال .

وكفاية المرتب ، على أية حال ، مهمة جدا فى كل عمل نعمله لنعيش من رزقه.

هى شىء مهم جدا ولا كلام ..

ولكن هل ترانا نفهم إنها هى الشىء المهم الوحيد ، أو أن شيئا آخر لا يهمنا مثله على تفاوت المرتبات والأجور ؟

من يفهم ذلك ففى تجاربه نقص يتعبه فى عمله ويتعبه فى معيشته . فالرغبة فى العمل الذى نتوفر عليه مهمة جدا كالمرتب الذى نتقاضاه منه ، ونحن نستريح بستة جنيهات نتناولها من عمل نرغب فيه ولا نستريح باثنى عشر نتناولها من عمل نبغضه ونساق إليه ولا نرجو أن ننجزه محسنين أو غير محسنين !

وقد بدأت عملى فى الصحافة راغبا فيه مقبلا عليه .

ووجدت من اللحظة الأولى أننى أريد أن أفرغ فيه جعبة المعرفة التى حصلتها من مطالعاتى الصحفية ، ومن مطالعاتى فى الكتب ، وفى الحياة ..

وبعض هذه المعرفة صبيانيات مضحكة لا تقدم ولا تؤخر فى الموضوع ، ولكنها تدل على حكم العادة وتواتر النظر والسماع ..

«عم العقاد»

كيف أوقع مقالتى الأولى ؟ وكيف يكون توقيعى الملتزم فى جميع المقالات ؟

وقعتها كما توقع المقالات التى أقرأها فى المجلات الأجنبية ، فكان توقيعى باللقب وبالحرفين الأولين من الأسمين «ع . م العقاد».

ومثل هذا التوقيع لا ينجو من ألسنة الزملاء الهازلين فى بلد «القفش» والقافية .. فسرعان ما ظهر لى مقالان أو ثلاثة حتى دغموا الحرفين فى اسم واحد ، وراحوا يتحدثون عن مقالات «عم العقاد» .. !

وماذا قال عمك ؟ .. وماذا تقول يا عم ؟ .. واكتب لنا يا عمنا بما تراه .. وقس على ذلك بقية القافية فى مختلف الأوضاع والنداءات ..

ويأبى العناد أن أرجع عن «عم العقاد» ..

أو لعله لم يكن عنادا محضا ولا صبرا على السخرية بغير مبالاة ، فليس من الكسب الرخيص للكاتب الناشئ أن ينكر وأن يكون فى توقيعه إغراء بذكره .. وأما السخرية فهى شهرة نابية فى جميع الأسماع ، ولكنها تهون إذا أصابت الفطاحل النابهين كما تصيب الناشئين المبتدئين ..

وهكذا مضى «عم العقاد» يكتب بهذا التوقيع من العدد الأول إلى آخر الأعداد!

أما الموضوع فقد كان «المقالة الأدبية» فى المرتبة الأولى ثم تليه المقالة على الإجمال فى مختلف الشئون ..

وكان أدب المقالة فى تلك الآونة يستوعب مطالعاتى الحديثة أو يكاد ..

كنت أدمن القراءة فى كارليل ، وماكولى ، وهازلت ، ولى هنت ، وارنولد ، وغيرهم من أئمة فن المقالة فى القرن التاسع عشر .. وكان بعض هذه المقالات مما ينشر فى الصحف اليومية ، لأنها تمتد حتى تبلغ فى المجلة ثلاثين أو أربعين صفحة ، وبعضها مما يصلح للنشر فى الصحافة الأسبوعية كما يصلح للنشر فى الصحافة اليومية ، ومن هذه المقالات كنت أترجم ما يصلح للنشر

في الصحيفة السيارة ، وعلى غرارها كنت أكتب ما أكتب عن أنباء العرب والفرس ومسائل النقد والتعليق ..

فن المقالة :

ولم يخطر لي أن أخترع جديدا في فن المقالة الأدبية ، إذ كانت الصحف المصرية كلها قد قامت على فن المقالة منذ إنشائها قبل الثورة العرابية ، وكانت «الجريدة» قد سبقت «الدستور» في تاريخ الصدور ، وكان من كتابها المتقدمين «محمد السباعي» تلميذ «لي هنت» في فن المقالة على أسلوب المدرسة الإنجليزية ، فكان رائد هذا الفن في تحرير الصحف غير مدافع ، وكان له فيه إبداع يعرفه قراء كتابه الذي سماه «بالصور» وأراد أن يعارض به مقالات الترسيم والتخطيط المعروفة باسم «الاسكتش» Sketch في أدب الغرب الحديث ، فلم أحاول في كتابة مقالاتي جديدا غير تقريب الموضوعات من الدراسة النقدية ، ولم أطرق غير القليل من موضوعات النقد الاجتماعي أو موضوعات المقالة الوصفية والمقالة العاطفية ، لأنني كنت مع اشتغالي بالكتابة مشغولا بنظم الشعر في موضوعاته ، وهو أولى بالوصف العاطفي من المقالات ..

على أنني أحمد الله ، لأن المتقدمين علي في الصحافة لم يغلقوا علي جميع الأبواب ، فبقي لي في الصحافة المصرية باب واحد أستطيع أن أقول أني كنت أول السابقين إليه ..

وذلك هو باب الأحاديث مع الوزراء والساسة .. فلا أعلم أن أحدا من الصحفيين المصريين سبقني إلى إجراء حديث عام مع وزير مصري أو رئيس شرقي يسمع له قول في السياسة ، وأخالهم معذورين بعض العذر في هذا التأخير ، وأخالني محظوظا بعض الحظ في هذا السبق المقدور ، لأن الأحاديث أمر مرهون بأوانه لا يدركه أحد قبل موعده ولا بعده ، ولا هو بالمعقول في صحافة مصر على عهد الاحتلال قبل حادث دنشواي وقيام الأحزاب ..

من كان يحادث الوزراء المصريين في شؤون السياسة العامة ، وماذا يقول الوزير للرأي العام إذا أراد المقال ؟ وأي برنامج له يعرضه على الناس ؟ وأي رأي كان له بعد رأي المستشار ورأي قصر الدوبارة من وراء المستشار ؟

أحاديث الوزراء :

إن حديثا يجري مع وزير لا يملك من أعمال وزارته غير التوقيع والسكون لهو اللغو بعينه ، فلا حرج على الصحفيين المصريين إذا تجنبوه .. وقد تجنبوه معذورين حتى خطر لي أن أقتحم هذا الباب لأول مرة ، فكان اقتحامي إياه في الحق عنوانا لصفحة جديدة في تاريخ الوطنية المصرية ، ولم يكن مجرد سبق في الصحافة يتكرر كل يوم ..

وجرى الحديث الأول مع سعد زغلول في وزارة المعارف ، وجرى غيره من الأحاديث مع الغازي أحمد مختار «قوميسير» الدولة العثمانية كما كانوا يسمونه في زمانه ، وكان على ضآلة نفوذه في مركزه شخصية من أقوى الشخصيات العسكرية والسياسية التي عاشت في ذلك الزمان ..

وكنت أعلم أن حديثا يتطرق إلى نظام الجيش في عهد الاحتلال ، ويفوه به أكبر القادة العثمانيين في مركزه الرسمي بالديار المصرية - لن يخلو من ضربة تقض مضاجع المحتلين ..

ولقد كان ما قدرت ، فإن الرجل خبطها خبطة عنيفة ، وقال لي لما سألته عن العدوان على المحمل المصري في جزيرة العرب : أن الذنب ذنب النظام لا الأمن في الجزيرة العربية ، وأنه كان يستطيع أن يفتح الجزيرة كلها بفرقة كالفرقة التي تحرس المحمل في كل عام !

يا خير ! ..

إن كلمة دون هذه الكلمة في المساس بنظام الاحتلال العسكري قد أوشكت أن تطيح بعرش عباس الثاني ، وقد حركت الدولة البريطانية بحذافيرها لتهديده وإرغامه على الاعتذار ..

فكيف تراهم يصبرون على تلك الضربة من قائد عسكري يمثل الدولة العثمانية ؟ ..

إلا أنهم مكروا ولم يجهروا ، وبدأت بينهم وبين القائد الكبير أزمة متواترة .. نصرهم فيها عليه سماسرة الخذلان في الآستانة ، فكان الغازي مختار خاتم «القوميسيريين» في هذه الديار ..

ثورة على الخديو:

إذا كنت قد خرجت من صحيفة الدستور بأولية من أوليات الصحافة المصرية، فهذه هي «أوليتي» التي خرجت بها من أول عملي في صحيفة يومية: أول صحفي مصري حصل على حديث من وزير عامل في الوزارة، أو من رئيس شرقي كبير يسمع له رأي في السياسة ..

وقد كدت أن أضيف إليها «أولية» أخرى ذهبت غير محسوس بها، قبل أن تحبو من مهدها ..

كدت أكون أول كاتب يحاكم على حملة صحفية موجهة إلى سياسة الأمير في شئون مصر وفي شئون الإصلاح الأزهري على التخصيص ..

كانت سياسة الوفاق يومئذ في عنفوانها، وكان مدار هذه السياسة على التعاون بين السلطة الفعلية، سلطة الاحتلال، وبين السلطة الشرعية سلطة الأمير .. وقامت السياسة فعلا - بعد عزل اللورد كرومر - على اطلاق يد الخديو في مسائل الحكم التي تعنيه، ومنها مسألة الأزهر والأوقاف ومسألة الرتب والنياشين ..

وفي هذه الفترة تنمر الخديو للحركة الوطنية، وأدار ظهره لطلاب الدستور، وعمل جهده على استئصال نهضة الإصلاح في الأزهر بعد وفاة الأستاذ الإمام، وأعلن عداءه لمدرسة القضاء الشرعي وكاد يقضي عليها ..

وثارت الثائرة على الخديو من داخل الأزهر وخارجه، فتكلم مرة عن نهضة الإصلاح الأزهري وأقسم أنه يغار على الإصلاح غيرة أصدق من دعوى المدعين للغيرة عليه ..

وكتبت يومئذ مقالا مطولا استغرق الصفحة الأولى من صحيفة «الأخبار» التي كان يصدرها الشيخ يوسف الخازن ويحررها الأستاذ توفيق حبيب. قلت فيه ما فحواه: إن الملوك لا يحتاجون إلى القسم لأنهم يثبتون نياتهم بالأعمال لا بالأقوال!

براءة المشايخ:

وكان في وسعي أن أكتب هذا المقال في صحيفة الدستور لأن صاحبها - الأستاذ فريد وجدي - كان كما أسلفت من أرحب خلق الله صدرا لحرية الرأي وحرية المناقشة، ولكنني قدرت له حريته هذه فلم أشأ أن أحرجه في مسألة ترتبط بالأزهر والإصلاح الديني. وقد كانت له في العالم الإسلامي مكانة تشبه مكانة الأقطاب الدينيين ..

فلما ظهر المقال في صحيفة الأخبار بتوقيع «ع الأسواني» قلقت له الحاشية الخديوية، وظنوا أنه من إيحاء بعض المشايخ الأزهريين، فأكبروا هذا «التمرد» من معقل الخديو الأمين في أيامه، فاستدعت النيابة صاحب الأخبار وسألته عن اسم صاحب المقال، فأذنت له أن يطلعهم عليه، ولعلهم اطمأنوا إلى هذه النتيجة بعد أن علموا ببراءة المشايخ من الشبهة، فانطوت المسألة ووقفت عند هذا الحد، إشفاقا من إثارة القضية الأزهرية في أطوار التحقيق والمحاكمة والدفاع وتعليقات الصحف وأحاديث المتحدثين.

ولولا ذلك لسبقت نفسي بثلاث وعشرين سنة، فكنت أول من حوكم على تلك العيوب الملكية التي يحملها أصحاب العروش ويحاسب عليها أصحاب الأقلام.

يومية وغير يومية:

كانت الصحف المصرية عند أوائل هذا القرن تنقسم إلى يومية وغير يومية، ولم تكن هناك صحف أسبوعية بالمعنى الذي نفهمه من الصحافة التي تصدر مرة كل أسبوع .. فإن لم تكن الصحيفة يومية، فالصحف التي يقال عنها أنها أسبوعية قد تصدر مرة كل شهر أو مرة كل شهرين، أو تنتظم على الصدور يوما في كل أسبوع إلى أمد محدود، ثم تنقطع دفعة واحدة، أو تعود إلى الانقطاع على دفعات ..

وكانت مواعيد الانقطاع على الجملة أصدق من مواعيد الصدور .. لأنه كان يتكرر على التحقيق حيث يتعذر التحقيق من موعد الصدور ..

وربما انتظمت الصحيفة «الأسبوعية» خمسة أسابيع أو ستة أسابيع متوالية، ولكنك تنتظرها عبثا إذا انتظرتها في يوم معلوم من أيام الأسبوع، فإذا ظهر

هذا العدد منها يوم الأحد فلا مانع أن يظهر العدد التالى يوم الخميس أو يوم الجمعة ، أو بعد يومين اثنين فقط من ظهور العدد الذى سبقه ، ولا معول فى ميعاد من هذه المواعيد على شىء غير «توافر المادة اللازمة للتحصيل .. » .

شىء لزوم الشىء :

وما هى المادة اللازمة للتحصيل ؟ ..

حملة على مشهور أو فضيحة فى أسرة تخاف التشهير ، أو تهديد مقدور على حسب المناسبات ومصالح لضحايا المعرضين للتهديد ، أو ضجة سياسية أو اجتماعية تشتبك فيها المطامع والدعايات وتتعدد فيها الفرص للمنتهزين من هنا ومن هناك ..

وكان أفضل هذه الصحف «الأسبوعية» الذى يسرع إلى الاحتجاب وتمتنع عليه وسائل الثبات والاستمرار ..

وقد ظهر من هذه الصحف الفضلى كثير لم يبق منها بعد حين كثير ولا قليل، ولم يقل أحد من الصحفيين الأفاضل أو غير الأفاضل ، أنه يصدر صحيفته لمصلحة خاصة أو يصدرها لمحض التشهير والتهديد ، ولكنك تراجع الأسماء فلا ترى بها من خفاء .. وماذا يبقى من الخفايا وراء اسم كاسم «الكرباج» أو «البعبع» أو «الجاسوس» أو «اللجام» أو «الصاعقة» أو «المرصاد» أو «العفريت أو عفريت المقابين» على التخصيص ؟ ..

هذا إلى أسماء أخرى كخلاعة والصبرة والغندرة والمرستان والفوضى وما أشبهها من أسماء يختارها أصحابها وهم فى سعة من الاختيار ، وفى سعة من الادعاء كما يشاءون بما اختاروه من كلمات ! ..

ولم يمض غير يسير حتى افترقت الكفايات اللازمة لإصدار الصحيفة الأسبوعية على هذا المنوال ..

فقد يكون الرجل من أجهل الجهلاء ، ولكنه من أقدر الناس على التشهير والتهديد واستغلال الفضائح والإشاعات ..

وقد يكون الرجل عاجزاً عن كسب مليم من هذه الصناعة ولكنه قادر على تسويد الصفحات وتلفيق الأقاويل والأباطيل ..

ولابد من الكفايتين لإصدار الصحيفة فى موعدها الملائم .. فإن لم توجد الكفايتان فى رجل واحد فقد توجدان فى رجلين ، وقد يهتدى أحدهما إلى الآخر بحكم المصادفة إن لم يهتد إليه بحكم الضرورة ..

وهكذا كان ..

بين العتبة والفجالة :

فقد وجدت فى القاهرة ثلاثة مكاتب أو أربعة لتحرير المقالات حسب الطلب والاقتراح مقرها حانات وقهوات موزعة بين باب الخلق والعتبة الخضراء والفجالة وحى الحسين ، وهى الأماكن التى كثرت فيها المطابع الصالحة لطبع الصحف الصغيرة ، لأنها تكلف القليل من الأجور وتتقبل المقالات ..

وربما من هذه «المكاتب» قهوة فى العتبة الخضراء يجلس إليها محرر مشهور يكاد يرتجل المقالة فى دقائق معدودات ، وقد يكتب المقالات فى اقتراحها على وجهين متناقضين ، أحدهما للمدح والتأييد والآخر للقدح والتنديد .. ويجلس بهذه المقالات على ثقة من الطلب فى حينه ، وقد يأتيه الطلب على النقيضين من طالب واحد فى ساعة واحدة، ولا يعجزه فى اللحظة الأخيرة أن يدخل التعديل المطلوب فى القياس والتفصيل ، إن كان لابد من تعديل ! ..

كان المكتب العام من «مكاتب التحرير تحت الطلب» ، فى قهوة على مفترق شارع محمد على وميدان العتبة الخضراء ، وكان المطعم الذى تعودت أن أتناول فيه الغداء إلى جوار تلك القهوة .. فكنت أجلس فيها هنيهة قبل الغداء أو بعده ، وكنت ألقى فيها بعض الصحفيين والأدباء ، وأحضر مجالسهم ومحاوراتهم وأستمع إلى أحاديث غزواتهم وأحابيلهم فى تحصيل أتاواتهم ، فرأيت صاحب صحيفة من أشهر الصحف الأسبوعية فى أيامها يجلس إلى مائدة «الشيخ المحرر» ويبادره بطلب من «البار» على حسابه ، ويفاتحه قبل حضور الطلب فى موضوع مقالين مستعجلين ، يثنى فى أحدهما على سرى معروف من أصحاب القصور الباذخة على مقربة من حى عابدين ، لأنه يشير على عمل البر وإسداء المعونة إلى الجماعات الخيرية وإصلاح المساجد التى

تجاور قصره وإطعام الفقراء الذين يترددون على تلك المساجد لوجه الله الكريم. وينحى في المقال الثاني على ذلك السرى بعينه لأنه مبتذل العرض والكرامة يغرر بالأبرياء فيسوقونه إلى ساحة القضاء ، ويطالبونه عما أصابهم به من الأذواء ..

ثمن الفخر والثناء :

وخرجت من القهوة إلى المطعم والمقالان يكتبان . ولعلهما عرضا في ساعة واحدة على السرى المصلح المفسد ، النافع الضار ، المحمود المذموم .. ولعله قد بذل الثمن ضعفين: ثمن الفخر والثناء وثمن السلامة من الخزى والبذاء .

ومجمل ما يقال في هذه الصحافة أنها كانت في مجموعها على هذه الوتيرة .. بين صحافة صالحة تسرع إلى الاحتجاب ، أو صحافة فاسدة تعيش متقطعة متسكعة ، وينقطع بها الحبال من نفايات البلد ، وقل أن تعتمد على بضاعة غير بضاعة الجهل والاحتيال ..

ولنا أن نقول في كلمتين أنها صناعة مرذولة ولا حرج ، وعلينا أن نذكر أننا نتكلم عن الصحافة . وأن الصحافة يومئذ كانت ظاهرة اجتماعية تبحث عن مكانها .. ومن أعجل الأحكام أن تدان الظواهر الاجتماعية بحكم واحد في فترات النشوء والانتقال على نحو خاص ، فلابد من استثناء في هذه الفترات ، بل لابد من حكم متئد يقابل الحكم العاجل ويلغيه أو يكاد ..

صناعة مرذولة محتقرة ..

هذا هو الرأى المجمل في صحافة مصر غير اليومية منذ خمسين سنة .. ولكنك لا تستطيع أن تبخل بوصف الاحترام على صناعة الصحافة يومئذ في مصر إذا التفت من ناحية الصحافة «غير اليومية» إلى ناحية الصحافة اليومية، لما كان في مصر يومئذ من صناعة تضم بين أبنائها أناسا أحق بالاحترام من على يوسف مدير المؤيد ، ومصطفى كامل مدير اللواء ، وأحمد لطفى السيد مدير الجريدة ، كائنا ما كان المقياس الاجتماعي الذى تقاس به الصناعات .

طبقة من المجاورين:

ولا استثناء في ذلك لمقياس الدولة والحكومة ، فإن الرتب والألقاب التى حصل عليها أقطاب الصحافة المصرية من الدولة لم تكن تقل في قيمتها الرسمية عن ألقاب الوزراء .. ومن حصل منهم على «البكوية» فإنما كان يحصل عليها من الصنف الذى ينادى صاحبه بلقب الباشوية ، ولولا أن الأستاذ «أحمد لطفى السيد» كان من المعارضين للسيادة العثمانية لجاءته الرتبة التى أنعمت بها الدولة على صاحبى المؤيد واللواء .

ومن الملاحظات التى لا تهمل في هذا الصدد مسائل الزوجية التى تعرض لها كبار الصحفيين في تلك الآونة ، فإنها تدل على إحساس عميق داخل أصحاب هذه الصناعة أودع في نفوسهم الثقة بمكانتهم الاجتماعية في شئون يتغلب فيها العرف التليد على كل اعتبار جديد ، فلولا «الاحترام الاجتماعي» الذى كان يحسه الزعيم النابه في الصحافة اليومية لما خطر لمصطفى كامل أن يخطب «الأميرة شويكار» ولا خطر لعلى يوسف أن يتزوج بسليلة بيت السادات ، وهو طموح أبعد من الطموح إلى مصاهرة بيت الإمارة ، لأن اعتداد بيت السادات بشرفه الدينى كان في ذلك العهد أقوى من اعتداد الأمراء بمراتبهم الدنيوية.

ولا يرجع شيء من هذا الاحترام الاجتماعي إلى مزية من مزايا الطبقة أو مزايا الثروة .. فإن مصطفى كامل كان في طبقة الموظفين الصغار ، وعلى يوسف كان من طبقة الفلاحين الفقراء «المجاورين» للجامع الأزهر ، ولم يكن لهما من الثروة قسط يذكر بعد أن بلغا في الصحافة قمة النجاح .

* * *

من الكلمات التى قرأتها ولم أنسها منذ قرأتها كلمة الروائى العبقرى «شارلز ديكنز» في مقدمة قصة المدينتين حيث يقول عن عصر الثورة الفرنسية :

«إنه كان أحسن الأزمان وكان أسوأ الأزمان .. كان عهد اليقين والإيمان وكان عهد الحيرة والشكوك ، كان أوان النور وكان أوان الظلام .. كان ربيع الرجاء وكان زمهرير القنوط ، بين أيدينا كان شيء وليس في أيدينا أى شيء ، وسبيلنا جميعا إلى سماء عليين ، وسبيلنا جميعا إلى قرار الجحيم .. تلك أيام

كأيامنا هذه التي يوصينا الصاخبون من ثقاته أن نأخذها على علاتها ، وألا نذكرها إلا بصيغة المبالغة فيما إشتملت عليه من طيبات ومن آفات» ..

فقد قرأت هذه الكلمة فخطر لي يوم قرأتها أنها لعبة من ألعاب التجانسات اللفظية لا تصدق على زمن من الأزمان ولا على حالة من الحالات ، فما برحت منذ قرأتها أعيدها أو تعيدني إلى ذكراها كلما صادفتني مرحلة من مراحل التاريخ الكبرى ، لأنها وصف يصدق على كل مرحلة من هذه المراحل ويصدق على كل جديد .. ومنها فترة اليقظة المصرية في أوائل هذا القرن العشرين ..

حائر بين الاثنين:

وطالما حيرتني وحيرت غيري هذه المناقضة بين الصحافة اليومية المحترمة، والصحافة «غير اليومية» التي لم يكن لها حظ من الاحترام ..

وليس مما يدفع الحيرة أن نعلم أن «الفترات الخالقة» بطبيعتها متناقضة مشتملة على المحاولة من طرفيها ، إلى النجاح أو إلى الإخفاق ..

ولكنني أحسب أن الصحافة في أوائل هذا القرن قد أصبحت «هامة» ولم تصبح «عامة» إلا بعد حين ..

وهذا فيما أحسب هو علة التناقض بين صحافة يومية محترمة – بمقاييس المجتمع – وصحافة أخرى غير محترمة بكل مقياس من هذه المقاييس ..

فالصحافة إذا كانت وظيفة هامة ، أثبتتها القوة الاجتماعية التي تعرف لها أهميتها وتحذر من إهمالها ، وهذه القوة الاجتماعية تأتي من قمة المجتمع ومركز القيادة فيه ..

وأما «الوظيفة العامة» فلا غنى لها عن «رأي عام» يسندها ويراقبها ويعهدها ويتكفل لها كما تتكفل له بالحماية والرعاية ..

ولم يكن لهذا «الرأي العام» وجود في أوائل القرن العشرين ، ولم تكن الصحيفة الأسبوعية قد بلغت من القوة أن تؤدي الوظيفة الهامة التي تؤديها الصحيفة اليومية وتهتم بها قيادة اجتماعية تعرف لها عملها وتتقي عواقب الإهمال فيه ..

كانت الصحيفة اليومية توجد لأنها لازمة مهمة في اعتبار طائفة تتولى القيادة الاجتماعية ..

أما الصحيفة الأسبوعية فإنما كانت توجد لأنها لازمة لصاحبها ومن يعمل فيها ، فإن لم يتكفلوا بتدبير أمرها فما من أحد غيرهم يتكفل بتدبيره ..

وعلى كلتا الحالتين كانت الصحافة – يومية وغير يومية – عارضا غريبا على المجتمعات المصرية ، ولم تكن هناك بيئة خاصة يقصدها الصحفيون لأنهم صحفيون ، بل لم تكن للصحافة نفسها كلمة متفق عليها .. فربما سمي الكاتب في الصحيفة بالتحريرجي ، أو الجورنالجي ، أو الغازيتجي ، أو المحرر من صناعة التحرير في المطابع والدواوين التي تكتب فيها الرسائل .. فأما كلمة «الصحافة» فهي بدعة مستحدثة خلقها اللغويون على وزن «فعالة» كالنجارة والحدادة والملاحة والتجارة وكل ما يأتي على هذا الوزن للدلالة على الصناعات.

ولو سئل الصحفي يومئذ : ما عملك ؟ لما وجد كلمة مفردة يجيب بها من يسأله ويفهمها السائل والمسئول .

صناعة بغير عنوان ، أو عنوان بغير جهة ، ولا فرق في هذا بين جهة المكان وبين «الجهة المعنوية» إذا استعرنا هذه العبارة من لغة القانون ..

في «سبلندد بار»:

فقد ترى في «سبلندد بار» أناسا من الصحفيين ، ولكنهم لا يقصدونه لأنهم صحفيون مشتغلون بهذه الصناعة .. وإنما يقصدونه لأنه ملتقى المهاجرين من سورية ولبنان والعراق وغيرها من الأقطار العثمانية ..

وقد ترى أناسا آخرين في قهوة الشيشة ، أو القهوة الوطنية ، أو قهوة يلدز أو قهوة متاتيا ، أو قهوات الحي الحسيني ، وباب الخلق ، والفجالة .. ولكنك لا تراهم هناك لأنهم يعملون في هذه الصحيفة أو تلك ، وإنما تراهم حيث كانوا لأنهم يدخنون الشيشة أو يشجعون القهوات المصرية في أول عهدها بمنافسة القهوات الأجنبية ، أو لأنهم يلعبون الشطرنج والدومينة ، أو لأنهم تناقلوا سنة

الجلوس في هذا الحى أو ذاك من أيام الطليعة الأولى بين الأدباء رواد الأندية العامة ..

وعلى هذا الاختلاط بين البيئات الصحفية . أو البيئات القلمية ، تتحقق من أمر واحد لا اختلاط فيه ، وهو اتصال تلك البيئة بالحركات العامة في الشرق كله .. فلم تعرف حركة عامة في قطر من أقصى الشرق لم تكن لها صلة ببعض الجالسين ..

هنالك ترى الباحث في فلسفة النشوء والارتقاء أو مذاهب الاشتراكية أو تحرير المرأة ، ومعهم ترى رئيس جماعة «تركيا الفتاة» أو صاحب الصحيفة الإيرانية الحرة ، أو مؤلف كتاب طبائع الاستبداد ، أو عصبة الحملة على فتوى الترنسفال . وهناك رأينا إبراهيم ناصف الورداني بهيجه الدائم ولهفته الدائمة على أطباق الأرز واللبن ، ورأينا مصطفى الصغير الداعية الإسلامى الهندى الذى جرت حيلته في مصر واعتقله الكمسيون من الإنجليز فحكموا عليه بالإعدام ونفذوا الحكم على الرغم من احتجاج الدولة البريطانية ..

وهنالك كنا نلتقى من نلقاهم من الأدباء الذين لا يشتغلون بالصحافة إلا إذا كتبوا إليها ، ومنهم كانت صفوة الصحب والزملاء على قلة ترددهم وترددنا على القهوة لغير موعد أو مصادفة .

وكانت الصناعة كلها عارضا غريبا في بيئات غريبة .

صناعة بغير عنوان :

صناعة بغير عنوان أو عنوان بغير جهة .. ومن هذا التيه بين البيئات تعرف ما يحيط به من القلق أو من «التوزع» والبعثرة بين مختلف الشواغل والهموم ..

إلا أننا نرى الذمة قبل ختام هذه الفاصلة من المذكرات فنسأل : أكانت الصحافة حقا عارضا غريبا كل الغربة في المجتمعات المصرية أو الشرقية ؟ أيمكن أن توجد صناعة في مجتمع من المجتمعات دون أن تسبقها صناعة متشابهة بها قائمة على أساسها ؟ ..

أكاد أقول أن وجود هذه الصناعة مستحيل ، فلابد من صحافة قبل الصحافة على صورة من الصور ، ولابد من صحفيين قبل الصحفيين ..

وللصحفى في المجتمع المصرى أب أوجد من لحمه ودمه ومن طبيعته وصناعته ، فمن يكون هذا الأب أو هذا الجد الذى ننتمى إليه أجمعين ، نحن معاشر الصحفيين ؟ ..

هو «اللبيب» على أحسنه وأعلاه ، وعلى أسوئه وأدناه .. واللبيب الذى يعلو حتى يتبوأ مكان الواعظ المسموع والمستشار المعول عليه والمعلم الذى يصغى إليه المتعلم المستفيد كما يصغى إليه «الفهيم» المعجب بسحر الكلام وفتنة البلاغة .. واللبيب الذى يهبط حتى يصدق عليه وصف «الثرثارة» أو «الأدباتى» الذى يفهم بالإشارة ولا يتورع عن الحيلة في طلب الرزق المباح والمحظور ، ولا يبالى ما يصيبه في سبيله من الزراية والابتذال ..

اللبيب هو «جد» الصحفى في المجتمع المصرى ، على أسوئه وأدناه وعلى أحسنه وأعلاه .

...أزمة قلم...

تعطيل «الدستور»

بقيت فى تحرير صحيفة «الدستور» حتى فرغت من كتابة الكلمة الأخيرة فى عدده الأخير..

وقد مضت علينا قبل احتجابه أشهر ونحن نعلم أننا نكتب أعداده الأخيرة، وإن كنا لا نعلم أيها يكون الأخير الذى ليس بعده أخير..

وأبت المروءة على صاحب الصحيفة أن يمطل أحدا من أصحاب الديون عليها أو أصحاب الأجور فيها بدرهم واحد .. فاتفق مع تاجر من تجار الورق المشهورين على أن يشترى مؤلفاته جملة واحدة سدادا لثمن الورق وما إليه، واتفق معه فى الوقت نفسه على أن يشترى النسخ من الموظفين والعمال بأثمانها المتفق عليها ، وأذكر أن ثمن النسخة من معجم «كنز العلوم واللغة» لم يزد فى هذا الاتفاق على ثلاثة عشر قرشا ، وكانت قبل ذلك بمائة قرش ثم بيعت بعد أشهر قليلة بخمسين قرشا ، ثم بسبعين .

ولقيت الرجل مودعا فقال لى أنه يرجو أن نتعاون معا فى عمل صحفى نحن أقدر عليه وأصلح له من الصحافة السياسية ، وأنه يدرس الفكرة ويخصنا لى عسى أن أفكر فيها ، ويرجو أن يبلغنى نتيجة درسه لها بعد أسبوعين أو أشهر على الأكثر . إذا صح العزم على الشروع فى تنفيذه ..

مقالاتى مرتين!..

كان الأستاذ فريد وجدى يصدر مجلة شهرية تسمى «الحياة» ويكتب فيها أحيانا مقامات خيالية تسمى بالوجديات ، ثم تفرغ لإصدار الدستور وترك المجلة إلا فى فترات متباعدة يعاودها كلما اجتمع له من مادة الفصول الأدبية

ما يملأ عددا من أعدادها ، وربما اختار بعض هذه الفصول من مقالاتى التى كنت أنشرها فى الصحيفة اليومية ..

أما «الوجديات» فقد كان يكتبها على أسلوب المقامات ويديرها على المواعظ الاجتماعية، وتقريب المثل العليا التى تصطبغ على الدوام بصبغة الدين أو بصبغة الأخلاق المثالية ، وكان لها قراء كثيرون يطلبونها كلما طالت غيبتها وقد تصدر منها طبعتان وثلاث طبعات .

قال الأستاذ : «إن الحياة» أولى بمقالاتك من الصحيفة اليومية . وإنك تستطيع أن تجرب قلمك فى المقامات فتظهر «الحياة» وفيها مقاماتك ومقالاتك إلى جانب «الوجديات» ولولا أننى أنتظر حتى أعلم أن هذا العمل يعوض تكاليفه ويغنيك عن عمل آخر لشرعنا فيه منذ الساعة . ولكننا قد نشرع فيه بعد أسابيع..

..بلا عمل:

ومضت الأسابيع ولم أسمع من الأستاذ خبرا عن هذه الفكرة ، ولم أصل من دراستها بينى وبين نفسى إلى نتيجة تدعو إلى الثقة بنجاحها ، فوجب البحث عن عمل لى فى الصحافة أو ما يناسب الصحافة . ولكن ما العمل الذى يتيسر لى عند طلبه على عجل ، ولابد من العجل ، ولا طاقة بالانتظار ..

أفق الصحافة فى تلك الآونة مظلم يطبق عليه الظلام من قراره ، ولا تلوح منه شعاعة برانية ولا جوانية ، لأن البلاء الذى كانت تصاب به الصحافة من داخلها قد كان أشد عليها من البلاء المسلط عليها من أعدائها ..

كان «اللواء» فى حياة مصطفى كامل يعول على موارد يلدز وعابدين ومعونة بعض الغيورين من سراة الترك والمصريين ، وانقطعت موارد يلدز وعابدين من قبل وفاته .. وانقطع الأمل فى موارد يلدز بعد زوال عهد عبد الحميد ، وفى موارد عابدين بعد إعراض الخديو عباس عن الحزب الوطنى فى عهد سياسة الوفاق واستحكام العداء بين الحاشية الخديوية وخليفة مصطفى كامل «محمد فريد» .. وقد كاد فريد رحمه الله ينهض وحده بأعباء اللواء المالية والسياسة ، لولا ما أصابه من المصادرة بعد المصادرة ومن المحاكمة بعد المحاكمة ، حتى أجمع عزيمته آخر الأمر على هجرة الديار..

وكان «المؤيد» يزدهر فى إبان نشاط صاحبه «على يوسف» .. ثم نكب هذا الرجل العصامى نكبة قاسية عصفت بنشاطه قبل أوانه، إذ فجعته المنية فى وحيده فى مقتبل صباه، واضطربت حياته بعد ذلك بمشكلات الأسرة أو مشكلات «مشيخة السادات» التى ساقته قضية الزوجية إليها، وما زال دبيب الملل يسرى إليه ويزهده فى صحيفته العزيزة عليه حتى تركها بعد حين للمقادير، وهو لا يبالى ما سوف تلقاه، أو ما ستلقاه ! ..

وكانت «الجريدة» أسلم الصحف من هذه الزعازع وأشباهها، ولكنها على هذا لم تسلم من ضربات خصومها السياسيين وفى مقدمتهم الحاشية الخديوية، وحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية .. فإن حاشية الخديو افتتحت عهد الوفاق بين السلطتين الشرعية والفعلية بمحاربة «حزب الأمة» قبل غيره من الأحزاب، لأن أعضاء الأحزاب الأخرى كانوا يلوذون بالقصر ولا يقاطعونه، خلافا لأعضاء حزب الأمة الذين كانوا يقفون من القصر موقف الاستقلال أو يتعرضون لغضبه فى كثير من الأحوال، فسعى رجال الحاشية سعيهم لتحويل الأعضاء من حزب الأمة إلى حزب الإصلاح، ونجح مسعاهم بعد اختيار وكيل حزب الإصلاح للوزارة وتتابع الإنعام بالرتب والألقاب على أعضائه البارزين .. ولم تبق للحزب بقية قادرة على الصمود والمقاومة إلا بجهد جهيد. ولكنه بقاء لم يعصم الجريدة من أزمات المال والخلافات الداخلية، وعرفت من محرريها يومئذ من تركها لأنها اضطرت إلى القصد فى وظائف التحرير بعد التوسعة فيها عند نشأتها، حتى كانت تقنع من المحرر ينهر فى اليوم، ولا تسأله إذا ونى عن كتابة هذا النهر عدة أيام ..

حية الظلام:

وتلك هى الصحف التى أنظر إليها إذا نظرت إلى عمل فى الصحافة اليومية. فأما الصحف الأسبوعية فلم يكن فيها مجال لتغير أصحابها أو لتغير كتاب المقالات – بالقطعة – على حسب الطلب، وعلى كل لون، وفى عرض الطريق !

وربما تأتى للصحافة فى مجموعها أن تغالب هذه المحنة، وأن تغلب عليها فى النهاية لو لم تطبق عليها طامتها الكبرى من قانون المطبوعات الرهيب

قانون الحجر والرقابة وتقييد الرخص ومحاسبة الكاتب على السطور وما بين السطور، وعلى الأقوال والنيات ! ..

وقد انطوى هذا القانون بعد نشره فى أيام الثورة العرابية، ثم عطل العمل به زمنا طويلا حتى نسينا نحن الصحفيين الناشئين أن فى البلد قانونا للصحافة كان يسمى قانون المطبوعات، وأن الكاتب يسأل عن شىء قاله فى حدود النقد المباح كائنا ما كان مقام المنقود فى الحكومة أو فى البلاد ..

ومما يؤسف له أن نصيب الصحافة من هذه الطامة التى جرتها على نفسها لم يكن أهون من نصيب الحكومة، وأنها جنت على حريتها ولا ريب بما زودت به «السلطة» من معاذير، يقبلها كل من يؤمن بحق القانون ..

فلا نذكر أن أحدا من أعلام الصحافة كتب فى صحيفته كلمة تتعلل بها الحكومة لتقييد حرية الكتابة أو قال فى خطبة من خطبه كلمة تتعلل بها لتقييد حرية الخطابة والاجتماع. ولانستثنى من ذلك «مصطفى كامل» على تطرفه واندفاعه فى الخطب، وفى المقالات ..

ولكن الصحافة اليومية لم تلبث أن صارت إلى الأقلام التى لا تحسن شيئا كما تحسن أن تسقط معاذيرها وأن تمهد العذر لمن يتمحلون العلل عليها، ولا نخال أن حاكما حرًا أومستبدا كان يعييه أن يتمحل العلل للحجر على الدعوة الصريحة إلى القتل وإهدار الدماء، ومن أمثلتها ما نشر فى ديوان «وطنيتى» من أبيات يقول فيها ناظمها :

هل سال فى مصر الدم	أم هل أفاق النوم
ومضوا إلى أهل الضلا	ل فأعدموا من أعدموا

فإنه لمن سخافة القائل أن يتهم بالاستبداد حكومة تسمح بنشر هذا التحريض، فإن لم تكن مستبدة فمن السخف أن يحاسبها على منع هذا التحريض وتحريكه .. فما كانت حكومة حرة أو مستبدة لتحسب على هذا المنع وهذا التحريم.

حفرت قبرها بيدها :

وكأنما كانت الصحافة الأسبوعية والصحافة اليومية فى سباق بينها على تدبير المعاذير للسلطة التى تعمل على تقييدها والحجر عليها .. فقد كان جمهرة الصحفيين الأسبوعيين فى ذلك الحين يستبيحون كل محظورة فى التشهير واستغلال الفضائح وافتراء الأكاذيب لاغتصاب الإتاوات التى تعمل على تقييدها والحجر عليها .. فقد كان جمهرة الصحفيين الاسبوعيين فى ذلك الحين سوء حظها وحظ الأمة أن يكون ممثل البلاد أكبر أهدافها وأول من يصاب بسهامها . فكان التشهير بأعضاء مجلس الشورى بابا ثابتا من أبواب كل صحيفة أسبوعية تبحث عن الفريسة بين ذوى الأسماء المعروفة . ولم يكن لأعضاء مجلس الشورى سلطان فى الحكم يحاسبون عليه أو يناقشون فيه ، وإنما كانوا من أعيان البلاد وكان أكثرهم بعاصمة البلاد على مقربة من جمهرة الصحفيين الأسبوعيين فكادوا أن ينزحوا عن البلاد جميعا فى مصابهم بالصحافة الأسبوعية وتصدى بعضهم للمطالبة بتقييد الأقلام قبل أن يتصدى لها الوزراء والحكام .

قال أحدهم للأمير حسين كامل مستثيرا نخوته : هل يرضيك يا صاحب السمو أن يقال عنك أنك رئيس مجلس الشورية ؟ ..

وعلى هذا النحو تبتلى البيئة بالنكسة وقلب الحال ، وينادى بالحجر على حرية الصحف من كانوا أحق الناس بالغيرة على حريتها لو لم يكن قوامها العدوان على حرية الناس ..

فى القائمة السوداء :

وطالت محنة الصحافة هذه عن يجنون عليها من أبنائها العاملين فيها ومن أعدائها الساخطين عليها ..

وطالت حيرتى بين العمل فيها والعمل فى غيرها ، وأين يكون العمل فى غيرها ؟

- إنه التدريس ولا شىء غيره . فإن لم يتيسر فى المدارس الأهلية فقد يتيسر بإعطاء الدروس الخصوصية . وأما وظيفة الحكومة فهيهات الآن «هيهاتين» لا هيهات واحدة .. لأننى كنت قبل اشتغالى بالصحافة أتنحى عن وظيفة الحكومة لنفورى منها .. فالآن أطلبها - إن طلبتها - ولا أظفر برضاها ، بعد أن ثبت

اسمى فى سجلات الحكومة بين أسماء القائمة السوداء وبعد أن صار الغضب على الصحافة والصحفيين غنيا عن الأسباب ..

ولابد من عمل عاجل على أية حال ، لأن تكاليف المعيشة على الشاب الذى لا يكسب رزقه من وظيفة ، ولا من مورد يملكه ، ضرورة ملحة لا تحتمل إلا رجاء من يوم إلى يوم .. ولا نقول من أسبوع إلى أسبوع .

وكرهت نفسى أن ألجأ إلى أحد من الميسورين من أهلى ، وهم غير قليلين بحمد الله

كرهت نفسي أن ألجأ إليهم ، لأننى تحديتهم جميعا وخيبت رجاءهم قاطبة بالخروج من الخدمة الأميرية بعد أن وصلت إليها بين مزدحم الطلاب المتهافتين عليها . وشق على أن أرفض نصيحتهم ثم أسعى إليهم لألتمس معونتهم . وخيل إلى أنهم قائلون بلسان الحال أن لم يقولوا بلسان المقال : إنك أعرضت عنا وذهبت إلى الصحافة .. فأمامك اليوم صحافتك العزيزة فخذ منها ما تعطيك !

وإلى أن يجد العمل ، ما العمل ؟ ..

تبين لى بعد قليل أن المصرف الأكبر بالأمس صالح أن يكون اليوم موردى الأكبر ، إن لم يكن موردى الوحيد ..

هذه الكتب الكثيرة لم لا تباع إلى أن تتجدد القدرة على شرائها ، إن تجددت الحاجة إليها ؟ ..

إنها الآن بالمئات بعد الإقبال على شرائها نحو ثلاث سنوات .. وليس من المنظور أن تباع بثمن الشراء مع الحاجة الملحة إلى البيع السريع . ولكنها تباع بما يكفى لقوت اليوم واليومين والأسبوع .. وقد تكفى خمسة قروش لقوت يوم فى تلك الفترة ، ولا علينا من أجرة البيت وأمثالها من النفقة المتجمعة التى تقبل التأجيل زمنا طويلا أو غير طويل ..

وقد كان موردا نافعا قد يمتد فيسعفنا - مع الدروس الخصوصية - بضعة شهور .. لولا حواء ، وبنات حواء ، جزاهن الله بما هن أهل له من جزاء ..

من سكن الريف عرف خير ما فى بنات حواء من مروءة وصفات ، ولم يخف عليه شر ما فيهن من كيد والتواء ..

من الأمهات المتطوعات للشاب الناشئ المتفرد معيشته في عقر داره ..

من ترى يهيئ له طعامه ؟ من ترى يهتم بتنظيف ثيابه وترتيب أثاثه ؟ ولم لا يتزوج ؟ ومن تراها تنفعه وتلائمه من بنات الجيران ؟ ..

وقد كنت أسكن في حدائق القبة في ضاحية كالقرية الريفية في كل شيء، ومنه – بل أهمه – الأمهات المتطوعات والخطيبات «المزعومات» ..

وكانت لي خطيبة منهن لم أخطبها، ولم أتحدث إليها ولا إلى أحد من أهلها في حديث زواج.. وكانت لها صاحبة لعوب في سن سنها متزوجة من بعض ذوي قرباها، فقالت لي ذات يوم: إن فلانة لا تأتي إلى ناحيتك في هذه الأيام لأن صويحباتها يعاكسنها ويسمينها خطيبة «أبو طويلة» .. ولا تغضب هي من هذه التسمية، بل تقول لهن مزهوة مستخفة، وما له أبو طويلة أليس خيرا من المساخيط ؟ ..

ولم أشأ أن أجيب الفتاة اللعوب جوابا يكسر خاطر الخطيبة التي لم أخطبها، ولم أشأ كذلك أن أجيبها جوابا يربط الخطبة المزعومة ويؤكدها ! .. ولم أزد على أن قلت: شكرا للفتيات العابثات، فقد أحسن والله الاختيار والانتقاء ..

ولو كان في نيتي أن أتزوج أو أخطب لما وجدت في الحي زوجة أجمل من صديقتك الحسناء ..

قالت: كأنك في غير هذا الحي تجد من تخطبه ؟ ..

قلت: ولا في غير هذا الحي .. ولكنني الآن في شاغل عن الزواج .. أفلا ينبغي أن أعول نفسي قبل أن أفكر في زوجة أعولها ؟ ..

وكأنها خطبة قد انعقدت بهذا الحوار، وكأنه حق مكتسب للسؤال عن الحركات والسكنات، وعن المبيت في المسكن وغيابي عنه بعض ليال ..

ولم أفارق المنزل بحملي من الكتب على دفعتين أو ثلاث حتى اعتقدت الخطيبة أنني أنوي الرحيل، وأهم بفسخ الخطبة التي لم تنعقد قط بكلمة تصريح أو تلميح .. وعزز اعتقادها عندها أنني كنت أحمل كتابي للمطالعة إلى حقل من حقول الليمون بجوار جدول في طريق كنيسة، فقيل لها أنه يهتم بفتاة قبطية هناك، وأنه يؤجل مسألة الزواج بها لأنه مشكلة، لا تنحل إلا إذا انحلت بينهما مشكلة الاختلاف في الدين ..

وأين أنتم يا أصحاب المنزل الغافلين عن سكانه وعن زواره وجيرانه ؟ إن ساكنكم الأعزب ليستعد للهرب بالأجرة المتأخرة عليه .. فإن لم تصدقوا فتربصوا له في الطريق وانظروا إليه وهو يحمل كتبه دفعة بعد دفعة ليترك لكم حجرتكم خواء خلاء، لا يعوضكم عن أجرتكم الضائعة إن حجزتم عليه !

وصدق أصحاب المنزل الغافلون، أو المزعوم عنهم بالباطل أنهم غافلون ..

وحيل بيني وبين أول «رصة» من الكتب خرجت بها بعد هذه الوشاية، وكادت أن تكون مشاجرة ريفية من طراز الشجار بالنبوت على الحقوق الضائعة، ولكن الله سلم وألهمني أن أسلم الكتب وأمضي بسلام ..

وفي يومها اقترضت أجرة السفر للعودة إلى أسوان ..

وفي اليوم التالي لوصولي إلى أسوان، أرسلت منها حوالة بريدية إلى صديق لي من أبناء الأقليم يدير محلا مشهورا لبيع الطرابيش وتركيبها ..

وانتهى كيد حواء ليلحق به كيد المقادير التي لا تقع في حسبان ..

فقد كان صاحبنا الطرابيشي ممن اشتركوا في ترويج الطربوش الأبيض احتجاجا على دولة النمسا التي كانت تصدر إلينا الطرابيش الحمراء، لأنها أعلنت ضم بلاد البشناق إليها من أملاك الدولة العثمانية، فقاطعها المصريون واستغنوا برهة عن الطرابيش الحمراء بالطرابيش البيضاء ..

واضطغنها وكلاء المعامل النمسوية في القاهرة، فنصبوا فخاخهم وحبائلهم لجماعة التجار الذين اشتركوا في حركة المقاطعة، ومنهم صديقنا الطرابيشي من إقليم أسوان ..

فلما وصلت الحوالة البريدية إلى القاهرة ضاعت في تيه الحراسة والحجز والتصفية وإجراءات «التسديد» وأمناء الحسابات ..

ومضت سنوات وأنا لا أعلم مصير كتبي في معتقلها المهجور، وإلى أن لقيت الأستاذ عبد العزيز الصدر عرضا فأنبأني أن جيرانه في حدائق القبة عرضوا عليه تلك الكتب فاشتراها، وأنه على استعداد لردها لي بثمنها إذا أردتها، فشكرته وقلت له أنني لا أحتاج إليها، ولكنني قد أستردها بثمنها إذا اتسع لها مكان عندي، ولم يتسع لها – بعد – مكان ..

... بين الأمل واليأس ...

وصلت إلى أسوان كالساهر الذى طوى الليالى وصالا بغير راحة ، ثم ركن بجنبه لحظة واحدة إلى طرف الفراش .

انه فى سهرته يواصل الحركة ولا يبالى متى يرقد ليستريح ولكنه يرقد لحظة واحدة فلا يدرى متى هو قادر على النهوض .

كنت أجور على جسدى ولا أعرف لهذا الجور حدودا يرجع عنها ، لأن تلك الحدود لم تصدمنى قط بصخرة من صخورها ولا بحاجز من حواجزها ..

وكنت أحضر ندوة الزملاء عند ميدان السيدة بالزقازيق . ثم أعبر المدينة فى ليالى الشتاء إلى مسكنى على حافة كفر الصيادين فلا أكترث للمطر ولا للبرد ، ولا ألبس المعطف ولا أحمله تخففا من مؤنة حمله على الذراع ، وهو معلق فى حجرة الدار يعلوه الغبار ..

وكنت أقضى اليوم فى حدائق القبة على وجبة واحدة من الخبز والجبن أو من الخبز والفول ، ولا يخطر لى أن إهمال الغذاء ضرر أذكره لحظة بعد ذهاب الجوع .

وكنت أفتح الكتاب الجديد فيروقنى ما قرأته فيه فلا ألقيه من يدى حتى أفرغ منه آخر الليل ، ولا ضياء فى البيت غير شمعة أو مصباح ذى فتيل .

وكنت أحسب أن سفرتى إلى أسوان ضرورة ألجأتنى إليها قلة المصروف فى القاهرة . فلما وصلت إلى أسوان علمت أنها ضرورة ما فى ذلك جدال .. ولكنها ضرورة الإفلاس فى ذخيرة البنية وأعصابها وليست بضرورة الإفلاس فى ذخيرة الجيب ! ..

وقد وقع فى خلدى أننى أزداد نشاطا فى بلدتى لأنها مصحة للجسم ومصحة للنفس بين الأقرباء والأعزاء ، فعجبت بعد أيام حين رأيتنى أفقد النشاط لأيسر الأعمال ، وكنت أحسبه تيارا متجددا لا يقبل النفاد ..

تجمعت المتاعب دفعة واحدة وبدا لى كأننى مريض بكل داء ، معروف وغير معروف .. ولا مرض هناك غير الركود والاعياء بإجماع الأطباء ، ومنهم النطاحل العالميون الذين يفدون إلى المدينة مشتغلين أو يفدون إليها فى حواشى الأمراء ..

وتملكتنى فكرة الموت العاجل ، فأدهشنى أننى لم أجد فى قرارة وجدانى فزعا من هذه الفكرة ، وكنت أقول لنفسى أننى لا أطلبها ولا أنفر منها .. !

وأخال أن صدمة اليأس كانت أشد على عزيمتى من صدمة المرض ، أو على الأصح ، من صدمة الإعياء

وأشد ما أصابنى من هذا اليأس أنه كان يأسا من جميع الآمال ، ولم يكن يأسا من أمل واحد ..

خلاصة الأمل:

كان يأسا من معنى الحياة ، ومن كل غاية فى الحياة ، لأننى قبل ذلك بشهور عكفت على القراءة فى كتب الفلسفة المادية ، وأكثرت من النظر فى مذهب النشوء والارتقاء ، فلاح لى أنه أصدق من أقوال خصومه المتعصبين الذين تصدوا للرد عليه بين الأوربيين باسم الدين . ولاح لى من النظرة الأولى على غير روية فيه أن يهبط بالإنسان إلى حضيض الحيوان ، ولا يبقى بينه وبين السماء معراجا واحدا يرتقى عليه ..

وكذلك كتبت فى مقدمة كتابى «خلاصة اليومية» .. أن «الإنسان حيوان راق ولكنه حيوان»..

وقصة «الخلاصة» هذه هى قصة الأمل الذى بقى عندى يومئذ فى شهرة الأدب ، وفى عدد الأيام التى أقضيها قبل ظهور هذا الكتاب ، وكنت أظننى مبالغا إذا حسبتها بأكثر من الأيام !

هو الموت إذن كما استقر فى خلدى بلا أثر ولا خبر .. وهو الموت إذن أمضى إليه صفر اليدين من مجد الأدب ومن مجد الدنيا ، ومن كل مجد يبقى بعد ذويه ..

وهل هذا يليق ؟ يا ضيعة أرجاء المجد المتطلع إلى عشاقه وعباده ؟ .. فهل أقل من هدية فى اليد تجبر خاطر العرف على أبواب الأبدية ؟ وهل يقال أنه يجلس على الأبواب فى انتظار زيارة فارغة اليدين ؟

ويجوز أننى كنت أطيق فى تلك الغاشية أن أوفى القربان المطلوب بتصنيف كتاب من وحى الساعة والمناسبة ، ولكننى عدلت عنه لضيق الوقت واشتباه فى تساع الأجل .. ويجوز أننى أحاوله وأستنفد به الفضلة الباقية من مطالب العمر المحدود .. فإذا كان ما تيسر كافيا فذاك ، وإن كان للمجد ضريبة أغلى مما تيسر فله أن يتقاضاها حيث يلقاها .. فلا خير فى وجود بغير الموجود ..

وما تيسر يومئذ هو «خلاصة اليومية» .

يوميات اليأس !

و«اليومية» هذه هى دفتر صغير كنت أقيد فيه الخواطر والتعليقات وأبادر إلى إثبات أبيات الشعر التى نظمتها ولم أتممها قبل أن أنساها ، أو رؤوس الموضوعات التى نظرت فيها ولم أفرغ من دراستها ، أو ملاحظات ونوادر الأحاديث العابرة التى أعودها فى مناسبتها ، وقد اجتمع عندى من هذه اليوميات دفاتر ثلاث سنوات .. فلما وقع فى وهمى أننى سأذهب - بغير أثر ولا خبر - تصفحت هذه الدفاتر ، ونقلت منها صفحات متفرقة تشتمل على جميع نماذجه ، وبعثت بها إلى صديق فى القاهرة أقول له أن هذه الصفحات هى كل ما أتركه إذا تركت الحياة ، فإن وجدنى أهلا للذكر ووجدها أهلا للنشر فتلك كرامة الصديق الراحل على الصديق الباقى ، وإلا فلا حرج عليه أن يهمل نشرها ويسلمها للنسيان يطويها حيث طواها فى زاوية من زواياه ..

وبقيت هذه «الخلاصة» المخطوطة سلاحا من أسلحة الفكاهة والنكاية يشحذه إخوان الذين عرفوا القصة ولم يتورعوا عن استغلالها .. فمنهم من يقول متململا : متى تظهر خلاصة اليومية ؟ لقد طال الأمد على انتظارها .. ومنهم من يقول مستمهلا كلما شكرت أو التمست العلاج : على رسلك بالله .. ! إن المطابع مشغولة فى هذه الأيام .. فاصبر هنيهة حتى تفرغ لطبع خلاصتك وأمثالها .. !

وما برحوا يستعجلوننى ويستمهلوننى حتى أرحتهم وأرحت نفسى بطبع خلاصة اليومية بعد أن أضفت إليها وحذفت منها ، وكان من التوفيقات التى لم أترقبها أنها نفدت فى أقل من ستة شهور ، فلم يبق من ألفى نسخة طبعتها منها غير مائة أو نيف ومائة ، وهو نجاح غريب لكتاب ولدته فكرة بائسة من الحياة ..

الأكاذيب المتفق عليها !

ولقد عاش معى وهم الموت حقبة فى أسوان ، وعاش معى حقبة أخرى فى القاهرة .. بعد أن رجعت إليها فى رقدة الصيف ، ولكننى التفت فلم أجده معى فى شاطئ الإسكندرية يوم ذهبت إليها لأول مرة ، بل وجدتنى مع عرائس البحر وعرائس الشعر فى لجة من لجج الأمل والمغامرة . وبرحت الإسكندرية بعد شهرين لأبحث عن عمل بالقاهرة .. أين ؟ أفى الصحافة ؟ كلا .. فما زالت الصحافة فى مثل محنتها التى عهدتها يوم انتهيت من عملى فيها .. أفى التدريس ؟ .. كلا أيضا .. فإن المدارس قد بدأت عملها ، ولا معرفة لى بأحد من أصحابها .

ولم يطل بحثى هذه المرة ، فإننى وجدت «المأوى» الذى لابد منه فى عمل بين الصحافة والوظيفة ، أو بين خدمة الميرى والخدمة الحرة ، فعملت فى قلم السكرتارية بديوان الأوقاف ..

كان الأستاذ «عبد الرحمن البرقوقى» رحمه الله قد أصدر مجلته «البيان» وكتبت فيها بعض الفصول ، ومنها تلخيص لكتاب «ماكس نوردو» المشهور عن أكاذيب المدنية الحاضرة ..

وكان من دأب الشيخ البرقوقى أن يسأل شيوخ الأدب رأيهم فى مقالات المجلة وأبوابها .. فسأل حافظ عوض ، وسأل مصطفى صادق الرافعى ، وسأل محمد المويلحى صاحب عيسى بن هشام ، فانتقد حافظ عوض عنوان الكتاب كما ترجمته المجلة . وزاد انتقاده فى ثقة الشيخ بكاتب هذه السطور ، لأننى ترجمت عنوان الكتاب «بالأكاذيب المتفق عليها» واقترح الشيخ البرقوقى أن «نسجعه» ليوافق أسماء الكتب فجعلناه «الأكاذيب المقررة فى المدنية

الحاضرة» .. فلما جاءه النقد من بعيد - وهو على عادته سريع التصديق - قال لى أنه لن يرفض رأيى مطاوعة لرأى السجعة بعد الآن ..

وسأل مصطفى صادق الرافعى فزاده انتقاده ثقة بى كذلك ، لأنه قال لى أنه يسمع حكمه فى البيان العربى ويرفضه فيما عداه ولا سيما كتابه «الفكر ومباحث العصر الحديث» ، وقد أنحى الرافعى على «نوردو» وعلى كاتب هذه السطور . فحسنت هذه الشهادة المعكوسة عند الشيخ ..

ولقى صاحبنا المويلحى فسأله عنى قائلا :

- بماذا يشتغل هذا الشاب ؟

قال الشيخ : بلا شئ!

قال : أتراه يعيش على شئ من ميراث جده العقاد ؟

فأفهمه الشيخ أننى لا انتمى إلى «السيد حسن موسى العقاد» المشهور ، وأنه لا قرابة بينى وبين ذلك البيت ، وأننى أعيش بالقليل مما يردنى من أهلى ، وبالقليل من أجور المقالات أو فصول الكتب المترجمة .. فقال المويلحى مبتسما : أنه أوصى بالوظيفة من أكثر «التنابلة» التى عندنا فى هذا الديوان» فطلبتها . فأجيب طلبى لساعته بغير امتحان ..

وقد كان ديوان الأوقاف فى تلك الحقبة مجمع الأدباء والشعراء من شيوخ وشبان . كان فيه محمد المويلحى ، وأحمد الأزهرى صاحب مجلة الأزهر ، وأحمد الكاشف ، وعبد الحليم المصرى ، وعبد العزيز البشرى ، وحسين الجمل ، وحسن الدرس ، وعلى شوقى ، ومحمود عماد ، ومصطفى الماحى ، وغيرهم من «المحررين» المغمورين .. وكان عملى الأول فيه مساعدا لكاتب المجلس الأعلى بقلم السكرتارية ، وهى وظيفة من أخطر وظائف الديوان فى ذلك الحين .

سمسرة الخديو:

وكانت من قسمة واحدة تلقانى على صور متعددة فى جهات مختلفة .. فكلما اشتغلت بعمل من الأعمال وجدته فى أبان أزمة من أزماته أو مرحلة من مراحل

الاضطراب فى تاريخه ، وأول هذه الأعمال عملى فى وظائف الحكومة بإقليمى قنا والشرقية .

ففى هذين الإقليمين بدأت أول حركة من حركات الشكاية الاجتماعية بين الموظفين بعد الاحتلال ، ولم تزل قائمة حتى انتهت بزيادة الحد الأدنى لمرتبات الوظائف إلى خمسة جنيهات والشروع فى تعديل نظام العلاوات وقانون المعاشات

واشتغلت بالتحرير الصحفى يوم كانت الصحافة المصرية فى أحرج أوقاتها بعد قيام الأحزاب وقبل إعادة قانون المطبوعات ..

ثم هأنذا اشتغل بديوان الأوقاف ، وهو ميدان المعركة الحمية بين السلطة الشرعية والسلطة الفعلية وطلاب الإصلاح . ولست بآسف على هذه القسمة التى تسوقنى إلى الأعمال فى أبان أزماتها ومراحل اضطرابها ، فقد كانت نافعة لتمرين النفسية من فترات الهدوء والاستقرار .. وكان عملى فى ديوان الأوقاف بين سنتى ١٩١٢ و ١٩١٤ أكثر من عملى فى وظيفة من وظائف الارتزاق . فقد كنت أجهل الكثير من حقائق بلدى ومن أسرار شئونه العامة لو لم أقض تلك السنتين فى ذلك الديوان ..

كانت يد الخديو مطلقة فى وظائفه وأمواله .. وكان من الأسف الشديد يتكرر إشباع نهمه من المال والدسيسة ، ولا يأبى أن يسف إلى الاختلاس من أموال الصدقات واستباحة السمسرة على صفقات الاستبدال .. وقد عت فى تلك الأيام قصة أرض المطاعنة التى أخذ فيها الخديو لنفسه ستين ألف جنيه باسم العمولة أو الوساطة» وعدد بعدها فتعقب كل من عارضوه ووقفوا له فى طريقه من الموظفين النزهاء ، فعاقبهم على الأمانة واليقظة بالفصل والإهمال . وكان المحتلون يحاربون الخديو على تقليد النزاع بين السلطتين ، ويأبون عليه أن يستأثر بهذه الحكومة الصغيرة فى داخل الحكومة الكبيرة . ويعلمون أنهم لا يستطيعون المساس بالمعاهد الدينية فيرجعون سرا إلى الآستانة لحس النبض فى دار الخلافة والتماس الفتوى من شيخ الإسلام بجوار الرقابة الرسمية على نظار الأوقاف ، وعلى ناظرهم الكبير وهو أمير البلاد ..

وكان طلاب الإصلاح يهتمون بأمر واحد ، وهو القضاء على المفاسد فى ديوان يرتبط به نظام المعاهد الدينية أشد الارتباط .. فلا أمل فى إصلاح هذه المعاهد ، ولا فى إصلاح القضاء الشرعى معها ، ولا فى إصلاح الأزهر بفروعه ما لم تكن إدارة الأوقاف خاضعة للرقابة الفنية خارجة من تلك العزلة التى جعلتها أشبه شىء بضيعة من ضياع الخاصة الخديوية ، مع الفارق بين ضيعة يغار عليها مالكها وضيعة ييسها من يملك الأمر فيها ..

مقالات بلا توقيع :

وبين هذا المضطرب عملت فى الديوان .. والقلم الذى عملت فيه هو حومة المعركة فى ميدانها ، لأنه القلم الذى تمر به مذكرات مجلس الإدارة ومذكرات المجلس الأعلى ، وهذه هى المذكرات التى تعرض فيها مسائل الموظفين وقضايا الصفقات ..

والسنة التى عملت فيها بالديوان هى السنة التى انتهت بتحويله من ديوان إلى نظارة ، وصدور الأمر بعرض ميزانيته على مجلس النظارة والجمعية التشريعية ..

ولقد كانت فضائح الأوقاف سرا مباحا لكل من يميل إليه بأذنيه .. فليس فيها من باب أولى سر يخفى على موظف فى قلم السكرتارية يتصل كل يوم بموظفى الديوان ممن يشتغلون بمسائل المذكرات التى تعرض على مجلس الإدارة أو المجلس الأعلى ..

وقد هالنى ما علمت من فضائح الديوان بعد فترة وجيزة ، وإن كنت لا أجهل قبل ذلك أنها شىء يهول ..

وكنت أتكلم ولا أتحفظ ..

وربما كتبت إلى الصحف بعض المقترحات لإصلاح الديوان بغير توقيع ، وربما تحدثت بها فى المجالس التى أختلف إليها ، وكلها فى بيئات الأدباء المدرسين بمدارس العباسية الأهلية حيث كنت أقيم ..

وكان الأستاذ حسين روحى الإيرانى صاحب إحدى المدارس الكبيرة فى العباسية البحرية ، وكان يعمل فى ساعات من اليوم بالترجمة فى دار الوكالة البريطانية . فجاءنى عصارى ذات يوم يقول معتذرا :

– أرجو أن تغتفر لى غلطة وقعت فيها بغير إذنك ! ..

قلت : خيرا .. فما أظن أننى عرضة منك لغلطة تضير ..

قال : إنهم سألونى اليوم عن مقترحاتك فى الصحف وأنا أترجمها لهم فقلت أننى أعرف كاتبها . وذكرت لهم أننى أراك فى كثير من الأيام .. فهل يغضبك ما فعلت ؟

قلت : إننى كما تعلم كنت مستعدا أن أكتب فى الصحف بتوقيعى لو كنت أستطيع ذلك مرتين دون أن يبادرونى بالفصل من الوظيفة . فلا لوم عليك ولا حرج على

قال : ليس هذا كل ما فى المسألة .. فإن السكرتير الشرقى يريد أن يقابلك فهل لديك مانع ؟

قلت : لا مانع لدى مما المانع لدى ..

قالوا : لا يرى صغير :

وبعد يومين لقيت مستر ستورز مع الأستاذ حسين روحى ، فاستهل الحديث بالكلام على الأدب وعلى برنارد شو .. ثم استطرد إلى الكلام على الصحافة وأكثر من الكلام على صحيفة «المؤيد» وقرائها ومحرريها ، ثم مضى مستطردا إلى الكلام على الأوقاف فسألنى عن صفقة منوية على أرض يملكها عين مشهور من أعيان القليوبية ، وعجبت لعلمه بخبرها وهى لا تزال فى دور التحضير الأول ولم تصل مذكرة من مذكراتها إلى قلم السكرتارية ..

ثم بدرت منه كلمة جافية لا أدرى كيف جرى بها لسانه ، إلا أن يكون قد تعود الجد بمثلها ولم يتعود من أحد أن ينكرها عليه ، فقال : ألا ترى أن حرمان الأوقاف من الرقابة الأجنبية هى علة هذه المفاسد التى شاعت فيه ..؟!

فصدمتني هذه الكلمات النابية ، ولم ألبث أن أجبتها بحدة ظاهرة . فقلت : إن المجلس البلدي الإسكندري يتمتع برقابة أجنبية من كل جنس وملة ، ولا أظنكم تحسبونه مثلا من أمثلة النزاهة والنظام ..

فتنبه وسكت ، ثم استأنف الحديث ليختمه بعبارة صالحة للختام ، واستأذن هنيهة ثم عاد قائلا : إن اللورد - يعني كتشنر - كان يسره أن يراك لولا أنه يخرج الساعة إلى موعد سريع ..

فنهضت وودعت ، وصادفني اللورد على باب المكتب فأومأ بالتحية ومضى في طريقه ، وجاءني الأستاذ حسين روحي في المساء يقول ويضحك : ماذا صنعت يا أخانا .. إن الرجل أجفل من جوابك الصارم ولكنه قال : إن حديثك كان شائقا جدا ..

* * *

وأراد الأستاذ روحي أن يصرف الموضوع ، فقال إن مسألة المؤيد كانت عندهم أهم من مسألة الأوقاف وصرح لي بأنهم كانوا يودون لو توليت تحريره ، وكانوا يظنونك أكبر سنا من عشرة العشرين ولكنهم حسبوا عليك جريرة الشباب وقالوا : إنه لا يزال صغيرا .

وهكذا عدنا إلى حديث الصحافة من طريق ديوان الأوقاف . وهكذا سنعود إليه بعد قليل..

... بين الوظيفة والصحافة ...

معركة الأوقاف

عملت في ديوان الأوقاف .. وكان عملي في مكاتب السكرتارية أقرب المكاتب إلى دخائل الديوان ، ولكنني أعترف اليوم بأن ما علمته في أيام خدمتي بالديوان من خفايا المعركة التي دارت حوله لم يكن غير الفقاقيع التي تطفو على وجه الماء ..

كانت معركة حامية تدور وقائعها بين القاهرة ولندن والآستانة ، وتشترك فيها حاشية الخديو ودار الوكالة البريطانية وحزب الأمير حليم وأعوانه من رجال تركيا الفتاة ، وأناس متفرقون في القاهرة من طلاب الإصلاح .

وكان الخديو يستميت في التثبت بموارد الديوان ولا يقبل بحال من الأحوال أن تسحب ميزانيته من ميزانية الدولة ، وحجته في ذلك أنه صاحب الولاية على الأوقاف بحكم الشرع وبنصوص الواقفين في كثير من الأحوال ..

وكان المحتلون يحاربون السيطرة الخديوية على الأوقاف كما يحاربونها في كل جهة أخرى .. ويريدون في حربهم لهذه السيطرة في ديوان الأوقاف - بصفة خاصة - أن يحولوا بين الخديو وبين استخدام أموال الأوقاف في حماية سلطانه ونشر دعوته ، سواء كانت مما يخصه ويخص العرش ، أو كانت مما يعم الحركة الوطنية لمقاومة الاحتلال ..

وكان طلاب الإصلاح في حرج شديد لأنهم يريدون أن يقطعوا دابر الفساد في الديوان وما يتصل به من المعاهد الدينية ، ولكنهم يكرهون أن يتوسلوا إلى ذلك بمعونة المحتلين ..

ثم حدثت في السنة الأخيرة التي عملت فيها بالديوان حوادث مختلفة بين القاهرة والآستانة غيرت وجوه المسألة ، ويسرت ما لم يكن ميسورا قبل ذلك بسنة واحدة ..

الخديو بين نارين:

نشأت الجمعية التشريعية بمصر فوجد طلاب الإصلاح منبرا «قوميا» ينادون من فوقه بوجوب الإشراف على ميزانية الدولة كلها ، ومنها ميزانية الأوقاف ..

وتولى الحكم في الآستانة أناس يكرهون الخديو لأنهم أصدقاء أسرة حليم المنافسة لأسرة إسماعيل ، لأنهم يذكرون للخديو مصادرته لجماعة تركيا الفتاة تمهيدا للمطالبة بجزيرة «طشيوز» التي كانت في حوزة محمد علي الكبير ، ثم استولى عليها السلطان عبد الحميد الثاني مدعيا أنها كانت هبة شخصية لرأس الأسرة ، ولم تكن من أملاكه التي تنتقل بالميراث ..

واستطاع المحتلون في ذلك العهد أن يكسبوا لهم عضدا في دار الخلافة ، وأن يحصلوا على وعد من أقطاب الحكومة التركية بمساعدتهم على تقييد سيطرة الخديو في الديوان ولو اقتضى الأمر خلعه وإسناد الإمارة إلى أمير في بيت حليم ..

وتم أخيرا تحويل الأوقاف من ديوان إلى نظارة أو وزارة ، وكان اسم الوزارات يومئذ - وهو النظارات - مما يسوغ إدماج الأوقاف في عدادها ، لاشتهار الإشراف على الوقف باسم النظارة ..

أول وزير:

واختير للنظارة رجل من أنصار الخديو ترضية له وتغطية لخذلانه ، فكان ناظرها الأول في عهدها الجديد «أحمد حشمت باشا» رحمه الله .. وقد كان قبل دخوله الوزارة وكيلا لحزب القصر بين الأحزاب الثلاثة ، وهو حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ..

وبعد أيام قليلة من قيام الوزير بعمله في الوزارة ، جاءتني بطاقة صغيرة من بطاقات الدعوة إلى مكتبه ، محدد فيها للمقابلة ساعة قبيل الظهر من ذلك النهار .

وكدت أجزم بالباعث إلى دعوتي لمقابلة الوزير ، وأنا موظف في أصغر درجات الوظائف في سلك الخدمة في الديوان .

وماذا يكون الباعث إلا أنني من المشهورين بإدارة الديوان ، وأنني ممن تتجه المظنة إليهم في الكتابة عنه بالصحف والعلم بأسراره من المذكرات وكتابة المذكرات ؟

ليس فيها قولان كما هو ظاهر ..

ولكنه في الواقع كان تخمينا نادرا يدل على وجوب التردد في قبول التخمينات مهما تبلغ من الرجاحة والقوة ، فإن الوزير لم يتعرض لمسلكي في قضية الديوان بغير التلميح من بعيد .. وإنما خصني في أمر مقالة من مقالاتي نشرتها في الصحف وذيلتها بتوقيعي الصريح .. وهي مقالة كتبتها تأبينا للشيخ علي يوسف صاحب المؤيد رحمه الله ، ونشرتها صحيفة «عكاظ» الأسبوعية التي كنا نخصها برسائلنا النقدية أنا ، والمازني ، وشكري ، وبعض الزملاء ..

ومن أضاحيك المصادفة أن الوزير كان صديقا للشيخ علي يوسف ، وكان وكيلا لحزبه وخصما لكثير من خصومه .. وكان من أشياعه القليلين الذين مشوا في جنازته وأشرت إليهم في بعض ما ذكرته عن وفاء المشيعين له بعد الوفاة .

من فصول الشيطنة:

وكان الشيخ علي يوسف قد ترك «المؤيد» وهجر الحياة العامة ، واصطلحت عليه العلل والنكبات .. وقضى نحبه غير مذكور من أقرب المقربين إليه ، فلم يسر في جنازته منهم غير آحاد معدودين .. بينهم وزير الأوقاف ..

وقلت في تأبينه أن الرجل كان «نفاعا ضرارا» ولكنه كان ينفع ويضر لتمكين نفوذه واستصلاح الأعوان في مشكلاته وقضاياه .. فمن وصلت إليه يد من أياديه لم يكافئه عليها بالمحبة وخلوص النية ، ولكنه يحس أنه مدين مطالب بدين يوفيه في يوم من الأيام .. فلا جرم يشيعونه غير محزونين ويمضون في جنازته متحدثين متشاغلين ، لأنهم في حالة نفسية أشبه بحالة المدين الذي أعفاه موت الدائن من الوفاء له بما عليه ..

خاطبني الوزير بلهجة هادئة كأنها لهجة الأستاذ الذي يلوم تلميذه على فصل من فصول الشيطنة لا يبلغ عنده مبلغ السخط الشديد ولا يخلو من بعض

الرضى ، فقال بعد الإشارة إلى مقال التأبين «كان أحرى بقلمك الناشئ أن يتخذ له في تأبين الموتى منهجا أطيب من هذا المنهج .

وكان عليك ألا تنسى : في هذا المقام قوله عليه الصلاة والسلام :

«اذكروا محاسن موتاكم ..»

فاجتهدت أن يكون جوابي في لهجة تواثم لهجة الوزير ، وقلت ما معناه «إنني لو علمت للشيخ حسنات غير التي ذكرتها لما فاتني أن أذكرها ..».

فاقتضب الحديث ، مصطنعا الجد ، وقال :

«على كل حال ، اجعل قلمك مستقبلا كمستقبل الشيخ إن استطعت ، واستخدمه في عملك ، ودع عنك فضول الأقاويل والأحاديث» .

شبح المؤيد:

المؤيد .. المؤيد .. مؤيد ..

المؤيد .. المؤيد .. مؤيد ..

ما هذا المؤيد الذي يلوح لي أنني ألقى شبحا منه أينما ذهبت هذه الأيام ، حيث أريد وحيث لا أريد ..

قبل أسابيع – على ما أذكر– جاءتني تذكرة مطبوعة كتذاكر الدعوة إلى المحافل والمجتمعات يقول كاتبها «سيد كامل» إنه يتصدى لتحرير المؤيد ويود لو يستعين بالأقلام الفتية في تجديد حياة «شيخ الصحافة» .. أو كلاما من هذا القبيل ..

فمن يكون «سيد كامل» هذا ؟

إنني لم أكن أعلم عنه شيئا ، وأشفقت أن يكون مرشحا للقيام على تحرير المؤيد من قبل الإنجليز .. لأنني تبينت من حديثي مع مستر «ستورز» أنهم يهتمون بهذه الصحيفة ويودون لو يبعثونها بإشرافهم وتحت رعايتهم ، وقال لي الأستاذ حسين روحي أنهم كانوا يظنون أنني «أصلح» لهذه المهمة ولكنني خيبت رجاءهم ..

مـــولاه:

فهل «سيد كامل» هذا ممن حققوا عندهم هذا الرجاء ، فاختاروه لتوجيه هذه الصحيفة ، ولو من بعيد ؟

خطر لي هذا الخاطر لأول وهلة ، ولم يفارقني حتى علمت المزيد من تاريخ «الدكتور سيد كامل» فعلمت أنه أفضل وأصدق في الوطنية وفي الولاء لمولاه من أن يصلح لتلك المهمة من بعيد أو قريب .. وقد كان مولاه الذي تولى تعليمه في فرنسا على حسابه بتوصية من صاحب المؤيد هو الخديو عباس الثاني ، وهو الذي رشحه للقيام على تحرير المؤيد بعد اعتزال الشيخ علي يوسف لعمله في الصحافة ، عسى أن يحتفظ بأمانة التراث الموكول إليه من ولي نعمته ومن أستاذه الموصى عليه ..

وما هو ذا وزير جديد يفتتح خطابه الأول بحديث عن المؤيد وصاحبه وأصحابه ، فما هو شأن المؤيد معنا أو ما هو شأننا مع المؤيد ؟ أهو لحظ الغيب يرانا على مقربة من تلك الصحيفة من حيث لا نراه ؟ ..

يحق لي – لو أردت – أن أصدق هذه الهواتف الغيبية ، فإنها لم تنته عند هذه النهاية ، ولم تزل تلاحقني بخير من هنا وإشارة من هناك حتى عادت بي إلى العمل الصحفي محررا بالمؤيد ..وكان السبب المباشر لعودتي إليه قصيدة نشرها المؤيد .. ونظمها شاعر من شعراء السكرتيرية بنظارة الأوقاف .. وهو المرحوم عبد الحليم المصري الذي كان يتطلع إلى مكان «شوقي» في قصر الخديو ، ووصل إليه ولكن بعد زوال الخديوية ..

فضيحـة الأدب:

نظم عبد الحليم قصيدة من أحسن قصائده عن «الخصيب» أمير مصر في أيام الدولة العباسية ، وقال فيها عن شاعر النيل :

وشاعر النيل دون الخلق يشربه — بينا يشق الصدى منا الحشاشات

وما كان يعني في الحقيقة غير الخديو عباس وشاعره أحمد شوقي ، وما كان بالقارئ من حاجة إلى البراعة لفهم هذه المواربة المكشوفة .. فقد فهم كل

قراء المؤيد من الأدباء ، ولم يخف مقصدها على أحد غير محرر المؤيد الأول في تلك الآونة : أحمد حافظ عوض الذي ترك منصبه في قصر عابدين ليشرف على تحرير هذه الصحيفة في أدق مرحلة من مراحلها ، وخاتمتها ..

أولا : لم تنشر تلك القصيدة عن الخديو وشاعره إلا في المؤيد دون غيره من الصحف اليومية والأسبوعية ؟

فضيحة من فضائح الأدب والصحافة لم يتم لها حافظ ، ولم يتم لها شوقي ، ولم تتم لها نظارة الأوقاف ، وأولهم ناظرها في ذلك الحين - محمد محب باشا - وقد كان متهما في الحاشية الخديوية بمحاباة الإنجليز ..

وحضر «حافظ عوض» ذات يوم إلى ديوان الوزارة ، ولقيته في مكتب الوزير ولا أدري على التحقيق هل دعاني أحد من المكتب للقائه ، أو ذهبت إلى المكتب بغير دعوة من أحد لسبب من أسباب العمل في مذكرات المجلسين : مجلس الإدارة ، والمجلس الأعلى

ولكنني لقيت حافظا يبادرني بالسؤال والسلام يقول لي مازحا : ماذا تصنع هنا ؟ إن مكتبك مستعد بدار المؤيد ، وإن قلمك الذي خلقت له أن تكتب المقالات لا أن تلخص المحاضر والمذكرات .

ثم قال : إن صفحة الأدب في المؤيد تحتاج إلى أديب يتفرغ لها ، ولا ينظر في عمل من أعمال الصحيفة غير كتابتها أو الإشراف على ما يكتب فيها ..

قال : ولو أن وقتي كان يتسع للتفرغ لهذه الصفحة لما استغفلني هذا «الولد» ودس علينا تلك القصيدة المسموعة التي جعلتنا سخرية المجالس الأدبية .

ولم أتردد في قبول الدعوة إلى تحرير الصفحة الأدبية في شيخ الصحافة العربية ، فإنني لم أكن أطمع في الرابعة والعشرين إلى عمل أهم من هذا العمل في الصحافة .. فإن كانت لدي بقية من الرغبة في صناعة القلم من طريق الصحف فلا انتظار إذن لما هو أولى بالقبول من هذه الدعوة بعد أن جاءتني بغير عناء وبغير طلب .. ولا محل للتردد إلا أن يكون عملي في نظارة الأوقاف أحب إلي وأجدى علي من العمل في الصحافة ، ولم يكن عملي في النظارة مرضيا لي في حياتي الأدبية ولا في حياتي المعيشية ، فعلام التردد ؟ وفيم البقاء؟..

العودة إلى الصحافة :

وامتلأ مكتبي «الخالي» بدار المؤيد قبل أن ينقضي الأسبوع .. ولم يمض أيام حتى عاودني الطالع القديم : ذلك الطالع الذي تحدثت عنه في مذكرة سابقة من هذه المذكرات .. لا أدخل عملا إلا وجدته في مرحلة من أدق مراحل تاريخه ، منذ عملت في الوظائف الحكومية ، إلى أن عملت في الصحافة ، وإلى أن عملت في ديوان الأوقاف ، إلى أن عاودت العمل في الصحافة كرة أخرى ! .

ولا أطيل في شرح تلك المرحلة من حياة المؤيد ، فقد يغني القارئ عن شرحها أنها وافقت الشهور الأخيرة من تاريخ الخديوية المصرية قبل الحرب العالمية الأولى وأنني لم أمكث في المؤيد شهرا أو شهرين حتى ماجت الدار بالحركة التي شغلت رئيس التحرير عن الدار وعن صفحتها الأدبية وصفحاتها الأخرى ، وتركتني فيها بين دسائس القصر ودسائس الصحيفة التي لزمها من مخلفاتها التقليدية .

كان الخديو يعلم أن لورد كتشنر يصر على خلعه ويرشح للخديوية أميرا من أمراء بيت حليم ، وكان يعلم أن كتشنر لن يغلبه بقوة غير قوة الخلافة في الآستانة وقوة الرأي العام في مصر ، وفي طليعتها قوة المعارضة من قبل الجمعية التشريعية .

فأما قوة الخلافة في الآستانة فقد احتاط لها الخديو بسفره في تلك السنة إلى الآستانة ، وعدل عن زيارة المصائف الأوربية كعادته في السنوات الخالية ، ليبقى إلى جوار الخليفة متأهبا لإحباط المؤامرة عليه .

الخديو يزور سعد زغلول :

وأما قوة الرأي فقد احتاط لها برحلة شعبية في الوجه البحري تعمد فيها زيارة الأعيان في قصورهم وزيارة الفلاحين بين أكواخهم واستقبال الشعب حول سرادقات الاحتفال حيثما نزل بقرية من قراهم ، غير ممنوع منها أحد من الكبار أو الصغار ولا من الرجال أو النساء ، ولج به الحرص على إبراز صداقته للمعارضين في الجمعية التشريعية ، فجعل أسماءهم في الصف الأول بين أسماء الأعيان الذين تقع قراهم على خط الرحلة ، ودعاهم إلى مصاحبته في غير قراهم ، وأولهم سعد زغلول

ولم يشأ الخديو أن يؤتمن على مراسلة «المؤيد» بأخبار الرحلة أحد أقل من رئيس تحريره فأخذ حافظ عوض في ركابه، وجاء حافظ إلى مكتبي قبل سفره يمهد للطلب الذي يريده مني: وهو تنقيح أخبار المراسلين بالصبغة الأدبية وانتظار الرسائل منه لمراجعتها قبل إثباتها في الصحيفة بالصيغة الأخيرة، وهي الصيغة التي ستظهر بها في الكتاب الذهبي. وكرر كلامه عن الرحلة وعن الصيغة التي ستظهر بها بعد ذلك في سجل شبيه بالسجلات الرسمية. وانصرف وهو يقول:

— إنه عمل أدبي خالد على أية حال، وأنه يستحق أن أؤجل من أجله صفحة الأدب إلى حين.

الكتاب الذهبي:

وانهالت الرسائل كالمطر المنهمر من المرسلين وأعيان الأقاليم وكل من قال له الخديو كلمة أو قال كلمة للخديو، وضاق الوقت عن ملاحقتها بالقراءة والترتيب فضلا عن التنقيح والتصحيح، ثم مضى الكتاب قبل أن تنفتح صفحة من صفحاته، ولا يزال منطويا إلى الآن.

مشترك من مشتركيه الموعودين ضل طريقه إلى حجرتي بدلا من حجرة المحرر الذي كان منوطا بتسلم الرسائل وتسليمها إلي بقائمة مكتوبة لإيداعها في ملفاتها إلى حين الفراغ من تدوينها. فعلمت من خلال كلام المشترك الموعود أنه أعطى المحرر المنوط بتسلم الرسائل عشرة جنيهات باسمي، وأنه حضر في ذلك اليوم ومعه شيء زهيد على سبيل الهدية: ساعة بسلسلة ذهبية.. ولي بعدها هدية على «قد المقام» بعد طبع الكتاب.

وتركت «الملفات» في أماكنها ريثما يعود رئيس التحرير من الرحلة، وعاد رئيس التحرير فاستعفيته من العمل في الكتاب وأبلغته ما سمعت، وقلت له أن محرري «المؤيد» أحرار فيما يأخذونه ويعطونه، ولكنهم لا يملكون أن يزجوا باسمي في معاملاتهم ومبايعاتهم، ويحق لي إذا فعلوا ذلك أن أصحح ظنون الناس، وسأترك له — أي رئيس التحرير — أن يختار طريقته لتصحيح هذه الظنون..

فتجهم رئيس التحرير وتوعد المحرر المسؤول بالويل والثبور، ووعدني أن يكتب غدا في المؤيد كلمة تزيل اللبس وتبعد الشبهة عني في أمر الكتاب ورسائله واشتراكاته، ورجاني أن أغض النظر عن المسألة ولا أنقطع عن العمل في الكتاب.

ويعلم أصحاب الأستاذ حافظ رحمه الله أنه كانت له مواطن ضعف في تصرفاته ومقابلاته، ومنها أنه يتشبه بالأمير في مناورات الرضا والغضب والتقريب والإقصاء، وأنه يجعل من زمرة عمله بلاطا صغيرا تكثر فيه مناوبات التشجيع والإعراض ولمحات الابتسام والعبوس، وقد شهدنا في مساء ذلك اليوم تمثيلية وجيزة من هذه التمثيليات، كانت هي فصلها الأخير!

آخر عهدي بالصحافة:

في مساء ذلك اليوم زارني الأستاذ المازني والأستاذ محمود سعيد الذي أصبح بعد ذلك مستشارا في المحاكم الأهلية، ونزلنا إلى باب الدار ننتظر مركبة خالية تمر بنا لنستقلها إلى ندوتنا المعهودة عند دار القضاء «في الوقت الحاضر».. ولم نكد ننادي المركبة العابرة حتى مر بنا الأستاذ حافظ يحيينا بيمناه ويضع يسراه في إبط المحرر «المتهم» وهو مقبل عليه بالضحك والحديث، ثم صدر المؤيد في اليوم التالي وليس فيه كلمة عن الاشتراكات ولا عن تصحيح الظنون.

وكان هذا آخر عهدي بالمؤيد وآخر عهدي بالصحافة قبل الحرب العالمية الأولى، لأنها نشبت قبل نهاية الصيف!

يجـــوز..

أغلب الظن عندي أن قصة خروجي من نظارة الأوقاف ثم من صحيفة المؤيد كانت «قضاء وقدرا» كما يقولون في لغة التحقيقات القانونية.

أما العارفون بتحقيقات الحواشي الملكية فقد كان لهم رأي آخر في القصة بحذافيرها. وكان من رأيهم أن الخطة وضعت يومئذ في القصر لفصل كل

موظف بالأوقاف عرفت عنه المعارضة في نظام الديوان ، لا فرق بين أكبر الموظفين وأصغر الموظفين ! .

وكان أكبر المعارضين من الموظفين لصفقات السمسرة والاستبدال عبدالرحمن فهمي «بك» وكيل النظارة ، فخرج محالا إلى المعاش .

وكنت أنا أصغر المعارضين من الموظفين ولا حيلة لهم في فصلي بالإحالة إلى المعاش، فليكن فصلي «بصنارة» الصحافة ، ثم بمائة سبب ميسور بعد الوصول إلى البر.. غير الأمين !

و«يجوز» هي كل ما أقوله في التعقيب على هذه الفكرة القريبة البعيدة ، ولولا أنني استقلت من النظارة ورفضت استدعائي قبل ذلك ، لرجحت التعبير بفعل فاعل من القناعة «بالقضاء والقدر» في تعبير العارفين بالحرشي المالكية !

... في الحرب العالمية الأولى ...

ساعات بين الكتب:

أقمت في القاهرة أياما بعد استقالتي عن تحرير «المؤيد» على نية السفر إلى الصعيد الأعلى ، وقد منيت نفسي موسما كاملا من المواسم الجميلة في مدينة الشتاء ، ورسمت برنامجي لذلك الموسم الموعود بين المطالعة والتأليف والرياضة والبحث عن التاريخ الطبيعي ومضامين الآثار في أسوان ، وهي غنية بالمضامين المعلومة والمجهولة ، من أيام الفراعنة إلى أيام المماليك إلى أيام الدولة العثمانية ..

وأعددت العدة للكتاب الذي نويت تأليفه باسم «ساعات بين الكتب» وجعلت عنوانه دليلا على موضوعه أو موضوعاته ، فهو كتاب أسطر فيه خلاصة ما قرأت وزبدة التعليقات التي وقعت في خاطري واطلعت عليها أثناء القراءة ، أو هو كتاب عن الكتب أردت به أن أصل بين عالم الكتب وعالم الحياة وبين آراء المؤلفين وآراء القراء ، كما تبدو لي من النظر والمراجعة والأحاديث .

وكان الموسم خصبا حقا بثمرات التأليف ، لأنني انتهيت من كتاب «ساعات بين الكتب» في نحو خمسمائة صفحة ، وأودعته ثمرة الاطلاع والتأمل في أهم مذاهب الفكر الحديث ، وأولها مذهب داروين ومذهب نيتشه في السوبرمان .. وهذا الكتاب غير الكتاب الذي ظهر بعد ذلك باسمه وأعيد طبعه مرات ، لأن «ساعات بين الكتب» التي كتبتها في أسوان ضاعت مرتين ولم يبق منها غير خمسين أو ستين صفحة .

الإنسان الثاني:

وفرغت من كتاب غير الساعات عن المرأة ، سميته «الإنسان الثاني» ولم يبق منه كذلك غير صفحات

وأتممت رسالتى «مجمع الأحياء» تلخيصا للآراء فى فلسفة النشوء وفلسفة القوة وفلسفة الفطرة التى تهذبها الرياضة النفسية والاجتماعية .. وهى الكتاب الوحيد الذى تم ونشرته تاما بعد تأليفه بفترة وجيزة ..

ونظمت فى هذا الموسم الأسوانى أكثر من نصف قصائد الجزء الأول من الديوان ، ومنها قصيدة دالية مطولة نبذتها بعد ذلك لأنها تعبر عن دفعة من دفعات الفكر لم يبق لها فى نفسى سند سليم ولا مسوغ مقبول ..

أما الكتابة الصحفية ، فقد ذهبت إلى أسوان وأنا أحسبنى فى إجازة منها إلى موعد غير مسمى .. ويخيل إلى أنها ستكون أقل الشواغل شغلا لى حتى فى الاطلاع عليها والعناية بأخبارها ، فإن عاودنى الحنين إليها فلتكن عودتى إليها بقصيدة من الشعر ، أو مقالة فى حكم القصيدة الشعرية ، توحى بها لمحة من لمحات الخاطر أو عارض من عوارض الشعور ..

وتقدرون فتضحك الأقدار ..

وقدرت أن الكتابة الصحفية لن تشغلنى قارئا ولا كاتبا خلال مقامى فى أسوان ، إلا أنها تسلية من قبيل تزجية الفراغ ، فإذا بمقالة واحدة كتبتها - من هذا القبيل - تشغلنى أضعاف شغلى بمقالات الصحف ... فى أيام القلاقل والقضايا والأزمات ، مع أنها قرئت مخطوطة قبل أن تقرأ مطبوعة، ولم تزد نسخها المتداولة أولا على عدد أصابع اليدين ..

تلك هى مقالة «نادى العجول» ، كدت أذهب من جرائها إلى جزيرة مالطة وأنا أحوج إلى المقام بأسوان أو فى جو القطر من المشتى إلى المصيف

«شهوة» و«شبهة»!

أدركتنى الحرب العالمية الأولى وأنا فى أسوان ، وأحس ... الأحكام العرفية فى هذا البلد النائى على طرف الصعيد الأعلى ... أن يحسوا بها فى سائر البلاد المصرية، لأن أسوان على ملتقى الطريق بين مصر والسودان وملتقى الطريق بين النيل والبحر الأحمر من جانب الصحراء ، ومرجع الأحكام العرفية فيها إلى رئيس إقليمى بعيد من الرقابة مطلق التصرف فى الأوقات التى تشغل الحكومة المركزية عن تفصيلات الشئون الإدارية فى

الأقاليم .. وقد كانت شهوة الطغيان والحجر على الحريات قد ملكت نفوس الحاكمين وأذنابهم من المسلطين على الرقاب تحت حمايتهم ، بعد اشتداد الحركة الوطنية وتتابع القوانين والأوامر المقيدة لحرية المحكومين ، فلما تقررت الأحكام العرفية بكل قسوتها وصرامتها بعد شيوع العمل بالقوانين المقيدة للحريات ، أوشكت الرغبة فى الاستبداد أن تصبح هوسا فى نفوس بعض «الحكام» .. ولا سيما الذين بدا لهم أن الفرصة سانحة لاستغلال هذا السلطان المطلق طمعا فى الكسب وشفاء للضغائن والأهواء، وماذا يمنع الرشوة أن ترفع رأسها وتصيح بين الزوايا بملء الجدران إذا كان أداء الرشوة هو السبيل الوحيد من النفى والاعتقال بغير تحقيق ؟ .. وماذا يفيد التحقيق إذا كانت «شبهة» الحركة الوطنية كافية لاعتبار «المتهم» من ذوى الخطر والسابقة المحذورة؟ وكانت هذه الشبهة لاصقة بالأكثرين من المصريين ؟ ..

لقد بلغ الطغيان بحاكم من الحكام فى أسوان أنه أراد أن يقضى يوما مع أسرته فى الجزيرة المغربية التى يقصدها بعض الناس للرياضة فى أيام الإجازات ، فأرسل المنادى «الرسمى» يطوف أرجاء المدينة ، وينذر من تحدثه نفسه بالنزول فى الجزيرة أن يعرض نفسه على السيف والنار وخراب الديار ..

وشاعت سيئات الحرب العالمية على أسوئها فى إقليم أسوان الآمن الوديع ! تجنيد إجبارى لفرقة العمال واعتقال متكرر لشبهة ولغير شبهة ، وأتاوات تفرض لعلة من العلل المخترعة ، تبرعا للصليب الأحمر ، أو ترفيها عن المرضى والجرحى أو مساعدة على مشروع كائنا ما كان من مختلف المشروعات ، وأصبح كل طلب إنذارا بالتهمة المحكوم فيها بغير استئناف ، أو إنذارا بالسداد فى غير تردد ولا مساومة .

نادى العجول!

حدث هذا فى بلدى وبين أهلى وعشيرتى وأنا أنظر إليه بعينى وأستمع إلى أخباره بأذنى وأحس كل مظلمة من مظالمه بحساس قريب وإحساس إنسان ..

حدث هذا وأنا فى الخامسة والعشرين .

وحدث هذا وأنا أقرأ الشعر فلا أزدرى أبا نواس لقول من أقوال المجون كما كنت أزدريه لقوله فى الحكمة :

خـــل جنبيـك لـــرام	**وامـض عنــه بســلام**
مـت بـداء الصمـت خـيـر	**لـك مــن داء الـــكـلام**

لا يا أبا على ، غفر الله حكمتك ومجونك ، فإن كان موت يا صاح فما باله يكون بداء الصمت ؟ ولم لا يكون بداء الكلام .. ؟!

وتكلمت باللسان ، وتكلمت بالقلم كاتبا إلى وزير الداخلية وإلى السلطان .

وتكلمت باللسان ، وتكلمت بالقلم كاتبا إلى وزير الداخلية قصيدة منثورة سميتها «نادى العجول» ..

نادى العجول هذا كان «ناديا» للسادة الحاكمين وسراة القوم فى المدينة «فتحه رؤساء بكل معنى «الفتح» .. لأنه كان أشبه شىء بالغزو فى طلب الأسلاب من طريق السمارت والألعاب .

وكانت له سمعة سيئة غير سمعة المقامرة ، وكان الحضور فيه مفروضا على بعض الناس فى ساعات معلومة كى يخلو الجو لبعض الناس الآخرين فى تلك الساعات

ولم يكن يسمى بطبيعة الحال بنادى العجول ، ولكننى سميته كذلك لأن رؤساءه كلهم من أصحاب الوزن الثقيل ولأنه «حظيرة» من حظائر «الدواب» الآدمية لا تخلو من القرون .. !

وأضعف الأعضاء نفوذا فى ذلك النادى الموقر كان يملك الترخيص لى بالسفر على حساب الحكومة إلى جزيرة مالطة ، غير مشكور منى ولا ملوم من أحد على ذلك الإحسان بالإكراه ..

ولكننى كتبت المقال ، وتناسخه الأدباء ، وأرسلته إلى الصحف ، وقرأه النادى كله فى جلسة حافلة من جلساته ، وتقرر فى تلك الجلسة مصير الفضولى الجسور الذى يجترئ على ذوات القرون وعلى ذوات القناطير المقنطرة من الشحوم واللحوم ! ..

مقامـة فكاهيـة :

وأعود فأقول إن القافية هى التى قضت قضاءها فى الموضوع - ولا قضاء لى فيه ولا مشيئة - فخرج الموضوع كما ينبغى أن يخرج مقامة فكاهية أو قصيدة منثورة ، يقرؤه ، من خلا ذهنه من «الموضوع» فلا يشتم منها رائحة الحملة التى يجترئ بها القائل على الحكم العرفى المخيف ولا على الحكم القانونى اللطيف .. ويقرأها من امتلأ ذهنه «بالموضوع» فتغريه بحفظها وترديدها ، وهو يسأل الله السلامة من تلك العجول .

قال رئيس النادى فى مقدمة المقامة : «أيها السادة .. إن العجل مدنى بالطبع ، ونحن معشر العجول قد ميزنا الله على بنى آدم بضخامة الأجسام ، وصلابة القرون .. وقد غبر بهؤلاء الناس زمن كانوا يعرقون فيه بأسنا ويتمسحون بأذيالنا ، حتى أيقنوا أن لن يقوى على حمل هذه الدنيا أحد سوانا ، فعبدونا من فرط الإجلال .. وسبحوا لنا بالعشى والأصال ، وكانوا يحسدوننا على قروننا فدعوا أكبر أبطالهم وأشدهم بأسا وأرفعهم ذكرا - أعنى الإسكندر المقدونى - بذى القرنين وما إسكندرهم هذا وما قرناه .. إن أصغر عجل فينا ليهشم رأسه إذا ناطحه ، ويجندله إذا واثبه أو صارعه . فالعجب لك أيتها العجول لم لا تذكرين ذلك المجد الخالد فتقام لك الصوامع والمعابد ، بدل النوادى والمعاهد ..»

وقضى حكم القافية قضاءه فى قراءة «الموضوع» كما قضاه فى كتابته ، فأصبحت المقامة فى مدى يومين كأنها بعض المحفوظات المقررة التى تؤدى فيها الامتحان بعد يومين آخرين ، وراح أولاد الحلال يتسطون كلما عرض لهم من يعنونه بالسؤال : لم لا تذكرون ذلك المجد الخالد فتقام لكم الصوامع والمعابد ؟ ومنهم من كان يتخابث ويتجاهل ويخاطب العضو من الأعضاء التابعين غير المتحدثين ، تعنى بهم زمرة الأعضاء المسوقين المسخرين ، فيقول : أنت مدنى بالطبع .. أنت أشجع من الإسكندر .. أنت يقام لك وزن .. أنت مخير على الآدميين ، إلى أشباه هذه «التلقيحات» الرمزية التى كانت أصرح عند القائل والسامع من النداء الصريح

وكانت المناوشات بيني وبين المدير سجالا قبل شيوع تلك الكلمة عن نادي العجول .. كنت أشكوه وأعزز الشكوى بالبينات .. ثم تستدعيه وزارة الداخلية فنقرأ في الصحف أنه قابل عظمة السلطان ثم يكشف هو بحماقته عن سر هذه المقابلة التي يستدعى لأجلها من أسوان فنعلم أنه سمع فيها ما ليس يرضاه .

الرشـوة والأتـاوات :

وكانت هذه المناوشات تجرى سجالا بين مرتجلة أو مدبرة حتى شاع في المدينة ، ثم الإقليم ، ذلك المقال المنشور عن نادي العجول .. فإذا بالمناوشات التي كانت قصة مبعثرة الفصول تتركز وتنتهي إلى مخرجها الذي تحكم به القافية مرة أخرى ، فلا مناص لواحد من اثنين أن يخرج من المدينة : المدير أو كاتب المقال عن نادي العجول ..

ويتبين من مجرى الحوادث أن المدير تعذر عليه نفيي لأنه نفى قبلي ناظرا لمدرسة المواساة وكنت أنا ناظرها الثاني فأشفق القوم أن يقال أنهم يضطهدون المدرسة الإسلامية الوحيدة في البلدة .. وكل ما استطاع المدير أن يقنعهم به هو أن يشدد على الرقابة ويقيد إقامتي بالمدينة . فلم أكترث لهذه الرقابة ولا لهذا التقييد ، لأنني بطبيعتي كثير العكوف في المنزل قانع من الحركة بمشوار الرياضة في الخلاء أو في النيل .

وفتقت الحيلة للمدير أن يصدمني بمفتش الداخلية الإنجليزي . فألقى إليه أنني أتهمه بالرشوة وأذيع عنه أنه يقاسم الموظفين «أتاوات» السلطة على وظائف العمد والمشايخ وتبرعات الأعيان وصفقات التموين . ولم يكذب المدير فيما ادعاه ، لأنني كنت في الواقع أقول وأعيد أن المفتش الإنجليزي يقبل الرشوة ويفرضها على مرءوسيه ..

واستدعاني المفتش إلى ديوان المديرية فقال فيما قال في حديث طويل باللغة الإنجليزية: «لا يوجد إنجليزي مرتش Corrupt في الحرب ولا في السلم» .. فبدرت مني كلمة لا أدري ماذا كنت أقول – سرا – لو تعمدتها عن روية .. وقلت : إن الإنجليز جديرون بالتهنئة لأنهم قد تغيروا كثيرا بعد حرب الترنسفال ..

والمعروف أن حرب الترنسفال قد كشفت عن فضيحة من أشنع الفضائح في حالتي الحرب والسلم أثناء القتال وبعد القتال .. فلو أنني تعمدت الروية ما وجدت أمامي مثلا أقرب من ذلك المثل للرد على صاحبنا الفخور بالتعفف عن الرشوة في الحرب والسلم ، ولكنني لو تعمدت الروية لكان السكوت عن تلك الكلمة أولى وأحجى .. فإن الرجل بعدها وقف إلى جانب المدير في حب اعتقالي وإقصائي من المدينة ، وقال عني أنني أخطر من ناظر المدرسة الذي نفته السلطة قبلي إلى جزيرة مالطة ، وكنت قد تعمدت أن أشغل مكانه تحديا للأمر الذي صدر بعد القبض عليه ، فعملت بعده ناظرا لمدرسة المواساة .

وجزى الله مقال «العجول» خيرا في هذه الفترة ، فإن قارئا من قرائها الذين حفظوها أطلعني على خبر التقرير السري الذي كتبه المفتش ونقحه بعد مراجعة المدير .. فوجب الرحيل إذن من المدينة بكل وسيلة مستطاعة .. وتقضيت القافية أن يكون الراحل في هذا الفصل من الرواية كاتب المقامة .. لا سعادة المدير.

لكن كيف الرحيل من المدينة والرقيب ملازم لباب الدار بالليل والنهار ؟

لقد كان الرقيب يلازمني إذا خرجت ، ويسلمني في المساء لحارس الدرب فلا يفارق الحارس مكانه في الصباح حتى يتسلمه منه الرقيب الأول أو رقيب جديد..

أصبحت من أبطال المغامرات :

لست من القراء المغرمين بروايات الهرب والمطاردة ، ولكنني أصبحت بطلا من أبطالها على الرغم مني بحكم الضرورة التي لا حيلة فيها .. فوصلت إلى القاهرة قبل أن يعود منها جواب «السلطة» على تقرير المفتش والمدير ، وكنت كتبت بيدي قرار الفصل عقابا لهما واحدا بعد واحد ، وبينهما فترة أسابيع

أرسلت ملابسي من المنزل في مقطف عليه قمح يغطيه ، وذهب به حامله إلى بيت في شارع مجاور لنا نقلوا فيه الملابس إلى حقيبة صغيرة ، وسافر بها بعض أقاربي بتذكرة من أسوان إلى القاهرة ، وتواعدنا أن ألقاه بالقطار في محطة «الخصة» ويعود هو إلى أسوان على المطية التي وصلت بها من أسوان إلى الخطارة .

وأعددنا عن ظاهر البلدة مطيتين يقودهما من نثق به من الجيران ، وبقيت مهمة الخروج من المنزل في الصباح على الرغم من الحارس الرقيب .. وليس أيسر من ذلك إذا تزحزح الحارس من مكانه إلى منعطف الطريق هنيهة قصيرة نخرج فيها ونتوارى على الأثر في منعطف الطريق المقابل ، من ناحية الفضاء، حيث تنتظرنا المطيتان ..

ولم يعسر علينا أن نزحزح الحارس عن مكانه خلال تلك الهنيهة القصيرة ، فقد كان من ذوينا فتى نستعيذ بالله من ثورات غضبه ومن خفته إلى الشجار والخناق ، فرجوناه في ذلك اليوم أن يغضب ، وأن يبالغ في الغضب وأن يفارق المنزل بعد الفجر كأنه ذاهب للصلاة ، فيشتبك في خناقة حامية مع أول عابر من طلاب الصلاة مثله ، أو من المبكرين إلى الأعمال .

وقام صاحبنا بالواجب على ما يرام ، وعاد الحارس إلى باب البيت ونحن على المطايا متلفعين متنكرين لا يعرفنا من يرانا ولو كان من معارفنا .

أكبر مقلب للمدير:

وكنت بعد ذلك بيوم في ديوان الداخلية أزور صديقنا الوزير الأديب جعفر والي «باشا» وكيل الوزارة ، ثم تتابعت الأيام والتقارير السرية تصل من أسوان بتفصيلات المؤامرات التي أدبرها ، والأحاديث التي أذيعها والأقاويل التي أثير بها الخواطر أستحق من أجلها التعجيل بالاعتقال والنفي من الديار ..

أنا في القاهرة يصطحبني وكيل الداخلية كل يوم إلى مكتب المستشار ، ويشهده على مقامي بعيدا من أسوان بأكثر من ستمائة ميل ، وأنا في الوقت نفسه بأسوان يراني المفتش والمدير أثير الخواطر وأدبر المؤامرات ..

والنتيجة معروفة ..

في هذه المرة يخرج المدير من البلدة ويتلوه المفتش ، ويصدر الأمر بإحالة المدير إلى المعاش قبل موعد الحركة الإدارية ، وأعرف اسم المدير الذي خلفه فأبادر إلى إبلاغ الخبر لأصدقائنا في أسوان بهذه البرقية .

«شر مدبر وخير مقبل»

وكان المدير الخلف «محمد مقبل باشا» الذي اشتهر بعد ذلك في مناصب الإدارة.

... بين الموت والحياة ...

كنت رقيبا على الصحافة

كان نصيب التدريس من عملي في سنوات الحرب العالمية الأولى أكبر من نصيب الصحافة ، وكانت علاقتي بالصحافة قليلة متقطعة ولكنها - على ذلك - كانت متعددة منوعة ، لأنني اتصلت فيها بألوان من الكتابة الصحفية لم أعرفها قبل ذلك ، وما لم أعرفه منها عملا واختبارا فقد عرفته وصفا ونظرا واطلعت على طرف من أسراره وأخباره عن كثب ، فكتبت إلى المجلات الشهرية والصحف الأسبوعية واشتغلت بالصحافة اليومية في غير القاهرة ، وقمت على رقابة الصحف أياما معدودة ، وندبت للمراسلة الحربية في صحراء سيناء وكدت أن أحيط بالدائرة الصحفية من مراكزها إلى زواياها ونواحيها .

وتشاء الحوادث أن أشتغل بالرقابة على الصحافة وهي من أبغض الأعمال إلى نفسي وإلى فكري ، وتشاء هذه الحوادث أن أهنئ نفسي بالخيبة فيها بعد أيام ، فلم أحمد الله على نجاح كما حمدته على هذه الخيبة الموفقة .. !

كانت لي صداقة أدبية بالمغفور له جعفر والي باشا ، وكيل وزارة الداخلية في أيام الحرب العالمية الأولى ، وكان من الأدباء «القانونيين الإداريين» الذين يجالسون أحيانا «عثمان فسي» بك الذي كان مديرا لأسوان فمديرا لقنا فوكيلا للخاصة الملكية ، ثم خرج من الخاصة الملكية مغضوبا عليه في عهد الملك أحمد فؤاد، محالا على المعاش قبل أوانه، لأنه لم يحسن أن يشترك في إدارة الخاصة على الطريقة التي يرضاها صاحب الجلالة !

* * *

وكان حديث جعفر والي معي في الأدب يكاد أن ينحصر في المفاضلة بين أبي تمام والمتنبي ، فإنه كان يفضل أبا تمام ويفرغ لنسخ ديوانه بخطه ويميز

حواشيه بالتعليقات والملاحظات التى تُرفق مشيره فى تفضيله ، وكنت أنا تميزا للمعرى فى هذه الخصلة كما كنت تميزه فى خصال خلقية أو فكرية شتى ، وأعنى بها خصلة «التعصب» للمتنبى وقلة الصبر على القدح فيه والانتقاص من أدبه .. أما الأستاذ «عثمان فهمى بك» فقد كان كلامه فى العلميات والفلسفيات أكثر من كلامه فى موضوعات الأدبية ، وكان يناصرنى أحيانا فى تفضيل المتنبى من الوجهة الفكرية ولكنه يناصر وكيل الوزارة فى حملته على «نفخة» الشاعر الكذابة ، مع تعرضه للرد والسؤال ، مما يخالف أصول البلاغة على قوله، وفى مراعاة مقتضى الحال أو المثل حسب المقام !

وعلم «جعفر باشا» أننى أبحث عن عمل فى القاهرة لأن حالة الكبد عندى لا تسمح بقضاء الصيف فى أسوان ، وعلم مثله مرة أن رؤساء الإنجليز يفاتحونه بضيقهم الشديد من مشكلة الرقابة على الصحف العربية ، وأنهم يكادون أن يحملوه تبعة هذه المشكلة ، لأنه حق الناس أن يعرف كيف يختار للرقابة أناسا من أدباء المصريين يصلحون لـ... ولا يتجنون فيها .

وقال لى ذات مرة «أن يوسف خلاط بك ... على حد تعبيره «فى ثياب ضيقة» .. ولكنه هو يخشى أن ... القيود هذه الثياب .

وأزوره يوما على موعد ، فيقول لى ضاحكا : إننى آمنت بعظمة المتنبى وفضله على أبى تمام .

ثم يلمح دهشتى فيبادر قائلا : ولكنه تفضيل معلق على شرط ، وهو أن تستخدم لنا حكمة صاحبك فى عمل من أعمالنا فى وزارة الداخلية ، وهو مراجعة الصحف العربية ..

تكميم الأفواه !

قال : والحيرة فى أمر هذه الرقابة إن أكثر الرقباء بإدارة المطبوعات لا يفهمونها ويحسبون أنها تكميم للأفواه والأقلام ومسابقة بينهم وبين الصحف فى المكر والحيلة ، فكلما خطر لهم أن صحيفة من الصحف تلعب بالألفاظ لتفويت خبر من الأخبار دخلهم الغرور وظنوا أنهم يغلبون الصحيفة فى المكر واللعب فيحذفون الخبر ويصرون على منعه ومنع الإشارة إليه ، ومن ترخص

منهم فى السماح بنشر الأخبار التى يحرص عليها الصحفيون فإنما يترخص فى ذلك مجاملة لأولئك الصحفيين من أجل الصداقة أو من أجل المنفعة المتبادلة .

قال : ولا أدرى ماذا أصنع وأنا الوكيل المصرى المفروض فيه أنه أقدر من غيره على حل المشكلة ، فهل لك أن تتولى هذه الأمانة الشاقة وأن تعيننا على تجربة الرقابة كما ينبغى أن تكون ، بين العطف على الصحافة ورعاية مقتضى الحال ..

وكانت «رعاية مقتضى الحال» قد أصبحت من القوالب المحفوظة فى أحاديثنا حول بلاغة المتنبى وبلاغة أبى تمام وحظ الشاعرين من الكلمة على مقتضى الحال .

قلت : إننى أقبل العمل فى الرقابة بلا غضاضة ، ومادامت الرقابة من المصالح العامة فى أيام الحروب .

عجزت والحمد لله :

وبعد ثلاثة أيام جاءنى تنبيه بسؤال عن بعض الأخبار التى تركتها للنشر وتحقق لهم أننى لم أحذفها .

وبعد يومين أو ثلاثة جاءتنى دعوة إلى مكتب مستر «هور نيلور» الرقيب العام يتقدمها حديث مقتضب من يوسف خلاط بك ، فلما دخلت المكتب سألنى مستر «هور نيلور» مقطبا : هل راجعت هذه الأخبار ؟ وقدم إلى رزمة من جزازات الصحف اليومية والأسبوعية .

فقلت بعد إجالة النظر فيها : نعم .

فعاد يسأل : وكيف تبيح نشر الأخبار المقلقة التى من هذا القبيل ؟

قلت : إنها تباح فيما أطلع عليه من الصحف الإنجليزية ويباح لتلك الصحف ما هو أخطر منها بكثير .

فصاح متهكما : الصحف الإنجليزية ؟ ثم أردف قائلا :

هل أنت من الحزب الوطنى ؟

قلت : أنا مصرى وطنى بطبيعة الحال .

قال : إذا كنت لا تعطف معنا فلماذا تتولى هذا العمل ؟

فأجبته بكلام فحواه أننى لا أفهم المقصود بالعطف معهم . ولكننى لا أبقى في هذا العمل إذا كان يتطلب منى شعورا لا أفهمه ، وله أن يتقبل استقالتى مشكورا على قبولها ..

وهكذا تحررت بحمد الله عن مهمة الرقابة بعد أسبوع واحد ، وكدت أعجز عنه بعد يومين أو ثلاثة .

المراسلة الحربية :

أما المراسلة الحربية فقد ندبت لها من طريق الكتابة في مجلة المقتطف عن المقارنة بين فلسفة المعرى وفلسفة شوبنهور .

وكنت أعمل بالتدريس في مدرسة وادى النيل الثانوية بجوار محطة باب اللوق على مدى خطوات من مكتب المقتطف والمقطم . فزارنى الأستاذ نجيب شاهين بالمدرسة موفدا من قبل الدكتور يعقوب صروف وقال لى إن الدكتور وبعض ذوى الشأن ينتظروننى بعد الفراغ من الحصة قبل فسحة الظهر ، ولم يخبرنى شيئا عن موضوع الدعوة .

فلما دخلت المكتب وجدت الدكتور وشابا من أصهاره ومعه الشيخ مصطفى التفتزانى ورجلا إنجليزيا لا أعرفه ولم يعرفنى به الدكتور ، ولكنه قال .

- إنك ترى قلق الناس في هذه الأيام من جانب الحدود الشرقية ، وكلهم يظنون أن الهجمة منها قريبة على قناة السويس ثم على جميع البلاد المصرية ، ومثلك خليق أن يعيد الطمأنينة إلى نفوسهم بما تراه عيانا وما تطلع عليه من المعلومات المفصلة وهي حاضرة عند المختصين بالمسألة . وأشار إلى ناحية الرجل الإنجليزى ، وكل ما يطلب منك أن تطلع منها في القاهرة على ما يلزمك وأن تهيئ نفسك بعدها للرحلة إلى الخطوط الأمامية في صحراء سيناء ، ثم تسقها بأسلوبك المعهود لأن مجرد الوصف الصحفى الشائع لا يكفى للإقناع والتأثير ، ولولا ذلك لكان في مخبر من مخبرينا أو مخبرى الصحف الأخرى من يغنى هذا الغناء .

رأيى الذى لم أعلنه !

وأحب أن أعيد هنا رأيى الذى أعلنته في أثناء الحرب العالمية الثانية ولم أستطع أن أعلنه في أثناء الحرب العالمية الأولى ، فقد كان من رأيى في الحربين أن تتولى مصر واجب الدفاع عن حدودها موفورة السلاح والاستقلال وألا تتولاه - بداهة - في ظل الحماية أو الاحتلال .

فلما سمعت اقتراح الدكتور صروف قلت له إننى لا أكره أن أبث الطمأنينة في قلوب المصريين من ناحية الدفاع عن بلادهم أما وهو - كما يحدث الآن - من عمل دولة الحماية فليس من المعقول أن أرفض الحماية وأقبل دفاعها .

وكان الدكتور يعلم رأيى هذا في الحماية من أحاديثى معه قبل ذلك خلال زياراتى له في صدد مقالاتى الأدبية . فكاد أن يعتذر من مواجهتى بالاقتراح لأنه نسى إننا تحدثنا في مسألة الحماية منذ شهور . وانصرفت وهو يكرر قوله: إنه لو ذكر أن في الاقتراح شيئا لا أسيغه لما فاتحنى به . وجعل يقول مازحا : إذن تعود إلى المعرى وشوبنهور ... !

ولا أذكر أن أحدا من الحاضرين في تلك الجلسة فاه بكلام يخالف هذا المعنى غير الشيخ التفتزانى ... فإنه طفق يقول ويعيد : يا سيدى فيها إيه ؟ وماذا فيها يا سيد عباس؟ أليس المهم الآن أن تطمئن النفوس على الحدود ؟

فلم أجبه ولم يجبه أحد من الحاضرين .

أنا والمازنى .. بين الموت والحياة !

وقبيل انتهاء الحرب العالمية الأولى عدت إلى التحرير في الصحف على غير انتظار ، بل على يأس من العمل في الصحافة والتدريس إلى ما بعد الهدنة إذ كان للهدنة موعد قريب.

فالعمل في التدريس لا أمل فيه ، بعد أن مارست سنتين مع صديقى المازنى في مدرسة بعد مدرسة من كبريات مدارسنا الثانوية ، وجرت العادة في كل مدرسة أن ينتهى عملنا فيها بأزمة من أزمات الخلاف على تصحيح أوراق الامتحان ، لأننا كنا نصحح أسئلة وأجوبة وكانت خزائن المدارس تنظر إلى أوراق الامتحان كأنها أوراق الرصيد المنتظر في حساب المصروفات .

فلما وصلنا إلى الأوان المقرر للأزمة السنوية خرجنا من المدرسة متفقين على سكنى الإمام الشافعي حيث تقيم أسرة الأستاذ المازني من زمن بعيد ، وقدرنا أن اختزال النفقات المعيشية بالسكنى بين عالم الحياة وعالم الموت قد يغنينا عن التعجل في طلب العمل بضعة أشهر ، ويفرجها ربك بعد ذلك أو قبل ذلك كما شاء .

وقلت للمازني : ابحث يا صاح عن عمل في صناعتك ولا ترتبط بي في بحثك، ودعني أنتظر العمل في صناعتي حيثما اتفق ، فلا حيلة لنا في استعجاله ولا في البحث عنه ، لأنه معلق بانتهاء الحرب العالمية فيما قدرناه .

ووجد صديقنا المازني عمله ناظرا للمدرسة المصرية الثانوية ، ولبثت أنا بالقاهرة أترقب أوائل الشتاء لأعمل فيما يتهيأ من عمل أرتضيه أو أزمع الرحلة إلى أسوان .

وكنت أحسبني مترقبا على غير جدوى لأن ركود السياسة الوطنية في أبان الحرب قد ذهب بالصحف اليومية التي كانت تنطق بألسنة الهيئات السياسية ثم هبطت أزمة الورق بالصحيفتين الباقيتين – وهما المقطم والأهرام – إلى ورقة واحدة من صفحتين لا متسع فيها لغير البرقيات وأنباء الدواوين وما هو من قبيل «المحتويات» التقليدية في الوقائع المصرية ، فاكتفت كل صحيفة بمن فيها من المحررين والمترجمين .

وكنا «نفد» على المدينة من «حي» الإمام الشافعي مرة كل أسبوع ، وكان يوم السبت على الأغلب هو موعد هذه الزيارة الأسبوعية ، لأنه يوم متوسط بين بطالة الجمعة وبطالة الأحد، فلا أكد أقبل على المكتبة التي كنت أتردد عليها في هذه الزيارات حتى تلقاني صاحبها قائلا بل صائحا : أين أنت يا أستاذ ؟ إن الأستاذ عبد القادر حمزة قد حفيت قدماه وهو يأتي إلى المكتبة ويعود ليسأل عنك وقد يئس من لقائك فأوصى الأستاذ «عبد المؤمن كامل الحكيم» بالبحث عن مكانك والاتصال بك في شأن هام كما قال ، وقد كان الأستاذ عبدالمؤمن هنا الساعة ، وترك عنوانه لدينا وكتبت له عنوانك كما أعرفه بالإمام، ولا أدرى في أي مكان هو بالإمام .

وعلمت بعد لقاء الأستاذ عبد المؤمن أنني مطلوب للتحرير في صحيفة «الأهالي» بالإسكندرية ، وأنني أستطيع أن أعد نفسي للسفر خلال أسبوعين أو

ثلاثة، وعنده تفويض بتسليمي مرتب شهر وما أطلبه من تكاليف السفر ، وعنده كذلك تفويض بمراجعة الصحيفة في تقدير المرتب ، إن كنت لا أرضاه .

قلت له : لا حاجة إلى المراجعة الآن ولعلها في الإسكندرية أجدر وأيسر وانثنيت يومئذ إلى الإمام لإعداد حقيبة السفر واختيار ما أحمله معي من الكتب إلى الإسكندرية ، والاستغناء عما هو معد للبيع في يومين أو ثلاثة . ولم يكن طلابه بالقليلين في تلك الآونة .. لانقطاع البريد الأوربي في الفترات بعد الفترات على غير انتظام .

كانت في الثغر الإسكندري ثلاث صحف يومية هي البصير ، ووادي النيل والأهالي .

وكانت «البصير» صحيفة القطن والتجارة ، لا تعرض للبيع في خارج الإسكندرية ، ولا تعرض للبيع في الإسكندرية نفسها إلا على مقربة من البورصة ومخازن الميناء ، وكانت الصحيفة تعيش باشتراكات التجار والسماسرة ورسوم الإعلانات القضائية من المحاكم المختلطة ، ولا تذكر فيه شؤون السياسة المصرية إلا كما تذكر صحيفة «خارجية» .

وكانت «وادي النيل» صحيفة المجلس البلدي أو صحيفة المناورات والمنازعات بين أعضائه وأحزابه ، ولها – من ثم – عناية بمسائل الأسواق والدكاكين والشوارع المرصوفة وغير المرصوفة ، وما إليها . فكان لها نصيب وافر من الرواج في الإسكندرية ، ونصيب «لا بأس به» من الرواج خارج الإسكندرية ، بعد انقطاع «الشعب» خليفة اللواء ، وانقطاع «المؤيد» و «الجريدة» .

أما «الأهالي» فقد كانت في نشأتها صحيفة «شبيهة بالرسمية» يشترك فيه مئات من الموظفين والعمد والأعيان لأنها لسان حال رئيس الوزارة محمد سعيد باشا . وكان «محمد سعيد باشا» أحد الساسة القلائل الذين تنبهوا في ذلك العهد ضرورة الاتصال بالرأي العام ووجوب الاعتماد على الصحافة في مناقشة الصحافة التي تعارض الوزارة ، فأوعز إلى طائفة من أصدقائه الإسكندريين بإنشاء شركة «الطبع والنشر الأهلية» واستهلال عملها بإصدار صحيفة يومية تدافع عن الوزارة وترد هجمات الصحف المعارضة

عليها . فاختاروا اسم «الأهالى» لصحيفتهم عمداً ، لأنه اسم قديم لصحيفة كان يصدرها اسماعيل أباظة باشا رحمه الله ، ولأن اسم «الأهالى يقابل اسم «الشعب» واسم «الأمة» مصبوغاً بالصبغة التى تدل على معنى «الرعية» ولا يفهم منها معنى المقاومة والثورة .

ولم تزل «الأهالى» صحيفة الحكومة «الشبيهة بالرسمية» إلى أن سقطت وزارة سعيد باشا وقامت بعدها وزارة حسين رشدى باشا التى أعلنت الحماية على مصر فى عهدها ، فلبست «الأهالى» بعد ذلك لباس المعارضة فى حدود الظروف التى تسمح بها الحرب والرقابة . وكانت هذه المعارضة تقوم على أساسين : أحدهما الخصومة الوزارية بين سعيد ورشدى، والآخر إيمان سعيد بفائدة السيادة العثمانية فى استنهاض الحجة «القانونية» أو الحجة الدولية على الاحتلال والحماية . فقد كان سعيد «عثمانياً» فى تفكيره وشعوره إلى اللحظة الأخيرة ، وكان هو صاحب الرأى القائل بالارتباط بين البحث فى مسألة الحماية والنظر فى معاهدة الصلح مع تركيا والدول المنتصرة فى الحرب العالمية .

وأوشكت «الأهالى» أن تحتجب بعد اعتزال الوزارة السعيدية وقيام الوزارة الرشيدية ، لأن مشتركيها من الموظفين والعمد قطعوا اشتراكها ، ثم جاء كساد الصحافة بعد فرض الرقابة عليها ونشوب الحرب العالمية فطواها فيما من الصحف المهملة أو المعطلة ، ولكن ظروف الحرب أنقذتها بعض الإنقاذ من حيث لا تحتسب ، لأنها حصرت الإعلانات فى إيدى شركة تحتكر الإعلانات القضائية من المحاكم الوطنية وتتعهد للأجانب بنشر إعلاناتهم فى صحيفة إفرنجية وأخرى مصرية . فكانت «الأهالى» هى الصحيفة التى تتسع لنشر تلك الإعلانات فى ملحقاتها . وعندها بقية من الورق المخزون غير الورق الذى تدبره الشركة ، ولولا ذلك لما استطاعت أن تعيش سنة بعد ذهاب الوزارة السعيدية وانقطاع الاشتراكات عنها فى تلك المعترك العصيب[1] .

(١) وقف الأستاذ العقاد - فى الفصول السابقة - حتى ١٩١٩ حين قامت الثورة المصرية بزعامة سعد زغلول ، وقد اشترك بقلمه فى هذه الثورة مؤيداً للمبادئ الوطنية والسياسية التى كان يؤمن بها ، حتى اعتزل السياسة فى عام ١٣٩٥ حين أفسدتها الحزبية ، وانحرف السياسيون فى ذلك الحين على المبادئ المثلى .. كما أشرنا إلى ذلك فى «تقديم هذا الكتاب» بتوفر على التأليف ، وكتابة الفصول العلمية والأدبية فى المجلات الكبرى ، ولهذا نقدم هذه الذكريات وما يليه من الفصول التى لم تنشر من قبل فى كتاب من كتبه .

ويقيت فى تحرير «الأهالى» إلى نهاية الحرب وظهور الدعوة الوطنية على يد الوفد المصرى بقيادة سعد زغلول ، وافترقت الخطة الماسة بين الصحيفة والوفد فتركتها وعملت فى الصحيفة التى كانت تجرى يومئذ على تلك الخطة ، وكانت فاتحة عصر جديد فى حياة مصر وحياة الصحافة وحياتى الصحفية ، ويقترن بتاريخ النهضة الحديثة فيما علمت من ظواهرها وخوافيها .

* * *

... ذكريات وشخصيات ...

صديقى المازنى

صديقى المازنى أحوج الأدباء إلى التعريف بحقيقة فضله فما رأيت أحدا من المعجبين به إلا وهو يجهل بعض مزاياه .. وليس ذلك لخمول فى الذكر ، فقد بلغ - رحمه الله - من الشهرة غاية ما يبلغه الأديب فى البلاد العربية .

وليس ذلك لغموض فى النفس يباعد ما بين ظواهرها وبواطنها ، فما عرفه أحد من طول المعاشرة إلا عرف أنه أصفى الناس سريرة وأشبههم ظاهرا بباطن ، وجهرا بخفاء .

ولكنه لم يعرف بحقيقة فضله - أو بكل حقيقة فضله - بسبب غير الخمول وغير الغموض ، وهو قلة الاكتراث والاكتفاء بأيسر ما يناله بعضهم يسميها «ملكية السخرية» ويخيل إليه أنها على مثال السخرية التى شتهر بها بعض المفكرين الساخرين .. ولكنها فيما أعتقد تشبه السخرية وليست هى بها ، لأنها تخلو فى جوهرها من نكاية السخرية التى تلازمها فلا تنطوى على النكاية بأحد ، ولا تدل على حب للنكاية .

وإنما هى على ما عرفتها واختبرتها شىء آخر غير السخرية وإن كانت شبيهة بها :

هى حب «المعاكسة البريئة» أو هى الدعابة لا ضير فيها على أحد ، ولا فرق بين الدعابة على النفس والدعابة على الآخرين .

لم يكن يبالى أن يبرز خير ما عنده ، لم يكن يبالى أن يمدح فى أدبه وفنه بقلمه ولسانه ، فيسبق المنكر والحاسد إلى المدح والإنكار ، ولم الجهد والعنا[illegible]

لقد كان يرى أن حقائق الدنيا كالخيال ، لأن غايتها إلى أمل أو ذكرى ، وكلاهما خيال .. فليكن متاعه بها ونصيبه منها خيالا بغير عناء .. !

وكان يرى أن الناس يضيقون بشأنهم كأنه شىء لا غنى عنه ، فكان يريهم أنه فى غنى عنه فعلا ، وكأنه يقول لهم : إن استطعتم فقولوا فى أدبى وفنى ، وفى شخصى وسيرتى ، أكثر مما أقول .

وليست هى بفلسفة وليست هى بمظهر ، هى طبيعة فيه عهدتها منه فى غير عالم الكتابة ، ولم تفارقه منذ صباه ، كاتبا أو غير كاتب ، وغاية ما هنالك إنه كان يطاوعها حينا فيسترسل فيها ، وإنه كان يكفها حينا فلا تظهر كل الظهور .. كان ولعه «بالمعاكسة البريئة» تسليته الكبرى .

ولست أحصى ضروب هذه المعاكسات التى كان يرتجلها ارتجالا فى أكثر الحالات ، ولكننى أذكر حادثة منها لها اتصال بجانب نفسى فى تاريخ حياته ، وهو من قبيل الوقائع التى تفسر الأقوال ، أو تفسر مذاهب الكتابة التى يسميها بعضهم فلسفة حياة .

قل من يذكر أن المازنى شغل بالموسيقى فى عنفوان شبابه ، وأنه تعلم العزف على «الكمان» وتلقى دروسا كثيرة فيه ، واستطاع أن يوقع بعض البشارف وأوشك أن يحسب فيه من مهرة العازفين .

وكنا نقضى السهرة ذات ليلة فى ناد كبير من أندية الموسيقى والغناء وطابت السهرة إلى ما بعد منتصف الليل ، وكان يبيت يومئذ بمنزله على مقربة من الإمام ، ولم يكن خط الترام قد وصل بعد إلى الإمام ، وقد كان الترام الذى يذهب إلى تلك الجهة ينقطع قبل ذلك الموعد على كل حال .

وودعته وهو يتفق مع حوذى ليوصله فى مركبته ، مركبة خيل ، لأن السيارة لم تكن شائعة فى تلك الأيام

وكان الجو ليلتها رائقا مقمرا فى أوانها ، وسكون الهزيع الثانى من الليل يغرى بالغناء .

ويظهر أن الحوذى - حين رآنا نخرج من النادى الغنائى - قد بدا له أننا من هواة السماع فلا حرج عليه أن طرب وأطرب ، وراح يتغنى بما شاء من «الطقاطيق» التى يهواها ، ولم ينس أن يعتذر إلى «زبونه» بعد أن رفع عقيرته بالغناء

- لا مؤاخذة يا سيدنا البيه ، إن محسوبك من هواة السمع ، وإني .. وقبل أن يمعن في الاعتذار ، بادره «الزبون» قائلا :

- خذ راحتك .. «أنا والله أحب أسايرك» .. !

قد ملك الحوذي نفسه من الطرب والارتياح ، لأن الجواب الذي سمعه جزء من الطقطوقة ، التي كان يغنيها ، وراح يغني تارة ويردد قصته التي بدأ فيها تارة أخرى وخلاصتها أنه كان - لهوايته السماع - يختار موقفه إلى جانب التخت الآلاتية ، ويسترق السمع بين لحظة وأخرى كلما استطاع الإفلات من رقابة البوليس

وانطلق الحوذي ، وخلا له الجو بعد باب السيدة عائشة ، ونسي البوليس والزبون ، ومضى كأنه في ليلة يود ألا تنقضي به الطريق

وشرع أخانا ، المازني ، تلك الشنشنة التي لا تفارقه ، يوحي إليه الموقف بالخاتمة الصالحة لهذا «الفصل الغنائي» الذي أقحمه الحوذي عليه فأنسى عليه في آخر الليل ما سمعه في أوله : إن المطرب المقتحم قضى ساعة وهو يقول في الطقطوقة التي يغنيها «لما أشوف آخرتها معاك» ..

فماذا لو كلفت آخرتها أن يلتفت عند خاتمة المطاف فلا يجد الزبون ؟

خطر الخاطر فلحق به التنفيذ ، وخلت المركبة والمطرب المشغول بغنائه لا يدري أن خلو المركبة وإخلاءها بذلك الحمل الذي كان فيها يستويان .. !

والتفت الحوذي بعد أن طالت الرحلة ولم يستمع من الزبون صوتا ولا أمرا بالوقوف .. فطار ما في دماغه من الغناء ، وامتلأ بكل ما وعاه في حياته من النداء

ولا حاجة بالقارئ إلى ترديد ما ألقاه من لسانه في ذلك الخلاء ، وليس من حوله أحد يجيبه إذا استدل به وغريمه الباحث عنه هو دليله الوحيد .

وجاءني الصديق في اليوم التالي فيسألني : «أتذكر شكل الحوذي الذي ركبت معه بالأمس ؟»

قلت : «لا أظن أنني أحقق شبهه فلماذا تسأل عنه ؟ هل فقدت شيئا عنده ؟»

قال ضاحكا : «كلا ولكنه هو الذي فقد ! ..»

فلم أفهم ما يقوله وسألته : «وماذا فقد ؟ ..»

قال : «فقدني أنا» .. وقص علي تفصيل تلك القصة التي أجملتها هنا بعض الإجمال .. !

* * *

انقضى أربه من المعاكسة ، وجاء دور الرحمة بذلك المسكين ، فإذا هو مهموم بالبحث عنه لإعطائه أجره الذي خيل إليه أنه قد ضاع بغير أمل ، فقلت له أن حوذيا بهذه الصفة لابد أن يكون معروفا بين زملائه في موقفه وغير موقفه، فهلم إلى الموقف نبحث عنه هناك!

ولم يخطئ ظننا في جدوى البحث هناك ، لأن القصة كانت حديث زملائه جميعا ، وإن لم يكن هو في الموقف تلك اللحظة ، فأخبرناهم أين يجدنا إذا عاد ، ولم نلبث طويلا حتى أقبل الرجل يهرول وهو لا يصدق أن زملاءه قد صدقوه الخبر ، فلما رأى صاحبه بالأمس أقبل عليه متهللا وتناول منه ضعف أجره الذي كان يطمع فيه .. !

وانصرف وهو يدعو له ويقسم نادما : «لاعدت إلى الغناء أبدا وأنا مركب» ..

وإلا «فعلي روحي أنا الجاني» .. !

قال الصديق العزيز : «بل تغني ما شئت ، ولكن تعمي وجهك للسميع! » .. هذه هي «المعاكسة البريئة» التي لزمت صديقنا على صور شتى من صباه إلى أخريات أيامه ، وتزداد بها الفجيعة أن تذكرها فتذكر أي نفس طفلة - أي طفولة من طفولة العبقرية الخالدة - قد عاجلها الحمام

بهذه الدعابة البريئة - التي لا ضرر فيها على أحد - كان المازني يستقبل الدنيا ، ويحتمل نقائضها ومفارقاتها ويعفي نفسه من الجهد الذي يبرز الدنيا خير ملكاته ، بل يحاول أن يستر هذه الملكات بيديه غير آسف على شيء .. !

قادر على نفسه..

على أن المازني يصحح في هذا الباب خطأ يقع فيه أولئك الذين يحكمون على الأطوار النفسية بظواهرها وعناوينها ، فيحسبون أن طبيعة الاستخفاف تقترن دائما بالعجز عن الجد وصرامة الأخلاق .

والواقع إن الذين عاشروا المازنى وخبروه يعلمون أنه من أقدر الناس على نفسه وأصبرهم على رياضة طبعه ، وأشدهم جلدا على مواقف الشدة والصرامة ، وقد عانى من شدائد الأيام ما يقصم الظهر ويغشى آفاق الحياة بالظلام ، فلم يكن يتغير لمن يلقاهم ويلقونه فى هذه الأحوال إلا بالإكثار من المرح والتبسيط .. فلا يعرف جليسه أنه فى شدة إلا إذا تحول مزاجه إلى التكلف المحسوس .

وأنا أعلم من عاداته أنه كان مفرط الحس بالشم فى مطلع شبابه على الخصوص . وكنا نمشى مسافات طويلة لتجنب المرور ببعض الأماكن التى تنبعث منها روائح الحانات والنفايات ، ولكنه راض نفسه نحو ساعة على احتمال رائحة من أبغض الروائح إلى الأنوف لأنه أراد أن يلقى درسا حاسما على محبى « الشيطنة » من التلاميذ .

وكان أولئك التلاميذ يجهلونه ويجهلون أنهم يحاربونه فى ميدانه حين يعمدون إلى ضروب المعاكسات المدرسية التى يغيظون بها طائفة من المعلمين ، فانتظروا حصته ووضعوا فى المحابر حمضا كريه الرائحة لا يطاق فى مكان محصور ، وسبق إلى وهمهم أن الحصة ستضيع فى السؤال والجواب عن هذه الرائحة وعن مصدرها وعن واضعها وعن المكان الذى جاء به منها - وهو بطبيعة الحال معمل الكيمياء فى المدرسة .. ولكنهم لم يلبثوا هنيهة بعد دخوله إلى الفصل حتى أدركوا أنهم فى وهم بعيد ، لأنه لم يسأل ولم يغضب ولم يبد عليه أنه فطن لشيء غريب ، ولم يزد على أنه مضى بنفسه إلى النوافذ فأغلقها وإلى الباب فأغلقه ، وأخذ فى الدرس وهو على أتم راحة ونشاط ، وكلما اشتد الضيق بالشياطين الذين انقلبت عليهم فعلتهم تصايحوا يسألونه فتح النوافذ والأبواب ، وهو يزعم لهم ، فى جد وسكون ، أن الحجرة المغلقة أصح من تيار الهواء وكان ذلك هو الامتحان الأول والأخير !

ملكة نادرة ...!

وليس أعلم من المؤلفين بالمشقة التى يعانيها الكاتب إذا حاول أن يعيد الكتابة فى موضوع من جديد ، فإنها مشقة جهد ومشقة ملل فى وقت واحد ، ولكننى رأيت المازنى يعيد كتابة المقرر فى التاريخ لبعض الفرق الثانوية لأن

رجل من الناشرين خدعه فى طبع الكتاب المقرر لتلك الفرق ، فأعلن أنه غير راض عن النسخة المطبوعة وأنه سيطبع المذكرات على التوالى بعد إعادة تحضيرها ، وصبر على هذا الجهد الممل ليملى على إخوان الأمانة درسا فى عقبة الخيانة والخداع .

إلا أننى أظلم ملكات المازنى كلها إذا رجعت باحتماله لهذه المشقة المملة إلى الإرادة دون غيرها .

فإن الذكاء المفرط فى الحقيقة هو صاحب الفضل الأول فى صبره على جهد الإعادة ومللها ، لأنه كان يستطيع أن يفتح المرجع التاريخى الضخم فى اللغة الإنجليزية وأن يلخصه وهو يقرؤه ، وأن يترجمه وهو يلخصه ، وأن يكتبه على ورق الآلة الناسخة فى وقت واحد وهى أربعة جهود يجمعها ذكاء المعلم النابغة فى لحظة واحدة : جهد القراءة وجهد التلخيص وجهد الترجمة وجهد التحضير ، إلا أن السرعة فى الفهم والترجمة الصحيحة أهون ما فى هذه الملكة النادرة ..

وأقول النادرة وينبغى أن أقول الوحيدة فى تاريخ الآداب العالمية ، فإننى لا أعرف فى آداب المشرق أو المغرب نظيرا للمازنى فى هذه الملكة التى أسميها عبقرية الترجمة .

إنه يترجم النثر فى أسلوب كأسلوب الجاحظ وخالد بن صفوان ، ويترجم الشعر فى أسلوب كأسلوب البحترى والشريف ، ثم لا يخرج فى ترجمته حرفا من اللفظ ولا لمحة من المعنى ، بل يأتى بالمقالة المترجمة أو القصيدة المترجمة فى طبقة التأليف أو أعلى وأبلغ ، ويعرض لك قصيدة الشاعر الأوربى - العالمى - بلغة عربية لا يزيد عليها صاحب القصيدة شيئا لو أنه نظمها فى لغة الضاد .

ولا يقل شعره المترجم فى مزايا البلاغة والصقل والسلاسة ، ومن دواعى الأسف الشديد أنه هجر الشعر وأنكر على نفسه الشاعرية ، ومن دواعى الأسف الشديد أن عبقرية الترجمة التى انفرد بها لم تحد من ينفع بها العالم العربى ويغنى النقيد بعمل من أعمالها الخالدة عن كتاب الضرورة أو كتابة الظروف ..

ولا تقل عن ملكة الترجمة فيه ملكة أخرى من أنفس الملكات التي يرزقها الأديب والفنان، وهي ملكة الملاحظة الدقيقة والتعبير السهل القريب عما يلاحظه من المشاهدات والمناظر عن عرض أو روية .

كنز زاخر ..

ونعود فنقول أننا نأسف أشد الأسف لأن الفرص لم تهيئ له أسباب النفع بهذه الملكة في غير الأعمال الصحفية العاجلة . ولو تيسرت له موارد العيش واستطاع أن يتفرغ للتأليف الذي يريده لمتع الناس بالعجب العجاب في هذا الباب ، ولظفر العالم العربي بثروة المازني كلها ، وما أنفسها وما أجلها إذا كان هذا الذي اتسع له وقته وتهيأت له أسبابه جد نفيس جليل .

كنز زاخر ضيعنا منه ما ضيعه وهو لنا بيننا . فإن تعلمنا شيئا من العبر فلنتعلم كيف نصون ما أبقاه فإنه خليق أن يبقى بقاء العربية في حرز أمين ، وحسب العربية من فضله على أبيها أنه أثبت لها القدرة على مجاراة أحدث الآداب بأسلوبها الصحيح السليم

* * *

وأي ذكريات ؟ وكم من ذكريات ؟ وما أكرمها ذكريات ...

إنها ذكريات الصبا في بواكيره ..

إنها ذكريات الأخوة في حماسة الدعوة الأولى إلى الرأي والمذهب .

إنها ذكريات المشاركة في الجهاد الوطني على خلاف أو على لقاء .

إنها ذكريات العطف المتبادل والفكرة المتجاوبة في جميع تلك الحالات[1] .

ومهما يكن من معرفة عامة يعرفها القراء عن أديبهم المازني ، ففي مجال تلك الذكريات أحاديث لا تحصى ..

لكن هذه «الشخصية» المحبوبة : شخصية إبراهيم الكاتب وشخصية أبي خليل الصديق- تعفيني من كل حيرة في موقف الاختيار بين تلك الذكريات ، ولا فرق فيها بين ما يقال أنه شخصي خاص وبين ما يقال أنه ترجمة من حق النقد وحق التاريخ . وهكذا تكون «الشخصيات» التي يقول النقاد أنها «مطبوعة في الصميم» كل ما تعمله أو تقوله خاصة يعين الناقد والقارئ على فهمها وتفسيرها في مجالها الفسيح الذي تتصل فيه بعالم القلم ، وعالم التاريخ ..

لقد كان المازني الذي يسخر من كل شيء ، ويخرج لسانه لعابري الطريق هو المازني الذي يسمي كتبه في أخريات حياته بـ «قبض الريح» و «صندوق الدنيا» و «عالماشي» ، و«حصاد الهشيم» ، وهو المازني الذي أعجبه ذلك الشاعر الذي أوصى أن يكتب على قبره هذان البيتان :

أيها الزائر قبري	أتل ما خط أمامك
ها هنا فاعلم عظامي	ليتها كانت عظامك

(١) هذا الفصل كتب العقاد بمناسبة ذكرى المازني بعد سنوات من وفاته .. أما الفصل الأول فقد كتب حين رثاه .

كأنه يخرج لسانه من تحت التراب لزائر القبر الذي يقرأ ، وهو غافل ، ما يحدث به الدفين المزور .

في كل ذكرى من تلك الذكريات الشخصية صورة من صور الدعابة التي لا يفوتها الاحترام ، والاستخفاف الذي يعن مواطن الإعجاب والتقديس .

وكان صديقنا المرحوم عبد الرحمن شكري يقول له فيما بيننا بالإنجليزية .. حين نسمع تعليقاته على ما نقرأ شعرا ونثرا : إن فيك يا أبا خليل لشيئا ملكيا عفريتيا بلا افتراق Angelic Impish وكان هو – طيب الله ثراه – لا يرفض هذا الوصف ، ولكنه يجيب عليه تارة إجابة الملائكة ، وتارة إجابة العفاريت ! ..

وكان موضع العجب من أمر صديقنا المحبوب المهيب أنه – على دعابته – لم يكن يفقد احترام عارفيه على أفواه ، وأنه مع مستخفه لم يكن يستخف بمواضع التقديس والإعجاب .

كان رحمه الله قصير القامة يظلع في مشيته ، وكان يدرس التاريخ والترجمة في مدرسة ثانوية اشتهرت بتلاميذها المتمردين ، لأنها كانت مدرسة أهلية تجمع الذين تجاوزوا السن في المدارس الأميرية أو طردوا منها لسوء السلوك ، ولم يكن أيسر من اجتراء هؤلاء على مدرس شاب قصير القامة يظلع في مشيته ولا يبالي كثيرا بزيه ، ولكنه كان على نقيض ذلك مهيبا عندهم إلى حد المخافة، وكان لقب «تيمورلنك» هو اللقب الذي اختاروه له من دروسه في التاريخ !

ولعله كسب منهم هذا اللقب بعد امتحان أو امتحانين ، ففهموا بعد الامتحان أي رجل هذا الهزيل الضئيل الذي حاولوا – على غير معرفة به – أن يجترئوا عليه ، لأنهم فهموا أنه رجل يملك زمام نفسه فلا يستعصي عليه أن يملك زمام الآخرين ، وأنه رجل كفء لعمله على مثال لم يعهدوه بين عشرات المدرسين .

وبهذه الكفاءة ، وتلك الإرادة ، أصبح مدرسهم الهزيل «تيمورلنك» زمانه المخيف ، والمحبوب .

* * *

ولم تكن المدرسة هي الساحة الوحيدة المختارة لهذه الدعابات ، بل كانت كل مفارقة يلقاها على ثقة بالجواب السريع بفصل من هذه الفصول .

دخل إلى صيدلية يشتري حامضا من الحوامض السامة التي تستخدم في المنازل للتطهير ، وتقضي التعليمات على الصيادلة أن يسألوا من يشتري المادة السامة عما يستعملها فيه ، فسأله الصيدلي حسب التعليمات :

– لماذا تريدها يا أستاذ ؟

فلم يجب الأستاذ ، بل نظر إلى الصيدلي ورفع إبهامه إلى فمه متظلما كأنه يقول : أشربها .

وكان الصيدلي الظريف كفؤا لزبونه الساخر ، فناوله القارورة وهو يقول :

– قدحان مرة واحدة كفاية يا أستاذ !

* * *

وقد كانت دعابة صديقنا الودود سلاحا ماضيا يدفع به الأذى ، كما كانت سلاحا حاضرا يطرف به الأصدقاء ، وكنا جميعا «المازني وشكري وأنا» عرضة للإساءات السخيفة تتلقاها من هب ودب من أنصار القديم ، ومنهم من كان يتميز غيظا من دعوتنا ، ويتحرق شوقا إلى الفرصة التي تهيئ له سببا من الأسباب للغض من هؤلاء «الطالعين فيها» .. كما كانوا يصفوننا في لغو الحديث .

ولقد ثقلت هذه الإساءات على مزاج أحدنا – شكري – فسئم لقاء الناس وانطوى على نفسه بعيدا عن المجتمع والمجالس ، إلا من تدعوه ضرورة العمل إلى لقائه ..

أما «أبو خليل» فقد كانت دعاباته الحاضرة أمضى سلاحا من أن يتراجع أمام المسيء أو أمام الإساءات ، ولم يكن أخبر منه بأساليب الانتقام العاجل ممن يخيل إليه أنه سيخفقه بالفصل البارد : الفصول التي تحرج المقصود بها ، لأنه لا يدري كيف يحتج عليه ولا كيف يسكت عنها .

* * *

خرجنا ذات مساء إلى ضاحية القبة نتنسم هواء الربيع ، وكان لنا صديق يسكن في تلك الضاحية ، فلما مررنا به وجدناه بين فئة من صحبه وجيرانه

على باب داره ، فلبينا دعوته، ولما يكد يستقر بنا الجلوس .. وإذا بواحد من الحاضرين يتصدى لتوزيع السجائر ويتخطانى ويتخطى المازنى عمدا ليسيء إلينا بهذا الإهمال . وقبل أن أفرغ من سؤال نفسى : ماذا عسى أن يصنع أبو خليل مع هذا الذى خيل إليه أنه يفحمنا بإساءته ، وأنه حر فى إفحامنا بها لأنه حر فى سجائره يحيى بها من يشاء ويهمل من يشاء ؟ .. إذ بالدعابة الحاضرة – تحت الطلب – تسعد أبا خليل ، فيمد يده إلى علبة السجائر ، ويذهل صاحبها فيسلمها إليه ، ويأخذها أبو خليل فيناولنى سيجارة ويتناول أخرى ، ويضع اثنين على المنضدة ، ويقول لذلك المخلوق المذهول :

– هاتان السيجارتان للدورة الآتية .. لأننا لا نريد أن نراك مرة أخرى ..

ثم يرفع رأسه كأنه تنبه من سهوة عارضة ، ويقول فى غير اكتراث :

– لا مؤاخذة .. ! حسبتك خادم الدار ، ولولا ذلك لطردك صديقنا الكريم .

* * *

ولقد شهد هذه الفصول المازنية كثيرون من صحبه الأقربين وممن لا يعرفهم بغير تحية المزاملة فى العمل أو تحية الطريق ، فلم يعرضه فصل من هذه الفصول قط لفقدان الاحترام ، ولم يعرضه هو – بينه وبين نفسه – لفقدان الشعور بالاحترام ، وكان له قدره المرعى فى كل بيئة نزل فيها ولو نزول الطارئ الراحل ، وقد كانت لهذا المستخف الساخر غضبته التى لا يغضبها الكثيرون من الجادين الذين لا يعرفون السخرية والاستخفاف ، فإذا مست كرامته فلا مزاح ولا هوادة ، وقد استقال من وظيفته الحكومية يوم كانت الاستقالة من «خدمة الميرى» شبيهة بالانتحار ، لأنه لم يعط حقه من التقدير بين قرنائه فى الديوان .

وفهم هذا الازدواج المحكم فى طبيعته بين فلسفة الاستخفاف وشعور الاحترام ليس بالأمر العسير على الذين عرفوه وعاشروه : إن «اللامبالاة» عنده لم تكن نقصا فى الشعور ولم تكن وليدة النظرة السلبية إلى الحياة .. ولكنها كانت عنده وليدة للشعور المفرط وللنظرة الموجبة إلى العاطفة الإنسانية فى شعابها التى لا تحصى : كان ملء النفس عطفا على الأم ، وعلى الابن وعلى الأخ ، وعلى الزوجة ، وعلى الصديق ، كان امتلاء نفسه شعورا بالترفع .. هو

سر هذا الضيق بالجد المتصل فى حالة بعد حالة وإحساس بعد إحساس ، وكانت نظرته المثالية إلى غير الواقع المتكرر هى التى جعلته يعطى ما لله لله وما لقيصر لقيصر كما قال السيد المسيح .. وهى التى جعلته يعطى للواقع ما للواقع وللمثل الأعلى ما للمثل الأعلى دون أن يمزج بينهما فى كل حادث وكل يوم .. فإذا جاء دور المقارنة بين الواقع الإنسانى وبين الكمال المنشود فهناك تتفتح الأبواب للسخرية بجميع مصاريعها .. ولكنها سخرية عاطفة كسخرية الأب الذى هو أعطف الناس على ضعف وليده ، وأوسعهم رجاء له فى الكمال .

بهذه النظرة المطبوعة إلى الواقع إلى المثل الأعلى استطاع أن يعرف السخرية بالواقع فى حينه ، وأن يعرف الغضب للقداسة التى نرفعها إلى سماء المثل العليا فى كل حين .

فمن غضباته التى تذكرها تلك الغضبة التى أشرت إليها فى معرض الكلام على تأليف العبقريات ، وأولها «عبقرية محمد» صلوات الله عليه .

* * *

كنا نزور ساحة المولد النبوى على مقربة من مسكنى بالعباسية ، فى جولة من جولاتنا التى كنا نسميها بالتفتيش الفنى على أحياء المدينة .. فذكرنا مقال البطولة النبوية فى كتاب الأبطال للفيلسوف الايقوسى توماس كارليل ، كان يعرف إعجابى بما يكتب ذلك الفيلسوف، فقال :

– ولم لا تكتب أنت ذلك المقال من جديد ونحن أولى بهذا الواجب من كتاب الغرب ، مهما يكن من إخلاصهم فى تقدير البطولة المحمدية ؟

وكان فى الجماعة فتى متحذلق يحسب أن حرية الفكر إنما تقاس بمقدار التطاول على المقدسات الموقرة ، وعلى مقدساتنا نحن دون سائر العالمين .. ففاه بكلام هازل يشير به إلى السيف وإلى الزوجات الكثيرات .. وما راعنا إلا المازنى الوديع الساخر ينتفض غضبا كأنما لسعته لفحة من وقود مضطرم ، وإلا حركة يوشك أن يتبعها عمل وهو يقول تعقيبا على صيحتى فى وجه ذلك الدعى المتحذلق : كلا .. كلا .. إن هذا الهجر لا يثبت الحاجة إلى الضرب بالسيف فى نشر الدعوات ، إنه ليثبت الحجة إلى ما هو أصلح من ذلك لداء البذاءة والقحة : إنه الضرب بالحذاء توفيرا للسيف عن مثل هذا المقام .. !

على أن الزمن قد كان يصنع صنيعه فى هذا المزاج الذى وفق هذا التوفيق العجيب بين الجد والقداسة ، وبين السخرية و«اللامبالاة» فى عالم الأدب الخالد ، وفى عالم المعيشة العارضة من يوم إلى يوم . فكان من صنيع الزمن أنه لم يزل يوسع المسافة بين الواقع والمثل الأعلى عاما بعد عام ، حتى كاد أن ينتهى به إلى الطرفين المتقابلين ، فلم يكن للواقع عنده فى أخريات أيامه نصيب غير التحدى والسخرية والاستخفاف ، ولم يكن فيه غير باطل الأباطيل ، وغير النظرة «عالماشى» ، وغير التفويت والإغضاء .. ولم يكن فى أكثر الأحايين أملا للمصالحة بينه وبين المثل الأعلى فوق عرشه الرفيع ، من وراء المنظور والمأمول .

* * *

وسكنت فى صوته قوة النضال حتى يشوبه شيء من الندم إلى نضاله القديم ، وحتى استكثر الرد على من ينكرون حقه ويجحدون فضله حيث هو أحق وأجدر بالاعتراف وأحق وأجدر بالفضل والتفضيل .

فما كان تكاره شعره – فيما أعلم وأعتقد – إلا تحديا منه للإعجاب والاستحسان ممن يظنون أنهم ينعمون عليه بإعجابهم واستحسانهم ويسلبونه نعمة بتكالب عيها بما ينكرونه عليه ، أو يبخسونه ، مؤمنين ومكابرين متعنتين..

وفى هذه الفترة كان يقول ما يقوله وهو لا يبالى أن يحسب جوابه من الجد أو يحسب من المزاح : إننى فى مصنع النجارة الفنى أعطيكم ما تطلبون : وما بالى أعطيكم كرسى الصالون وأنتم تطلبون كرسى المطبخ ؟ أو أسومكم ثمن الدولاب وأنتم تبذلون ثمن الصندوق الصغير . وخدعته قبل أن تخدع غيره سهولة الكتابة عليه ، فنسى أن السهل الممتنع هو الذى يستطيعه مثله بلا مبالاة .. يطلبه سواه ، بكل ما فى وسعه من مبالاة ، فلا يقدر عليه .

* * *

كان يجلس إلى المرقم «التايبرايتر» ليكتب القصة أو المقال المطلوب ، ساعة الطلب بغير تحضير .. وكان يكتبه فى جلسة واحدة ويختمه مع ختام الورقة الأخيرة ، فيحس القارئ أنه لم يقل كل ما عنده ، ولكنه يحس كذلك أن الذى قرأه كاف وفيه ما يزيد على الكفاية والوفاء .

وهنا – أيضا – نعلم الفارق بين «اللامبالاة» السالبة و«اللامبالاة» الموجبة التى تغنيها القدرة عن جهد المبالاة ..

ربما كانت سهولة الكتابة على المازنى تقنعه هو نفسه بأنه غير مكترث بما يكتب ، ولكنه ينسى أن هذا الذى يكتبه بغير اكتراث يحاول المكترثون جهدهم فلا ينتهون إليه . وأحسب أننى قرأت له المقال الذى كان يكتبه فى نصف ساعة، وقرأت له من قبل ذلك مقالات كان يكتبها ويعود إليها فى ساعات ، فكان أجود ما كتبه من ثمرات السرعة البالغة ، سرعة الكاتب الذى يقول أنه «لا يبالى» ، ولكنه يبلغ غاية الشوط من «مبالاة» الآخرين ..

وهذه هى عبقرية المازنى التى لا تجارى : عبقرية تعطى وقائع اليوم حقها ولا تنسى حقوق المثل العليا فى سماواتها . وهى على هذا تعطينا نموذجا منها فى النكتة مع التلميذ والصاحب وعابر الطريق ، كما تعطينا نموذجا منها فى ثمرات الفن والأدب ، وتشعر وهى تستخف وتسخر كما تشعر وهى تقدس وتحد، لأنها فيما «تباليه» وما «لا تباليه» ، إنما تصدر عن فرط شعور وعن تمييز بين مواطن النقص ومواطن الكمال .

* * *

عبد الرحمن شكري

عرفت عبد الرحمن شكري قبل خمس وأربعين سنة[1] فلم أعرف قبله ولا بعده أحدا من شعرائنا وكتابنا أوسع منه اطلاعا على أدب اللغة العربية وأدب اللغة الإنجليزية وما يترجم إليها من اللغات الأخرى .

ولا أذكر أنني حدثته عن كتاب قرأته إلا وجدت عنده علما به وإحاطة بخبر ما فيه ، وكان يحدثنا أحيانا عن كتب لم نقرأها ، ولم نلتفت إليها ، ولا سيما كتب القصة والتاريخ .

وقد كان مع سعة اطلاعه صادق الملاحظة ، نافذ الفطنة ، حسن التخيل ، سريع التمييز بين ألوان الكلام ، فلا جرم أن تهيأت له ملكة النقد على أرفاها لأنه يطلع على الكثير ويميز منه ما يستحسن وما يأباه فلا يكلفه نقد الأدب غير نظرة في الصفحة والصفحات يلقي بعدها الكتاب وقد وزنه لا يتأتى لغيره في الجلسات الطوال .

لم يسبقه أحد فيما أذكر إلى تطبيق البلاغة النفسية – السيكولوجية – المستمدة من أدب الغرب على ما يقرؤه من شعر الفحول في اللغة ، ولعله أول من كتب في لغتنا عن الفرق بين تصوير الخيال Imagination وتصوير الوهم Fancy وهما ملتبسان حتى في موازين بعض النقاد الغربيين . ومن ذلك التفرقة بين تشبيه الشفق والفجر بدم الشهداء في قول المعري :

وعلى الأفق من دماء الشهيد	ين علي ونجله شاهدان
فهما في أواخر الليل فجرا	ن وفي أولياته شفقان

وبين تشبيه ابن الرومي للأصلع حيث يقول :

فوجهه يأخذ من رأسه	أخذ نهار الصيف من ليله

(١) توفي عبد الرحمن شكري يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩٥٨ م .

فالأول وهم في خاطر المعري ، لا يلتفت إليه أحد غيره لو لم يذكره . والآخر خيال مطبوع يخطر لكل بديهة مصورة تتقن من التشبيه ما يتقنه الشاعر ، وقد كان يشمئز من بيت الوأواء الدمشقي :

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت	وردا وعضت على العناب بالبرد

ويقول إن نسبته إلى يزيد بن معاوية بلاء فوق طاقته فلا تجمع عليه «بين قتل الحسين وقول هذا الشعر الذي لا بأس به إذا أريد للفكاهة والعبث لا للغزل» .

وكذلك كان يحسب من المزاج الغث قول الأنباري :

ولما ضاق بطن الأرض عن أن	يضم علاك من بعد الممات
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا	عن الأكفان ثوب السافيات

وهو معدود من عيون الرثاء عند من ينظرون إلى اللفظ ولا ينظرون إلى بواعث الرثاء من النفس الإنسانية ، فمثل هذا الرثاء يقال للمكايدة أو للعبث ، ولا ينم على حزن دخيل ، ولا تقدير مفيد .

شكري الشاعر:

ولم يكن أمتع من الاستماع إلى شكري وهو يقرأ القصيدة العربية أو الأوربية ويعلق عليها بيتا بيتا أمثال هذه التعليقات .. وما كتبه من النقد في مؤلفاته قطرة من بحر من تلك الآراء النفيسة التي كان يرسلها عفو الساعة ولا يعنى بتقييدها .

وقد نظم شكري سبعة دواوين من الشعر غير القصائد التي لم ينشرها وتمتلئ بها كراسة في حجم ديوانين آخرين أو أكثر ، فمن تخير من هذه الدواوين المنشورة وغير المنشورة أمكنه أن يجمع منها زبدة من أجمل الشعر تضارع صفوة القول في كلام كبار الشعراء ، وقد كانت له قدرة على رياضة النظم كما نرى في ترجماته لبعض رباعيات الخيام ، فإن الترجمة أدل على قدرة النظم من التأليف لتقيد الناظم بالمعاني المنقولة التي لا يتصرف فيها فقد أحسن فيما نقله من الخيام غاية الإحسان حيث يقول :

هاج للقلب جدة الحول أشجا	نا لديه قديمة العهد

تأنس النفس بالتفرد والوحد ... ة في ظل عيشه الرغد
حيث تحكي الأزهار راحة موسى ... في بيض النوار والورد
ولها نفحة كأنفاس عيسى ... بعثت للميت من لحد

أو يقول :

ارم قد عفت وصوح قدما ... في رباها الربيع والزهر
كأس جمشيد، قد مضت حيث لاحيـ ... ـث لدينا من أمرها خبر
لكن الكرم لايزال جوادا ... برحيق حبابه درر
ولنا منزل على الروض فينا ... ن تروى أزهاره الغدر

أو يقول :

هات لي الكأس ياحبيبي دهاقا ... لا تطع عاتبا كئوس العقار
إن ثوب الوقار ثوب شتاء ... ليس يغني في الصيف ثوب وقار
اغض عنك الوقار وارم به في ... جمرات للقيظ مثل النار
إنما العيش طائر بين غصنيـ ... ـن فخذه مآخذ المستطار

وهذه طبقة من الطلاوة والجزالة من سلست له في مترجماته كانت في مبتكراته أسلس وأوفر ، وقد توافرت لشكري مقطوعات أبيات في هذه الطبقة من بلاغة الأداء ، وكان خليقا أن تتوافر له في كل نظم لولا أن التفاوت طبيعة في أعمال العباقرة والموهوبين ، ولولا أنه كان قليل الاحتفاء بالمراجعة والتنقيح يرسل شعره إرسالا كما قال :

أرمي بشعري في حلق الزمان ولا ... أبيت منه على هم وبلبال

ولكنه – على قلة احتفائه بالتنقيح – قد خلص له من جيد الشعر ما يسلكه في عداد المجددين من نخبة الشعراء .

وله عدا ذلك في ميدان القريض فضل الرائد الذي سبق زمانه في عدة حسنات مأثورات، فهو من أسبق المتقدمين إلى توحيد بنية القصيدة وإلى التصرف في القافية على أنواع من التصرف المقبول ، فنظم القصيدة من وزن واحد ومقطوعات متعددة القوافي ، ونظمها مزدوجات وأبياتا من بحر واحد بغير قافية ملتزمة ، وآثر في تجاربه الأخيرة أن يلتزم القافية مع تعديدها في

مقطوعات القصيدة الواحدة ، وتسنى له في جميع هذه المناهج أن ينظم الكثير من القصص العاطفية والاجتماعية قبل أن يشيع[1] نظم القصص في أدب الحديث وله فيها قصيدة اليتيم التي يقول فيها :

وما اليتم إلا غربة ومهانة ... وأي قريب لليتيم قريب؟
يمر به الغمار مثنى وموحدا ... وكل امرئ يلقى اليتيم غريب
يرى كل أم بابنها مستعزة ... وهيهات لا يحنو عليه حبيب
إذا جاءه عيد من العود عاده ... من الوجد دمع هاطل ووجيب
كأن سرور الناس بالعيد قسوة ... عليه تريق الدمع وهو صبيب
عزاءك لا يلهيك الضيم أننا ... يتامى ولكن الشقاء ضروب
فهذا يتيم ذاق صفو عيشه ... وذلك من الصحب الكرام سليب

ونذكر هذه القصيدة خاصة لسبب غير دلالتها على نماذج شعره في هذا الباب . إذا كانت من أسباب وجومه الذي لزمه من مقتبل شبابه وكان من دواعي هذا الوجوم أن هذه القصيدة اختارها الأستاذ محمد أمين واصف في كتاب من كتب المطالعة مستحسنا لها ، موصيا بحفظها ، من دون أن يذكر اسم صاحبها . لكن هذا الإغفال مما ألم الشاعر أشد الإيلام لأنه كان يفهم – كما قال لنا – أنه يغفل ذكره لاستهجان شعره ، فأما أن يكون الإغفال حجرا عليه مستحسنا ومستهجنا فذلك كنود عجيب .

ولقد كان بعض الإنصاف خليقا أن يلطف من وحشة الشاعر التي لازمته منذ بواكير شبابه ، لكن التوعر على نكران فضله بين من يعرفونه ومن يجهلونه محنة لم يكن ليصبر عليها طويلا ، مع ما فطر عليه من الحس المرهف والملل السريع .

ففي نحو العشرين نظم شكري هذه الأبيات :

لقد لفظتني رحمة الله يافعا ... فصرت كأني في الثمانين من عمري
وحاول مني الهم صبرا فلم أزل ... أدافعه حتى أبحت له صدري
وإني لأدري أن في الموت راحة ... وأجنبه حتى كأني لا أدري
ولولا تقى لا يملك اليأس صرفه ... لأوردني يأس على المسلك الوعر

(١) لعل شاعر الأقطار العربية خليل مطران قد سبقه إلى ذلك . ففي ديوانه الذي صدر في سنة ١٩٠٨ قصص شعرية نظمت قبل سنة ١٨٩٠.

وقد عاش بقية عمره بهذه الوحشة وهذا الملل وهذا التردد بين اليأس والرجاء لا يدرى ما يدافعه من خيبة فى حياته الأدبية ولا من خيبة فى حياته الوجدانية ، وكلها أثقل وأمض من أن تطاق فى حالة السليم الجليد فلما أطبقت عليه العلة الوبيلة - علة الشلل - ران عليه وجوم الأبد قبل الهرم وقبل الموت فترك الدنيا ومن فيها وما فيها ، ولم يحفل حتى بأن يقول إنه تركها غير مأسوف عليها ..

شكرى الناثر :

والشاعر الناقد (شكرى) كاتب ناثر على أسلوبه ومنهجه فى السهولة والسلاسة وقلة الاحتفال بالتنقيح والتجميل ، لكن نثره شعر ونقده لا تقرأ مثله لشاعر غير ناقد أو لناقد غير شاعر .

ومن مؤلفاته النثرية كتاب «حديث إبليس» وكتاب «الاعترافات» وكتاب «مذكرات مجنون» عدا فصوله المجموعة فى كتاب «الصحائف» وكتاب «الثمرات» وطابعها الغالب عليها جميعا أنها وحى نفسه الذى لا يشبهه فيه كاتب يطرق هذه المعانى والأغراض ، فهى «شكرية» فى كل صفحة من صفحاتها وكل فقرة من فقراتها يكاد يميزها اللفظ المسترسل ، كما يميزها لون الفكر والوجدان .

يقول من فصل له عن هيبة الحياة وهيبة الموت

«إننا أغرينا الناس بأن لا يهابوا الحياة خفنا أن يغريهم ذلك بأن يغالوا فى حب الحياة حتى يجبنوا ..وإذا نحن أغريناهم بأن لا يهابوا الموت خفنا أن يدفعهم ذلك إلى كره الحياة والرغبة فى التخلص منها فخليق بنا أن نحثهم على أن يجعلوا بين الرهبتين موازنة كى لا ترجح إحداهما . ولكن الإنسان لا يملك صحة نفسه وسقمها .. فإن وراء رغبته فى صحة نفسه عوامل لا يملك لها دفعا مثل الوراثة والتربية والبيئة فإذا تحالفت هذه الأسباب على أسقام نفسه بأن تجعله جبانا أمام الحياة ، أو جبانا أمام الموت ، كان ضحية لها ولا تنفعه نصيحة الناصحين شيئا» .

وخذ ما شئت من صفحاته تجد فيها ما نجده فى هذه الملاحظة من استيحاء شعوره وفكره والاستفادة من مراقبته لنفسه ولغيره ، ثم إرسال التجربة على الورق كما يرسل الحديث فى مجلس السمر عفوا بلا كلفة ولا مراجعة بين مصدره من النفس ومورده من التعبير .

إن «عبد الرحمن شكرى» شاعر ناثر نسيج وحده فى فنه ، ومن توحده فى هذا الفن أننا نتلقى تعبيره من «شخصية» فذة لا يحكيها غير صاحبها ، وإن جال به الفكر اللماح والاطلاع الواسع فى كل مجال .

ولقد عرف شكرى الناس معرفة أحزنته أشد من حزنه لجهلهم إياه ، فإن عادوا فعرفوه فلعلهم يرضون أنفسهم بإرضائهم لذكراه ..

هؤلاء حادثتهم

نشأت وليس أحب إلى من الاطلاع على تراجم العظماء ، ولكننى على فرط شغفى بالاطلاع على تراجمهم لا أشعر قط نحوهم بذلك الشعور الذى يغلب على كثير من الناس ، وهو شعور الميل إلى رؤيتهم والاتصال بهم ، إن كانوا من الأحياء ، وقد يتفق لى أن أقرأ عن أحدهم أو أقرأ له كثيرا من الأوصاف والآراء ، ثم يحضر إلى مصر وتتاح لى فرصة لقائه ، فلا أكره لقاءه ولا أخف إليه ، ولكننى أستطيع أن أفرض أنه لا يزال فى بلاده ، دون أن يكلفنى هذا الفرض أقل عناء .

إننى أحب غاندى وأكبره ، وقد عبر بمصر فى طريقه إلى لندن ، وأرادت صحيفة البلاغ أن تنتدبنى للقائه والتحدث إليه ومصاحبته فى السفر من السويس إلى بورسعيد ، فلم أنشط لهذه الرحلة ، ولم أشعر بأننى أزداد معرفة بالرجل أو إكبارا لقدره إذا قضيت معه هذه الساعات .

ومرجع ذلك فيما أظن إلى أسباب شتى منها تعودت أن أرى العظماء والمشهورين فى غير «هالتهم» التى تضفى عليهم ما تضفى من الغرابة ، وتثير فى نفوس الناس نحوهم حب الاستطلاع أو حب الاستشفاف من وراء الظواهر

والمراسم . وقد تعودت ذلك لأننى نشأت فى أسوان حيث كنا نرى فى كل شتاء زوارا من الملوك وأولياء العهود والنبلاء وكبار القادة والساسة ورجال الأعمال ولكنا نزدحم على أبسط ما يكونون من البساطة ، فيرتفع عن أبصارنا غشاء الغرابة الذى يحيط بهم ويغرى الأنظار بالتطلع إليهم ، ونقدرهم من بعيد كما نقدرهم من قريب .

كانت الصحف والأنباء البرقية تتحدث عن ملنر وكتشنر ، وكان أهل أسوان يرون ملنر فى قهوة بلدية أكثر روادها من الحمالين والتراجمة والأكارين ويرون كتشنر على دكة خشبية أمام بيت من بيوت مشايخ العرب .

وكان علماء الأرض الذين تنقل مجلات العلوم آراءهم وبحوثهم وتعتمد عليهم الحكومة فى بعوث الكشف والتحقيق يفدون إلى أسوان أحيانا فيزوروننا فى المدرسة ونزورهم ، ونألف أن يكون كبار العلماء أناسا مألوفين .

ذلك سبب من أسباب .

أما الأسباب الأخرى فمنها حب العزلة الذى ورثته وطبعت عليه ، ومنها أننى أتطلع إلى معرفة العظمة حقيقة لا صورة ، وأحسب أن رؤية لحظة أو لحظات لا تعرفنى بالعظيم إن لم تعرفنى به قراءة يوم أو أيام .

لهذا لم أنشط كثيرا إلى لقاء مشاهير العالم الذين تهيأت لى الفرص للقائهم ومحادثتهم، ولم أتوسل بعملى فى الصحافة إلى محادثة أحد منهم إلا لغرض غير حب الاستطلاع أو حب التقرب من ذوى الأخطار .

فحادثت أحمد مختار الغازى ، وحادثت سعد زغلول، وحادثت أمير لودفيج وكان باعث الحديث فى كل مرة سببا غير حب الاستطلاع من جانبى أو إرضاء المستطلعين من جمهرة القراء .

أحمد مختار باشا الغازى:

ومختار الغازى كما يعلم قراء التاريخ القريب بطل من الأبطال العسكريين الذين اشتهروا فى حروب روسيا والدولة العثمانية .

كانت له شهرة عالمية ومكانة موقرة وأرادت الدولة العثمانية أن تنيب عنها فى مصر مندوبا ساميا ملحوظ المكانة ، ليستطيع بمكانته - فقط - أن يوازن مركز

المندوب البريطانى بما فى يديه من السيطرة والنفوذ . فاختارت مختارا لهذا المنصب ، وعرف فى مصر باسم القوميسير .

ولم يكن له عمل فى السياسة المصرية ، بل كانت كل أعماله من قبيل التشريفات وحضور الصلاة فى يوم الجمعة مع أمير البلاد .

ولكنه كان يسأل : «ماذا تعمل فى مصر؟» . فكان يقول : «إننى احتجاج حى على وجود الاحتلال» .

ولما خطر لى أن أحادثه كان هذا الخاطر فى الواقع «شيطنة شباب» .. لأننى أردت أن أنقل باسم هذا الرجل الجرىء كلاما يسمع منه ولا يسمع من غيره ، وكان المحمل المصرى قد تعرض يومئذ لهجمة من هجمات الأعراب فى طريقه إلى مكة ، وكانت الجزيرة العربية ولاية عثمانية ، فليس أجدر من القوميسير العثمانى أن يسأل عما جرى فيها ، وبخاصة حين جرى لأناس من الحجاج المصريين فى حماية فرقة مصرية .

كان مختار الغازى ضئيل الجسم قصير القامة . ولكنه كان مهيب الطلعة كأنما تشتعل فى عينيه نار موقدة ، فلما تحدثت إليه لم يتحفظ ولم يبال أن يقول كل ما عن له أن يقوله عن إهمال الإنجليز للقوة العسكرية المصرية ، ولا أذكر تفصيلات حديثه اليوم ولا يتيسر لى أن أبحث عنه فى مراجعه لنقله بنصه ، ولكنى أذكر أنه قال : «إن الإنجليز أهملوا جيش مصر . وأننى بقوة كقوة المحمل أفتح الجزيرة العربية !» .

وكنت أكتب يومئذ فى صحيفة الدستور لصاحبها الأستاذ الجليل محمد فريد وجدى بك، فلما رويت له ما سمعت من الغازى ابتسم وقال : «إنك لا تذكر حادثة الحدود .. فإن كلاما أقل من هذا الكلام قد أثار الإنجليز على أمير البلاد ، فكيف تظنهم يتلقون مثل هذا الحديث من رجل يتبرمون به وبمركزه فى الديار المصرية ؟» .

ونشرنا ما تيسر نشره يومذاك ، ولكنه على خفته بالقياس إلى ما قبل قد أقام الدنيا وأقعدها فى الدوائر الإنجليزية ، وأحسبه كان من أسباب سعيهم الحثيث فى نقل الغازى والمساومة على مركزه فى الآستانة .

سعد زغلول:

وحديثي مع سعد زغلول خليق أن يشار إليه، لأنه فيما أعتقد كان أول حديث لصحفي مصري مع أحد الوزراء المصريين.

ونحن في العصر الحاضر نفتح الصحف اليومية والأسبوعية فلا يفوتنا حديث وزاري في عدد من أعدادها المتلاحقة.

لقد أصبحت محادثة الصحفيين المصريين لوزراء هذا البلد مادة صحفية دائمة، ومورداً ميسوراً لكل قاصد.

ولكن صحف مصر قد عبرت في الجيل الماضي سنوات بعد سنوات، دون أن يسمع فيها صوت «ناظر» من النظار كما كان الوزراء يسمون في ذلك الحين

لأن النظار كانوا في عزلة عن الرأي العام، وكان الرأي العام في عزلة عنهم، فلا يجسر أحد منهم على الإفضاء بحديث عن سياسة «نظارته» إلى جمهور المصريين.

* * *

وعلمت أن سعداً رحمه الله ناظر ولا كالنظار، وأنه لا يبالي ما يباليه زملاؤه من غضب قصر الزيارة أو غضب المستشار.

فأردت أن أحطم هذا السد بين الوزارة المصرية والأمة المصرية، وهمني أن أحادث سعداً على الخصوص لأنني كنت أعجب به وأترقب لمصر نهضة وزارية على يديه، وكان في تلك الأيام عرضة لحملة جائرة من بعض خصومه، وكنت أعد أنها جائرة. لأنهم زعموا أنه حارب الجامعة وهو الذي رصد لها عشرة آلاف جنيه في ميزانية الدولة، وزعموا أنه حارب التعليم باللغة العربية وهو الذي دفع الطلاب دفعاً إلى مدرسة المعلمين، وجعل لهم مرتبات شهرية وهم في سلك الدراسة ليخرج منهم أساتذة يحسنون الدروس باللغة العربية، وزعموا أنه مالأ الإنجليز على تقييد التعليم وهو الذي كان يطوف البلاد من أسوان إلى رشيد لمحاربة الأمية بتعميم المكاتب الأولية.

فاتخذت من حديثي معه وسيلة لدفع هذه الشبهات بالأسانيد الرسمية، وحصلت فعلاً على تلك الأسانيد، ورأيت بعيني ما يثبت لي صدق ما ظننته في

عزيمة سعد واحتفاظه بكرامته وكرامة منصبه، لأن المستشار العنيد -دانلوب- جاء يستأذن في عرض أوراق عليه، ولم يكن مستشار إنجليزي يستأذن في عرض أوراق، بل كان ينظر في كل مسألة بنفسه ويعرض ما يشاء من ذلك على الوزير للتوقيع.

نشرت حديثي مع سعد في شهر مايو سنة ١٩٠٨ بصحيفة الدستور، ولم أحادث سعداً باقتراح من الأستاذ الجليل صاحب الصحيفة، ولكن الأستاذ الجليل من كتابنا القلائل الذين يعرفون حرية النشر، وكثيراً ما خالفته فيما أكتب وأنا يومئذ في مطلع حياتي الصحفية، وربما ذهب في مسألة من المسائل إلى رأي وذهبت إلى غيره، فلا يرى حرجاً في نشر ما أكتب كما أراه.

أميل لودفيج:

أما أميل لودفيج لم يكن له عملاً صحفياً، ولا أنا أردت أن ألقاه لأنشر ما يجري بيني وبينه من الأحاديث ولكنه حضر إلى القاهرة فأقامت له المفوضية الألمانية حفلة استقبال في دار وزيرها، وأحب أن يتعرف لهذه المناسبة إلى أناس من المشتغلين بالأدب والدعوة الفكرية من المصريين فكنت أحد المدعوين.

وتصافحنا في مزدحم من الأجانب والمصريين والرجال والسيدات، فقال لي أنه يود لو تلاقينا في فرصة أخرى.

وكان صديقي الأستاذ محمود الدسوقي سكرتيراً شرقياً للمفوضية الألمانية فدعانا معاً إلى اللقاء في حجرة من حجرات المفوضية وآثر لودفيج أن نتحدث على انفراد.

وأحسست من أسئلته الأولى أنه ينزع في مسائل المجتمع والسياسة نزعة اشتراكية معتدلة، فقلت إنني أوافق الاشتراكيين في كل ما يؤدي إلى تحسين أحوال الفقراء والأجراء، وأخالفهم في كل ما يؤدي إلى حرمان الفرد حريته الفكرية والشخصية.

فقال «حسن، حسن» وكررها مرات.

ثم أحسست أنه قد اطمأن إلى بعد لحظات من الحديث وتبادل وجهات النظر، لأنه أفضى إلى بأصرح ما دار بينه وبين المصريين والأجانب من الأحاديث العامة في المسائل الوطنية والعالمية .

ثم سألني : «عندكم في مصر قوة تقدم ، وقوة محافظة وجمود ، وقوة بريطانيا العظمى، فأيها يكون له التغلب فيما تظن ؟ »

قلت : «أتسأل عن المدى الطويل أم المدى القصير ؟ »

قال : «بل عن المدى الطويل» .

قلت : «سيكون الغلب لا محالة لقوة التقدم»

قال : «يسرني أن أسمع منك ذلك»

* * *

واستطردنا إلى الكلام عن مؤلفاته فوجدته قل ما يكون رضى عن قصصه ، وأكثر ما يكون رضى عن تراجمه ولا سيما ترجمة نابليون فيما أذكر ، فقلت له أيضا : «يسرني أن أسمع منك ذلك ، لأنه هو الصواب فيما أراه» .

وتركته وفي نفسي أثر من لقائه يقارب الأثر الذي استخلصته من قراءة كتبه، وهو أنه صحفي راق ، وأن تواريخه وأدبياته أقرب إلى تبليغات المجلات أو تعليقاتها ، وإن كانت تفوق بعض ما يكتبه المتخصصون من البحوث والدراسات ، لأنه يكسوها طلاوة لا تجدها كثيرا في تلك البحوث والدراسات .

برنارد شو في أسوان:

شمس ربيعية لم تعترف قط بالشتاء ، وأرض تحمل في كل بقعة من بقاعها سمات التاريخ الذي يطوي الفصول والسنين ، ونيل خالد وقور يوحي إليك أن تقيسه بألوف العهود والأجيال ولا تقيسه بألوف الفراسخ والأميال ، وجبال من حولك كأنها أسوار تدور على صومعة ناسك لا تراه بالعينين ، أو كأنك تسمعه بأذنيك يقول في سكينته الأبدية : «ها أنا ذا لا أحفل بشيء في دنياك فماذا أصابني على مر الزمن ؟ لا شيء .. فلا تحفل يا بني بشيء ! » ..

تلك هي أسوان لي هذا الشتاء ، وفي كل شتاء ، وتلك هي أسوان التي أقضي فيها بضعة أيام ، وفي وسعي أن أقول بضعة قرون حين تغمرني تلك الآفاق التي لا تعرف حساب الأيام .

أجازة من عالم السياسة ، ومن عالمنا الصاخب في غير طائل ..

وهل في العالم من يستغني عن هذه الإجازة من سنة إلى سنة أو من حين إلى حين ؟ ..

ساء حظه أن يستغني عنها ، لأنه لن يستغني عنها إلا إذا أضاع نفسه فيها .

ولقد سن لنا الله سنة الإجازة من الحياة كلها في كل يوم ، فهل نستغني عنه في هذا الشغل الشاغل الذي يبغض الحياة إلى نفوس الأحياء ؟ ..

معاذ الله خلق النوم لنا «إجازة يومية» من الحياة ، وليته خلق للحيوان «السياسي» بالطبع كما يقول أرسطو - إجازة شهرية ينام فيها عن سياسته .. فإن غفلة النوم أروح له من هذه الغفلة الدائمة وهو سهران ! ..

وبحمد الله لا أزال أعرف هذه الإجازات ، وإن لم أكن في بطالة ،

ألا يقدر الناس على الغفوة بعد الغفوة وهم في وسط الحركة والضجيج ؟ ..

بلى يقدرون..

* * *

وفي وسط الحركة والضجيج ، بل في وسط المعمعة كما كان يفعل نابليون على ظهر جواده ، أستطيع أن أغمض عيني في عالم الأحلام فأذهب في إجازة اليوم أو الشهر أو العام .

وإنني في تلك الغفوة لأيقظ ما أكون ..

إنني في تلك الغفوة أهيم في أحلام الشعر والأدب ، فلا تقوى معركة «المازن» نفسه على إخراجي من ديوان شعر أو صفحات كتاب أغلق أبوابه على !

وقلت : هي إجازة في كتاب ، حين قلت لنفسي : «إلى أسوان .. إلى أسوان»

لقد كان كتابا حسنا من وجوه كثيرة ، وأحسن ما فيه أن كاتبه هو الفيلسوف «جود» وموضوعه هو الداعية المشهور «برنارد شو» ..

فالكاتب أعظم من المكتوب عنه فى أكثر من ناحية واحدة ، وهى على الأقل ناحية الفلسفة وناحية الآراء الاجتماعية ..

وإن شئت فقل أيضا من ناحية الآراء السياسة والمبادئ الدستورية ، وهى اليوم شغل شاغل للصحافة والقراء !

* * *

بين دوى العجلات ، ودوى الدعوات ، فتحت الكتاب أطوى صفحاته والقطار يطوى الأرض «كطى السجل للكتب» ، كما جاء فى القرآن الكريم ..

ولم تمض أربعون صفحة حتى وجدت نفسى على أبواب البرلمان من طريق آخر : طريق الآراء والنظريات ، لا طريق المعارك والأزمات ! ..

صاحبنا الفيلسوف «جود» ينظر إلى «برنارد شو» نظرة التلميذ إلى الأستاذ ، لأن شو كان شيخا يقود الحركة الفكرية يوم كان «جود» طالبا ناشئا يتلمس طريقه فى مضطرب المذاهب والمعتقدات

وصاحبنا «جود» يرشح نفسه للنيابة عضوا اشتراكيا مع حزب العمال ، فيكتب إلى «برناردشو» مستشيرا قبل الإقدام على هذه التجربة .. لأنه أستاذه فى هذا الميدان ، ولأنه زعيمه فى النزعة الاشتراكية قبل عدة سنين ..

وأحسب أننى لو كنت فى موضع «جود» لما استشرت الداعية الكبيرة فى أمر من الأمور لأننى على ثقة أنه يخالف كل ما تقترحه عليه ، فلو كنت عضوا فى البرلمان واستشرته فى الخروج منه لسخر من إقدامك على هذه الخطوة التى لا معنى لها !

ولو كنت كاتبا واستشرته فى دخول البرلمان لسخر من إقدامك على هذه الخطوة التى لا معنى لها كذلك ..

لأن كل اقتراح تعرضه على الداعية الساخر لا معنى له على الإطلاق !

فلا معنى إذن لأن تعرض عليه أى اقتراح !

ولكن «جود» قد أراد أن «يسأل» على ما يظهر مجرد سؤال .. ثم لا يعول على الجواب ..

وهكذا سأل ، وهكذا جاءه الجواب الذى لا شك فيه ..

قال له «شو» إن الفلاسفة الذين دخلوا البرلمان غير قليلين ، ومنهم «ميل» و «برادلو» و «وب» الذى كان عضوا فى الوزارة .. فهل صنعوا شيئا هناك ؟

وقال له إن «تشرشل» لم يكن عضوا فى البرلمان حتى الحرب العالمية ، ثم ساقوه إلى دائرة انتخابية أخلوها له ، لأنهم فى حاجة إليه ، فقد كان شيئا مهما قبل أن يرشح نفسه للنيابة البرلمانية

وقال له إنه هو نفسه قد رفض النيابة يوم عرضوها عليه وكرروا العرض مرات ، ثم لم يندم قط على الرفض والإصرار ..

وقال له أخيرا : «إن ورق اللعب لا يزال أمامك على المائدة ، فإن شئت فجرب حظك والعب ورقك .. » ثم تواضع «شو» فى ختام خطابه ، لأن التواضع من مثله رياضة محبوبة بين «الادعاءات الكثيرة» .. فقال فى شىء من الملل : «وهذه على كل حال آراء رجل كان ينبغى الآن أن يكون ميتا لأنه قد بلغ من الهرم أقصاه ! ».

ولم يثن «جود» عن عزمه بهذه النصيحة ، بل كتب إلى أستاذه يبلغه أنه ماض فى ترشيح نفسه ، فجاءته منه تذكرة بريدية يقول فيها : «حسنا .. إنك سوف تتعلم على الأقل شيئا واحدا ، وهو أن تعرف كيف لا تعمل ! »

ثم شفعها بتذكرة أخرى وقال فيها : «امض فى عزمك بكل وسيلة .. فقد تحصل على تجربة مباشرة لا تخلو من فائدة للفلاسفة السياسيين» .

وبعد هذه النصائح المختلفة عدل «جود» عن ترشيح نفسه لأنه لم يرض عن أساليب الأحزاب فى الترشيح ، لا لأنه عمل برأى الداعية الكبير !

* * *

تلك هى إجازتى فى هذا الكتاب ..

إجازة ، ولا إجازة .. !

إجازة لأنها رحلة فى عالم الفكر والنظر ، ولا إجازة لأنها تعود بنا إلى السياسة فى بعض الطريق ..

وفى من هنا خبرة حسنة ، لأننى قد أكون فى إجازة القراء «... ملون» !

وما الرأى بعد هذا فى نصائح «برناردشو» لتلميذه الفيلسوف ؟

ما الرأى فى تقديره لعمل الأديب ، وعمل العضو فى البرلمان ؟

الرأى الذى لا يتسع فيه الخلاف أن الفيلسوف قد يصنع شيئاً فى المجالس النيابية ولكنه ليس بخير ما يصنع وأنه إذا جرب مهنة الترشيح مرة بعد مرة خليق أن ينبذها بعد ذلك لا محالة ، لأنها تهبط به إلى المساومة الرخيصة والوعود الكاذبة ، ولا ترتفع به قيراطا واحدا فوق مستواه ..

ومن ذا الآن ولهذه الظلمات ؟ ..

إن الشمس ساطعة باسمة ، وإن مشاهد التاريخ بمعالم الحمد من حولنا قائمة ماثلة !!

فهلم إلى النور .. !

لسان الهلباوى

كان فى مصر قبل الثورة العرابية حزبان سياسيان أحدهما حزب محمد شريف باشا ، والآخر حزب أحمد رياض باشا ..

وقد يخطر للقارئ العصرى أن تعريف الأحزاب بالأشخاص دليل على أن الحركة كلها شخصية لا علاقة لها بالبرامج السياسية

ولكن الواقع أن تعريف الأحزاب بالأشخاص كان سنة معروفة فى ذلك العصر حتى فى أعرق الأمم البرلمانية .. فكان الحزبان المتناظران فى انجلترا يعرفان يومئذ باسم حزب غلادستون وحزب بكنسفيلد ولم يكن ذلك دليلا على وحدة البرامج بين الحزبين ..

وقد كان الحزبان المصريان كذلك مختلفين فى البرامج ، ولم يكن الخلاف بينهما مقصورا على الانتماء إلى هذا الوزير أو ذاك الوزير ..

كان حزب «شريف» أقرب إلى التجديد السريع ..

وكان حزب «رياض» أقرب إلى المحافظة مع التقدم فى رفق وأناة ..

وكان الهلباوى بك ناقما على رياض باشا لسبب من الأسباب ، فكان يطلق فيه لسانه ويكتب عنه ما لا يرضيه .

فأمر عالما من رجال الدين أن يستجوب «الشيخ إبراهيم الهلباوى» تمهيدا لمعاقبته .. فبدأ العالم المحقق كلامه بتهديد الشيخ الناشئ ، واستطرد قائلا : إن ناظر النظار سيخرب بيتك إن لم تكف عن الحملة عليه ..

فضحك الشيخ إبراهيم وأجابه ساخرا :

- إنه لا يستطيع ..

فعجب العالم المحقق : كيف لا يستطيع وهو ناظر النظار والحكومة كلها فى يديه ؟

وقال الشيخ إبراهيم : وليكن ناظر النظار أو أكبر من ناظر النظار : ليكن أمير البلاد .. ليكن خاقان البرين والبحرين ، بل ليكن «الله» جل جلاله ، فإنه لا يستطيع أن يخرب لى بيتا..

ففزع العالم المحقق ، وخيل إليه أن المسألة تنتقل من التمرد والعصيان إلى الكفر بالله ، والعياذ بالله ! ..

فصاح بالشيخ الناشئ حنقا : أهذا الذى تعلمتموه من جمال الدين ؟ ..

وكان جمال الدين مظنة «الزندقة» عند بعض العلماء فى ذلك الحين ، فطاب للعالم المحقق أن يجد فى كلام التلميذ برهانا على زندقة الأستاذ ..

وكان الشيخ إبراهيم الهلباوى من تلاميذ جمال الدين .. فلم يكن أسرع منه إلى رد التهمة إلى المتهم ، وقال لصاحبنا : «بل هذا الذى تعلمناه منكم قبل أن نتعلمه من جمال الدين !» ..

قال الرجل : أعلمناكم الكفر نحن ؟ ..

قال الفتى المتحذلق : بل علمتمونا أن قدرة الله لا تتعلق بالمستحيل .. وخراب بيتى مستحيل لسبب واحد ، وهو أنه ليس لى بيت ! ..

على أن تلمذة الهلباوى لجمال الدين لم تكن تمنعه أن يستطيل عليه بمثل هذه الحذلقة إذا «حكمت القافية» كما يقولون . فلعله هو التلميذ الوحيد الذى كان يجترئ على السيد بالدعابة فى مجالس الدرس أو مجالس الحديث ..

قال لي عظيم من عظماء هذا العصر الذين حضروا كثيرا من تلك الأحاديث أو تلك الدروس – وكانت كل أحاديث جمال الدين من قبيل الدروس: إن السيد كان يتكلم يوما عن بعض الرذائل التي تصيب الجسد والنفس الناطقة، وبعض الرذائل التي تصيب الجسد ولا تمس النفس الناطقة..

فقاطعه الهلباوي قائلا: يا خبر! وهل السيد من هؤلاء؟ فانتفض السيد مغضبا وصاح به: اغرب عني أيها الخبيث.. لعنة الله عليك!

والهلباوي الذي تدل عليه هاتان النادرتان هو الهلباوي الذي عرفه الناس طوال حياته، ويمكنك أن تخصه في عبارة واحدة، وهي أنه رحمه الله كان «ذلاقة لسان لا تطيق نفسها ولا تريح صاحبها».

ومن هذه الذلاقة المتعجلة كان يؤخذ الهلباوي في كل ما هو مأخوذ عليه..

سمعت عنه قبل أن أراه، أو تستمع عنه ممن رآه..

كان أشهر المحامين بين الفلاحين بلا استثناء، وكان من آيات شهرته أنها دخلت في النكتة المصرية.. فكان الذين يساومون القصابين في شراء لسان الذبيحة يقولون إذا اشتط عليهم القصاب في الثمن: والله ولا لسان الهلباوي.

وسمعنا بشهرته كاتبا كما سمعنا بشهرته محاميا، فكان عنوان مقالاته «إلى أي طريق نحن مسوقون» يتردد على كل لسان، وكنا نسمع به وإن لم نقرأ تلك المقالات.

ثم أدركته آفة التعجل وقلة الاستقرار، فتحول في الوطنية إلى خطة «الاعتدال» وفسر الاعتدال بمصانعة الاحتلال..

ثم كانت الطامة الكبرى، ونعني بها «قضية دنشواي» التي وقف فيها موقفا ظل نادما عليه طول حياته.

وعن قضية دنشواي قلت في كتابي سعد زغلول: «لقد كنا أربعة نقرأ وصف التنفيذ في أسوان، فأغمي على واحد منا ولم نستطع إتمام القراءة إلا بصوت متهدج تخنقه العبرات».

ويستطيع القارئ إذن أن يتخيل مبلغ السخط الذي أثرته في نفوسنا رؤية الهلباوي باسما وجها لوجه في دار الجريدة، يوم ألقى الأستاذ لطفي السيد بك» خطبه الذي أشرنا إليه في الكلام على صاحب «المؤيد».

لقد كان اغتباطي شديدا بما أصابه من الأذى في ذلك اليوم، ولكني أقول إنصافا له إننا رأينا في الرجل شجاعة لم نرها في غيره من المقصودين بالهتاف العدائي ذلك المساء.. فقد أوى بعضهم إلى حجرات الدار حتى اطمأن إلى انصراف الجمهور الغاضب، وأبى الهلباوي إلا أن يقتحم الجمع خارجا من الدار في أبان الهياج، ولم يحفل بما تعرض له في طريقه من اللكم والإيذاء.

وغاب الهلباوي زمنا عن ميدان السياسة ثم ظهر بعد الثورة الوطنية معارضا لسعد زغلول، وكانت المساجلات بين الأحزاب يومئذ على أعنفها.. ولكني أشهد القارئ أنني ما وجدت القلم ينبعث في يدي انبعاثا إلى القول القارص العنيف كما كان ينبعث في الرد على خطب الهلباوي وأحاديثه، فردودي عليه فيما أعتقد كانت أعنف ما كتبت على الإطلاق..

ثم مضت الأيام، وشاء القدر أن يكون للهلباوي شأن في موقف من أهم المواقف في حياتي السياسية، لأنه الموقف الذي اعتزمت فيه جديا أن أترك الهيئة الوفدية مستقلا عن جميع الأحزاب..

كان الوفد والأحرار والدستوريون مؤتلفين على عهد الوزارة الصدقية التي عدلت الدستور..

وجاء اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر فعقد الأحرار الدستوريون اجتماعا في دار حزبهم، وذهبنا إليه تأييدا لمظهر الائتلاف..

وإذا بالهلباوي هو خطيب الاجتماع..

وإذا بي جالس أمامه على قيد خطوة واحدة، وإذا به يحتال في كلامه ليهملني عند مناسبة ذكري ويتجاوز الإهمال إلى التعريض.

وعلقت على الخطبة في اليوم التالي، ورآها فرصة سانحة لإرغامي باسم الائتلاف..

وجاءتني دعوة إلى بيت الأمة حيث يجتمع طائفة من أعضاء الوفد على رأسهم مصطفى النحاس (باشا).

ما الخبر؟..

الخبر – كما قالوا – أن مصير الائتلاف معلق على بيان مطلوب منا ، ونحب أن نتلوه عليك . .

قلت : وما شأني في هذا البيان ؟ . .

قالوا : بل الشأن شأنك ، لأن فحوى البيان أن الوفد لا يقر ما كتبت عن الهلباوي بك . .

قلت : إنكم أحرار فيما تكتبون ، ولكنني سأرد لا محالة على هذا البيان . وأقول لكم سلفا إنني أنا المسؤول عما أكتب ، ولم يعلم الناس قط ، أنني أكتب بإشارة من أحد .

ثم ذكرت لهم سابقة سعد مع اللورد جورج لويد حين حملت على اللورد من أجل زياراته للأقاليم ، وثار اللورد ثورته التي أوشكت أن تعصف بالبرلمان ، وأرسل إلى سعد من يقول له إن اللورد يعتقد أنه هو الموعز بتلك الحملة . فقال سعد كلمته المأثورة : «إنها تهمة لا أنفيها أو شرف لا أدعيه» ولم يفاتحني في الأمر حتى انقضت الأزمة ، لكي لا أفهم أنه يقترح على الكف عن الكتابة في هذا الموضوع . .

ولكنهم لم يقتنعوا وقالوا إن صدور البيان من الوفد أمر لا محيص عنه ، فإن شئت فاسمعه لتقترح تغييره أو تعديله فيما لا يرضيك . .

قلت : لن أسمعه ولن أسكت عن الرد عليه . .

في ذلك المساء زارني مكرم عبيد (باشا) والمرحوم صبري أبو علم (باشا) ، وسألاني : «ماذا صنعت ؟» .

قلت : كتبت ردا على البيان سينشر في عدد الغد من جريدة «مصر» – وكانت من الصحف الصباحية ، وفيها كنت أكتب مقالاتي كل يوم . .

فحاولا وقف المقال . .

فقلت لهما : إذ كنت لم أستطع أن أقنعكم بوقف بيانكم فلن تستطيعوا إقناعي بوقف هذا المقال . .

ثم قلت لهما : إنني أملك أن أنشره في غير الصحيفة الوفدية إذا حيل بيني وبين نشره فيها .

وكان قد جاءني فعلا من يعرض على العروض الطوال العراض لأعطيه المقال وينشره حيث يشاء . .

وبعد مناقشة طويلة ، قال مكرم باشا : إننا كنا نود لو قبلت رجاءنا وعدلت عن نشر مقالك . . أما وأنت مصر على نشره فاقبل منا رجاء آخر . .

قلت : ما هو ؟

قالا : أن يخلو المقال من الملام الشديد .

قلت : إنني إذا ذكرت الحقائق كما حصلت فلا حاجة لي إلى ملام شديد . .

ومضت سنوات ثلاث أو نحوها والهلباوي بك لا يقع لي في طريق .

وحدث في خلال تلك الجفوة بيني وبين المرحوم عبد القادر حمزة مناقشة دارت بيني وبينه حين كنت أكتب في صحيفة «الجهاد» . .

ثم زارني يوما بعد طول القطيعة ، وهو يقول لي : لقد مررت بدارك وأنا في مصر الجديدة فحمدت هذه الفرصة وقلت لنفسي : فلنزره إن كان هو لا يزورنا . . فما رأيك ؟ . .

قلت : إنه فضل لك سبقتني به وعلى أن أشاركك فيه . .

وزرته في دار البلاغ بعد يوم أو يومين ، فإذا بالهلباوي بك هناك . .

فكدت أهم بالرجوع . .

بيد أن الهلباوي كعادته هجام لا يتردد ، فجذب يدي وبدأني بالحديث

ولقد خطر لي في تلك اللحظة أن واقعتي معه آخر ما يذكره في تلك المقابلة ، ولكنها على عكس ذلك كانت أول ما ذكره وأسهب فيه ، وجعل يقول وهو يضحك : «كنت والله يارجل أحب أن يكتب الله لي ثواب إخراجك من تلك الجماعة ولكنه فاتني ، وأراك خارجا منها على التسعين . . !

وبعد حديث متشعب دعاني والأستاذ عبد القادر إلى قضاء سهرة في منزله . . فاعتذرت، وخرج معي حين انصرفت حتى افترقنا عند دار محمد محمود (باشا) رحمه الله . .

ويظهر أن رغبته في زيارتي له بقيت تساوره زمنا حتى صدرت صحيفة «روز اليوسف» اليومية ووليت الكتابة فيها ، فدعانا جميعا إلى قضاء السهرة عنده ،

وذهبنا إليه مع السيدة روز اليوسف والدكتور محمود عزمى ، وكانت فى الحق من أمتع السهرات ، لأن الرجل محدث ظريف لايمله المستمع إليه ..

ولقد كانت أحاديثه فى تلك الليلة أكثر من أن تذكر .. إلا أننى أذكر من طرائف السهرة أن السيدة روز اليوسف كانت تخاطب السيدة قرينته وهى تظن أنها زوجة ابنه ، لبعد الفارق بينها وبين زوجها فى السن .. ولم تزل على ظنها حتى نبهها إلى خطئها بنكتة من نكاته التى تناسب المقام !

نابغة من نوابغ عصره لامراء .. كان يسلم من كثير مما يؤخذ عليه لولا تلك الحيوية التى أقلقته وباعدت بينه وبين الصبر والاستقرار .

طــه حسـين

للقدماء ضروب من التوقر يستخف بها المحدثون ولا يحفلون بها وحق لهم أن يستخفوا ولا يحفلوا، لأنها ترجع إلى أسباب خاطئة فى زمانها فضلا عن الأزمنة الحديثة . وليس أدل على قلة الحياة من كثرة البحث فيما يجوز وما لا يجوز ، لأنه دليل على كثرة القيود .

وأول ضروب التوقر التى يحق للمحدثين أن يستخفوا بها اجتناب الكتابة عن الأحياء وقصر التاريخ ، والتقدير على من فارقوا الحياة . فربما كان مصدر هذا العرف عند القدماء أنهم كانوا يكبرون السلف ويحصرون فيه العلم والمعرفة والأدب والخلق والشهرة . كأنهم كانوا يستكثرون الجمع بين العلم والحياة أو بين الشهرة والحياة فى وقت واحد : فإما حياة وخمول وإما موت وشهرة ، ولا توسط بين الأمرين فى تاريخ العلماء والأدباء وتقدير حظوظ العلم والأدب .

وقد جرف العصر الحديث ذلك العرف جرف السيل فكثرت تراجم الأحياء ، بل كثرت تراجم الأدباء لأنفسهم بأقلامهم ونشرها فى أبان حياتهم ، وتلك علامة خير وصلاح لأن ما خف من جانب التوقر إنما يزيد الحياة ، لأن إساغة التاريخ للأحياء تدل على رحابة الصدر والتفاهم على الطبيعة الإنسانية فى جوانب كمالها ونقصها وإطرائها وعيبها ، ولأن العصر الذى يساغ فيه

الاعتراف ببعض العيوب هو العصر الذى تتوافر فيه المزايا والمحاسن ، فلا يضار المرء بالنقد لأنه يعرف حدود الطبيعة الإنسانية ، وما يبقى له بعد النقد من وجوه التحبيذ والترجيح .

ولست أنا من أعداء القديم حبا لعداوة القديم ، ولكننى أكره التحرج الكثير فى غير طائل، وأشايع زمنى فى هذه العادة خاصة ، فلا أرى حرجا فى الثناء على الدكتور طه حسين أو اغتيابه على ملأ من الناس .. ولهذا أجبت دعوة «الهلال» حين دعانى إلى إجمال رأى فى الصديق العالم الأديب ، وهو يعدنى أو ينذرنى بمثل هذا النصيب ، وقبلت الكتابة وأنا أرجو ألا أكون مغليا حين تنكشف الورقتان المطويتان ، إذ الكلام فى كلينا سر مكتوم عن صاحبه حتى يطلع الهلال ، وعندئذ تنتهى الغيبة وينجلى السر عمن أحسن الحيلة والتخمين.

أنا ضامن أن الدكتور طه حسين سيقول إننى شاعر ، فليضمن الدكتور طه حسين إننى أن أقول فيه إنه كاتب ناتج فى الأدب ، وخير ما نتجه كتابه «الأيام» وكتابه «فى الصيف» وهما الكتابان اللذان سرد فيهما بعض ما جرى له فى حياته ، فكان فيهما مثلا فى البساطة والثقة التى تعزف بصاحبها عن التماس التأثير المصطنع بالتعمل والتجمل والطلاء والتزويق ، فالموصوف فى هذين الكتابين صادق بسيط والوصف كذلك على مثل هذه الحال من الصدق والبساطة ، ولكنى لم أطلع على شيء يصف به الدكتور ما لم يجر له أو يصف ما يخلقه من الشخوص والحوادث فى عالم الرواية . فما علة ذلك يا ترى ؟

أنا ضامن أن الصديق الأديب سيجد عيبا أو عيوبا فى شعرى يقيسها بمقياسه ويقدرها بمعياره ، فإذا ضمنت هذا فليضمن الصديق الأديب أن علل قلة الوصف المخلوق فى كتاباته القصصية لعيب فيه ، هو قلة الخيال .. فهو يصف ما يعالجه من المحسوسات ولا يتخيل ما عداه من نقائضه أو مشابهاته، والعوض من ذلك عنده أنه يحسن البساطة التى يندر من يحسنها ويشعر بالكفاية التى تأتى من الثقة والاطمئنان إلى صدق الشعور ، وهو عوض فيه غنى لمن يحسن الاستغناء .

* * *

أما طه حسين الناقد فماذا أقول فيه ؟

أقول أنه اطلع على الأدب العربي القديم اطلاعه الواسع الذي لا جدال فيه ، واطلع على نفائس من أدب الإغريق واللاتين الأقدمين ، واطلع على آثار رهط من كبار الأدباء الأوروبيين ولا سيما الفرنسيين . كل أولئك خليق أن يحبب إليه الصحة والمتانة والقوة ويبغض إليه الزيف والسخف والركاكة . فهو يختار ما يعلو على مقاييس المقلدين المصطنعين، ويبذ ما يستطيبه المحدودون من أصحاب الاطلاع القليل أو أصحاب الذوق السقيم ، وله في ذلك قواعد صحيحة ومراجع وثيقة ، واعتماد على فكر لا ينقيد إلا بما يرضاه .

وإلى هنا لا أظن أن الدكتور سيعترف لي بأقل من هذا القدر في ميزان الكتابة المنثورة فأنا رابح على هذا التقدير .

ولا أظن كذلك أنه سيعترف لي في هذا الميزان بلا تعقيب ولا استدراك ، فلنسرع إذن إلى التعقيب والاستدراك ، ولا لوم ولا إجحاف .

فالدكتور صحيح الأصول في النقد ولكنه لا يوفق بين أصوله وطبيعته في كثير من الموضوعات ، وهو حين يقرر المبدأ على صواب غالب ، ولكنه حين يطبق المبدأ ينحرف أحيانا عن الصواب .

وعلة ذلك كما أسلفنا أن القاعدة والطبيعة عنده لا تتفقان فالطبيعة عنده لا تحتكم إلى الخيال والتصوير الخالق ، ولكنها تحتكم إلى الرأي والاطلاع فيقع من هنا التباين والاختلاف .

أليس الدكتور يوصي بمبدأ «الشك» أو مذهب ديكارت ؟

بلى ! ولكنك حين تقرؤه ترى له عبارات من التوكيد واليقين قلما تراها في عبارات الشاكين المترددين . فلا يعجب - أكثر ما يعجب - إلا أشد الإعجاب ، أو إعجابا لا حد له، ولا يقنع بما دون الإسراف وترديد كلمة الإسراف ، ولا يغضب الذين يتحدث عنهم إلا غضبا شديدا ، ولا يضيقون إلا أشد الضيق ولا يتكلمون إلا بصيغة المبالغة في معظم الأشياء .. ثم تنتقل من هنا إلى تشكيك يذكرك «بإن شاء الله» التي قالها جحا حين ضاع المال .. فقال ضاع المال إن شاء الله ..

كأن الدكتور يخاف من نسيان الشك خوف جحا من تلك الكلمة التي نسيها فضاع ماله، فأنت تسمع منه : «أزعم أنني ضحكت وقد أزعم .. وقد أتردد ..

وقد أقول وقد لا أقول» ، مع أن المرء لو أقسم جاهدا : «والله لأزعمن . وتالله لأترددن ، وبالله لأقولن» لما خرج بالقسم مع الزعم ، من دائرة الشكوك .

والقاعدة تستقر على اطراد إذا كانت هي والطبع على وفاق غير أنهما عرضة للاختلاف إذا وقع بينهما الخلاف ، ومن هنا نرى الدكتور يقول مرة أن أصول النقد الغربي واحدة قد وضعها اليونان قديما وفرغوا منها ، وتلقاها منهم الإنجليز كما تلقاها منهم الفرنسيون فهم لا يختلفون .

ثم نراه يقول بعد أشهر قليلة أن النقد ليست له أصول مقررة عند الناقد الفرد فضلا عن الأمم الكبيرة والعصور الكثيرة ، وأن الناقد يستحسن أو يستهجن والمرجع إلى ذوقه وحده في استحسانه واستهجانه .

ولعل هذا التباين بين القاعدة والطبع هو الذي جعل الدكتور ينكر الجديد إذا جاءه في زي القديم ، أو هو الذي جعله يطالب الشعر الحديث بأمور لا يطالب بها في حكم الطبيعة لأنه يجري في مطالبته على القياس .

وأقول للقلم : على رسلك ! إلى أين ؟ ما أحسبك إلا متوقعا الكثير من تعقيب الدكتور واستدراكه فأنت تستوفي المثل وتأمن أن تزيد .

ويقول القلم : ما أحسبني والدكتور مغلوبين على كل حال في هذه الصفقة ، وليس الحق فيها بمغلوب .

نعم ، وحساب الدكتور أو «رصيده» كما يقول في لغة المصارف كثير ، فيه بقية وافرة بعد كل تعقيب واستدراك .

وإذا قلت أن الدكتور أمن استحسان السخيف من الأدب فاختلافك بعد ذلك في زيادة القيمة التي يقوم بها الجيد أو نقصها إنما يغير الثمن ولا يغير جودة الشيء الثمين .

* * *

ومن حساب الدكتور طه حسين أنه رجل جريء العقل قويه ، مفطور على المناجزة والتحدي ، يستفيد مما يقتنع بصحته ومما يعينه على التحدي والتفرد فلا يحجم عن اتخاذه ، ولهذا تغير أسلوبه الكتابي بعد دراسته للأساليب الأوربية ، فاتخذ له نمطا يوافق علمه بالعربية الفصيحة وعلمه بتقسيم المقاطع

والفواصل فى الكلام الأوربى ، كما يتكلمه من يجمع بين الحديث والكتابة فى وقت واحد ، فهو يتحدث ولا ينسى أنه يكتب ، ويكتب ولا ينسى أنه يتحدث ، وأسلوبه الذى اختاره أوفق الأساليب لذلك جميعا وأولها من نوعه فى اللغة العربية ، وليس فيه محاكاة لأسلوب آخر فى اللغات الأوربية .

ولو كانت كتابته حديثا محضا لاسترسلت بلا توكيد ولا تكرير ، ولو كانت تقريرا محضا أو درسا محضا لما انحرفت عن أسلوب الكتابة الذى لا يتحدث به القائل ، ولو كانت تقريرا أو درسا على الطريقة الشرقية لما ظهرت فيها المقاطع والفواصل الأوربية ولجرت على سياق قريب من سياق الدروس الأزهرية ، ولكن كتابته حديث فيه محاضرة ومراجعة وتنظيم ، فلا يوافقها إلا ذلك الأسلوب الذى استقل بابتداعه طه حسين ولو غضب المنكرون ، وقد يكون غضب المنكرين من أسباب ذلك الابتداع ولأجل هذا الابتداع يغتفر ما فى كتابة الدكتور من إسهاب وتكرار .

ولقد أفاد بأسلوبه هذا عملا من لم يفدهم الرأى ولم تقنعهم المناقشة ، فرأوا أن العربية قد تكتب صحيحة فصيحة على أسلوب غير أسلوب الجاحظ وعبد الحميد وبديع الزمان وابن المقفع ، ورأوا كاتبا كبيرا يكتبها كما يشاء ، لا كما يشاء القدماء «فتنكتب» وتلذ وتفيد فاستعدوا لاستحسان الفصاحة فى غير قيودها القديمة ، وألفوا تعديد الأساليب وطرائق التعبير إلى غير انتهاء ، وذلك وحده فتح قدير .

وقد جار نصيب القوة فى الدكتور طه حسين على نصيب العمق كما أشرت إلى ذلك فى نقدى لكتابه «فى الصيف» .

وليس بالقليل بين أكبر الأدباء العالميين من هو قوى لا يتعمق ، فإنى لأكتب هذا المقال بعد أن فرغت من قراءة مقال للشاعر الأسبانى ميجويل دى أنامينو كتبه ليمثل به رأى الأسبان بين سائر الآراء التى نشرتها مجلة «الشهر» الفرنسية عن فكرة هوجو لمضى خمسين سنة على وفاته ، فإذا هو يقول إن عمله فى أسبانيا على الأقل كان واسعا أكثر مما هو عميق ، وأرجو ألا يحسب الدكتور أننى أعود به إلى التفرقة بين السكسون واللاتين إذا أضفت إلى هذا أن شاعر الأمة الأسبانية اللاتينية يقرر أن «بيرون» والشعراء الإنجليز هم الذين

بحثوا أدب تلك البلاد ، وليس فكتور هوجو ولا الشعراء الفرنسيون ، وأنه ليقرر ذلك فى مجلة فرنسية تحتفل بهوجو فى عام ذكراه !

* * *

والآن وقد أبرأت ذمتى وأفضيت بمجمل الرأى مع الحيطة والمعادلة والتربص فإنى على ما أرجح كاسب ولست بخاسر ، فإن اختلف تقديرى فليتهم محرر الهلال بإفشاء السر واطلاع مناجزى على ما أعددت له قبل أن يتأهب لى بسلاحه ، والمناجزة يومئذ بينى وبين محرر الهلال .

من وحى أسوان

هبطت أسوان فى هذا الشتاء ، وأنا أذكر دعبل الخزاعى

هبط محلا يقصر البرق دونه	ويعجز عنه الطيف أن يتجشما
وإن امرءا أضحت مساقط رحله	بأسوان لم يترك له الحزم معلما

وذكرت كلام دعبل فى هذه الرحلة خاصة لأننا قضينا ساعة من الوقت فى القطار نتحدث عن السفر إلى الصعيد بطريق الهواء ، ومسافته لا تزيد فى هذا الطريق على أربع ساعات ، وقد تنقص غدا إلى ساعتين ، ومسافة السفر بسكة الحديد تنقضى ما بين عشية اليوم وضحى الغد .. ثم ينتهى إلى حيث يستمع السامع إذا شاء إلى صوت المتحدث إليه من القاهرة والإسكندرية كما يتبادل الحديث مع جليسه فى ناديه يدير المفتاح فى المذياع فيصغى إلى لندن وواشنطن ، ولا يقصر مكان فى الأرض عن إبلاغ صوته إليه ، أما الأطياف فما أكثرها فى دور الصور المتحركة الناطقة هناك ! إن منها لأطيافا تنتقل من هوليوود ، وأطيافا تنتقل من الجيزة ، ولا تعجز عن التجشم ، ولا يبدو عليها أنها تعرف الإعياء كما عرفته أطياف دعبل يرحمها الله .

تلك أطياف وهذه أطياف ، وتلك بروق وهذه بروق ، وما أكسل البروق والأطياف فيما مضى ، وما أسرع البروق والأطياف فى هذا الزمان ، فلو عاش دعبل اليوم لتمنى ساعة من تلك الأيام التى كان يتبرم بها قبل ألف عام ، ولنظر حوله فرأى أناسا يتسابقون إلى المكان الذى قصرت عنه أطيافه وبروقه ،

ويغبطون أنفسهم على الحزم الذى ساقهم إلى هذا المقام فى خاتمة المطاف .

وقصة دعبل في هجاء العالم كله معروفة ، أما قصته مع أسوان فخلاصتها أنه وفد مع أخيه ، عبد المطلب بن عبد الله أمير مصر يومئذ فولاه أسوان . ثم بلغ المطلب هجاؤه إياه فانفذ إليه كتاب العزل مع مولى له وأوصاه أن ينتظره حتى يصعد المنبر يوم الجمعة فينزله ويصعد مكانه ، ففعل كما أوصاه !

ذكرت كلام دعبل وذكرت كلام أخ له من قبل فى هذا المقام ، أهو أخوه فى النسب يا ترى ؟ أهو أخوه فى العربية ؟ أهو أخوه فى الزمن الذى عاش فيه ؟ كلا ، ولكنه أخوه فى صناعة الهجاء ، ولم يكن أخاه فى قومه ولا عصره ، لأنه كان من أمة الرومان ، وكان عصره فى القرن الأول للميلاد ، وهو الشاعر اللاتيني جوفنال juvenal .

من توافق المصادفات أن الشاعر اللاتيني كان كالشاعر العربي لا يسلم أحد من لسانه، وأن هجاءه لفنان العصر «باريس» قذف به من روما إلى جزيرة أسوان ، لأن هذا الفنان الساحر كان حظيا عند العاهل دوميسيان !

قدم جوفنال إلى جزيرة أسوان قائدا للحامية الرومانية فى ظاهر الأمر وأسيرا منفيا فى حقيقته ، ولم يستطع أن يعلن رومسيان فلعن الجزيرة ومن فيها ومن حولها ، ولم يرض عن شيء رآه في ولايته التى فرضت عليه ، فكذب وأقذع فى شكواه ، وادعى على مصر والمصريين ما لم يدعه أحد سواه .

قال إن المصريين يعبدون كل حيوان ، ولا يدعون شيئا إلا عبدوه حتى الثوم وما كان المصريون يعبدون الثوم ولا البصل ، ولكنهم عرفوا خصائص هذا وذاك فانتفعوا بها فى الغذاء وفى العلاج ، وجاء المحدثون فى عصرنا هذا فاتخذوا من الثوم عصيرا سموه ماء الحياة .

وقال إن المصريين يأكلون لحم البشر ، وقص من أخبار هذه الدعوة أن أناسا من أهل كوم أمبو الذين يعبدون التمساح هجموا على رجل من أهل دندرة قتل تمساحا فأكلوه !

والتمساح ، واسمه هنا منقول من المصرية القديمة ، حيوان مقدس كالذئبة الرومانية ، ولكنه كان مقدسا عند أناس ورجيما ملعونا عند آخرين . أما أن

الذين يقدسونه يأكلون لحم قاتليه فتلك هي الفرية التى اتفق المؤرخون على تكذيبها ، وحسبوها «اختراعة» من أفانين الهجاء ، جناها السخط على الشاعر الهجاء قبل أن يجنيها بشعره على أبناء كوم أمبو الأقدمين ، المظلومين !

ومن عجيب التوافق بين الشاعرين الساخطين أنهما يتفقان فى الخاطر كما يتفقان فى المزاج ، فكان جوفنال يعجب ممن يسأله عن سبب هجائه كلما كان الهجاء عنده أصلا من الأصول التى لا تحتاج إلى سبب ، وكان دعبل ينظم القصيدة المقذعة ويسألونه عمن قيلت فيه فيقول لهم إنها ستجد صاحبها لا محالة ، ويتفلسف فيمضي قائلا : «إن من يتقيك على عرضه أكثر ممن يرغب إليك فى تشريفه ، وعيوب الناس أكثر من محاسنهم ، وليس كل من شرفته شرف ولا كل من وصفته بالجود والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه انتفع بقولك » .

فهي طبيعة واحدة فى الشعراء الهجائين مع تباعد الجنس والزمن ، ولا نظلمهم فنحكيهم حين يجنون بالسخط على الحقيقة . فما نحسبهم ظالمين فى كل ما تقولوه على الناس ، وما نظنهم سخطوا بغير حق فى كل مقال ، فلعل إصابتهم الناس عن بعض ما أصابهم منهم ؛ ولعلهم شقوا بالعالم كما شقي العالم بهم ، ومن دلائل هذا الشقاء ، أن شاعرا هجاء فى اللاتينية وشاعرا هجاء فى العربية يرددان معنى واحداً عميقا فى دلالته على شقاوة الرجلين ، فيقول جوفنال فى الأهجية الخامسة عشرة : «إن الطبيعة خلقت للإنسان الكريم قلبا رحيما فأودعت فيه ينابيع الدموع ، وهى أكرم جانب فى طوية الإنسان» .

ويقول ابن الرومى :

لم يخلق الدمع لامرئ عبثا الله أدرى بلوعة الحزن

وقد تكون الحاجة إلى الهجاء كالحاجة إلى البكاء ، فى طبائع الشعراء ، فلنقل أن الشعراء الهجائين ظالمون مظلومون ، وكلهم فى هذه الخلة سواء .

* * *

وأعود إلى دعبل فأقول إن الاعياء الذى ابتليت به أطيافه وبروقه ليس من فعل الزمن وحده ، ولكنها من فعل الخيبة التى كانت تلاحقه حيث ذهب . فلا هو استقر فى صعيد مصر ولا هو استقر فى صعيد حيث كان .

وقبل أن ينشط العصر الحديث بأصداء الأثير وأطياف الستار الأبيض نظر الشعراء إلى أسوان بغير هذه العين التى تستعجز البرق وتتهم الطيف بالقصور : نظروا إليها بعين الرضا فوجدوا فيها بغية الطلاب على اختلاف المقاصد والآراب ، كما قال جعفر بن ثعلب أبو الفضل كمال الدين :

أسوان فى الأرض نصب دائرة   الخير فيها والشر قد جمعا
تصلح للناسك التقى إذا   أقام والفاتك الخليع معا
وحسنها ما أراك مبدعة   تروق إلا بأختها شفعا

وقد حببت الحياة إلى أبنائها حتى قال فيها أحد هؤلاء الأبناء من الشعراء :

ما الشيب إلا نعمة   مشكورة فاشكر عليه
ما الغبن إلا أن تمو   ت وأنت لم تبلغ إليه

وقائل هذين البيتين هو الأديب إبراهيم بن محمد بن إبراهيم ، وهو من أسرة عريقة أمرها فى النبوغ عجب ، ومن هذه الأسرة خالاه النابغان أحمد بن على الملقب بالرشيد ، والحسن بن على الملقب بالمهذب ، وكلاهما شاعر مشارك فى العلوم يدل كلامه على علمه كما قال الرشيد

ولن يستفيد البدر إكمال نوره   من الشمس إلا وهو فى غاية البعد

أو كما قال المهذب فى وصف ليلة :

لو لم تكن نهر المجرة عامت به   أبدا نجوم الحوت والسرطان
نادمت فيها الفرقدين كأنني   دون الورى وجذيمة أخوان
وترشفت همم فما أرضى سوى   شهب الدجى عوضا من الخلان

أو كما قال :

لا ترج ذا نقص وإن أصبحت   من دونه فى الرتبة الشمس
كيوان أعلى كوكب موضعا   وهو إذا أنصفته نحس

وكانا لهذا مبلوين بالحساد والأضداد ، ولا سيما الرشيد الذى قيل عنه أنه تطلع إلى الخلافة ، وكان يقول عن نفسه أنه خلق من نار ، فقال فيه ابن قادوس :

إن قلت من نار خلقـ   ـت وفقت كل الناس فهما
قلنا صدقت فما الذى   أطفاك حتى صرت فحما

وقال فيه شاعر يمنى ، وكان الخليفة قد أوفده إلى اليمن داعيا وسماه علم المهتدين ، فحسده أدباء اليمن وقال فيه أحدهم :

بعثت لنا علم المهتدين   ولكنه علم أسود !

ولكنه كان لا ينظر إلى الحساد نظرة الأقران والأنداد ، وقال فى أمير رجاه فخيب مناه :

لئن خاب ظنى فى رجائك بعدما   توهمت أنى قد ظفرت بمنصف
فإنك قد قلدتنى كل منة   ملكت بها شكرى لدى كل موقف
لأنك قد حذرتنى كل صاحب   وأعلمتنى أن ليس فى الأرض من يفى

عليهم رحمة الله جميعا من ظفر بالإنصاف ومن فاته إنصاف الناس وفاته هو أن ينصف الناس . فقد بقى بعدهم وحى أسوان ووحى الزمان كما كان وكذلك يبقيان ! ..

... فى أرض الميعاد ...

قصة المدينتين

قلت لبعض الإخوان الفلسطينيين إن الله أنعم عليكم بحرية الاختيار فى أمر واحد ، ولعله فأل حسن وبشارة صادقة بنعمة أخرى تملكون فيها حرية الاختيار فيما يشغلكم اليوم وتؤثرونه على كل نعمة ، وهو نعمة الحرية القومية[1].

إنكم تملكون اختيار الأجواء والأهوية فى كل فصل من فصول السنة ، وترجعون إلى حسابكم أنتم لا حساب الأفلاك والكواكب لتخرجوا من الصيف وتدخلوا فى الشتاء ..

نحن فى مصر ننتظر ثلاثة أشهر أو أربعة نشيع الصيف ونستقبل الشتاء ، ولكنكم هنا لا تحتاجون إلى هذا الانتظار الطويل ، لأن ساعة واحدة تنقلكم من حرارة يوليو إلى برودة نوفمبر أو يناير فى بعض الجهات ، وعندكم المكان الذى يتذكر فيه السمار معاطفهم إذا طالت السهرة كما تطول أبدا فى ليالى الربيع .. وعلى مسيرة ساعة منه مكان يتذكر فيه السائرون مظلاتهم فى أبرد أيام الشتاء ، وقد أوحى مكان من هذه الأمكنة نخمة الفكاهة إلى قائد من قواد الحرب وهو فى ميدان القتال ، فكتب منه اللورد اللنبى إلى وزارة الدفاع البريطانية برقية يصف بها إحدى المعارك فى أيام الحرب العالمية الماضية فقال : «حلقت طائراتنا هذا الصباح تحت سطح البحر الأبيض المتوسط بستمائة قدم ، ولاحقت العدو عند أريحا من هذا الارتفاع !» .

وقد كان الحر هذا العام على أشده فى شواطئ البحر الأبيض جميعها ، فلم نشعر بوطأته الثقيلة حين تركنا الشواطئ وارتفعنا إلى هضاب رام الله أو «رام ايل» الفيحاء ، ولكننى لم أنعم على قضاء معظم أيامى فى فلسطين بين

(١) قام إمام الباحثين الأستاذ العقاد بهذه الرحلة فى صيف عام ١٩٤٥ قبل حرب فلسطين بثلاث سنوات ولما عاد منها كتب هذه الفصول التى صورت حالة فلسطين الأدبية والسياسية والاجتماعية فى ذلك الحين، وقد أشار فيها إلى ما يجب على العرب عمله قبل أن تقع الكارثة!

الشواطئ حيث تفرط الحرارة والرطوبة هذا العام على خلاف فى السنوات الماضية ، لأننى لمست فيها عن كثب ذلك الصراع العنيف الذى أحسبه أعجب صراع بين مدينتين متجاورتين فى تاريخ المشرق أو فى تاريخ العالم بأسره ، وهو الصراع بين مدينة يافا ومدينة تل أبيب ..

إن المدينتين متجاورتان تقيمان فى مكان واحد ، حتى ليبدأ الشارع أحيانا فى يافا وينتهى فى تل أبيب ، ولكن السباق بينهما سباق بين أقدم ميناء على شواطئ بحر الروم وأحدث ميناء عليه .. أو لعله أحدث ميناء على جميع شواطئ البحار .

كانت «يافا» علما مشهورا فى التاريخ القديم قبل نيف وثلاثين قرنا من الزمان .. وكانت «الإسكندرية» جنينا فى الغيب يوم كان سوفكليس ويوربيدس وغيرهما من شعراء اليونان يتغنون بجمال «يافا» وينسجون خيوط القصيد حول عروسها الفاتنة «اندروميدا» التى ربطها الأرباب إلى صخرة الشاطئ عقابا لها على رفض البناء بخطابها السماويين! .. ثم مازالت حتى نجا بها القدر من وحش البحر وهو راصد لها يغتالها .. فأصبحت بعد ذلك كوكبا من كواكب السماء ..

ولا نحسب أن مدينة فى الشرق الأدنى عرض لها من تعاقب السعود والنحوس ما عرض لمدينة «يافا» فى جميع الدول وعلى جميع العهود ..

فعمرت وخربت مرات على أيدى البشر ، وعلى أيدى الزلازل والجوائح الطبيعية ، وصمدت للعراك بين الدول التى تداولتها من عهد تحوتمس وسنحاريب ، إلى عهد العرب والصليبيين، إلى هذا العهد الذى لا يحسب فى تاريخها من العهود الرخية الميمونة ، وإن كنا لنرجو ألا يكون من أقسى العهود، لأنها قد صمدت فى تجاربها الكثيرة لما هو أقسى وأصرم من تجارب العهد الذى هى فيه الآن .

كانت «يافا» تعول فى معيشتها على الزراعة وعلى الصناعة وعلى الميناء وما يدور حوله من حركة السفن وحركة البيع والشراء ..

فأصيبت فى جميع هذه الموارد ، ولا تزال مع هذا قائمة على قدميها تناضل نضالها المجيد فى سبيل البقاء .

فالفواكه والثمرات التى عرفت باسمها من قديم الزمن لا تلقى اليوم فى الأسواق القريبة ذلك الترحيب الذى تعودت أن تلقاه إلى زمن غير بعيد

والصناعة – وأهمها صناعة الجلود وصناعة الصابون – قد منيت بالمزاحمين الأقوياء في تل أبيب وما وراء تل أبيب من بلدان الشرق الأدنى .

أما الميناء فقد تحول عنه أكثر السفن إلى ميناء حيفا الذي تنتهي إليه أنابيب البترول من آبار العراق ، أو إلى ميناء تل أبيب الذي بناه مجلسها البلدي ومد إلى جانبه ذلك «الكرنيش» الطويل محاكيا به كرنيش الإسكندرية في كل شيء .. حتى في «الأذرة الشامية» التي تشوى أو تسلق على زواياه ومنعطفاته ، ويقبل عليها المتنزهون والمتنزهات إلى أواخر الليل !

فهي اليوم تتماسك على مضض ، أو على صبر أليم ، وحسبك من مدينة تفجع في مواردها جميعا ولا تزال ناهضة على قدميها في إبان التناضل المستميت .

* * *

إلى جانب هذه «الشيخة» الصبور فتاة ماكرة لعوب تتيه عليها بدلال الفتنة وجمال الشباب ..

تلك مدينة تل أبيب ..

صبية لم تتجاوز الثانية والعشرين ، إذا نظرنا إلى مولدها الصحيح في أعقاب الحرب الماضية ، ولم تتجاوز السادسة والثلاثين إذا نظرنا إلى نشأتها في عهد الدولة العثمانية أيام كانت هذه الدولة تحب أن تستعين بالدعاية الإسرائيلية في مقاومة روسيا ودويلات البلقان ، ولم تكن نشأتها يومئذ مدينة تزخر بالسكان وتحتوي من الوافدين عشرات الألوف ، ولكنها كانت روضة للنزهة وقضاء ساعات الأصيل في أيام الصيف والربيع ، ولهذا سميت «تل الربيع» حين غرسوها في أول عهدها بالظهور ..

كذلك نشأت منذ نيف وثلاثين سنة على غير حذر من عواقبها السريعة لا من جانب الراعي ولا من جانب الرعية ..

أما اليوم فليست هي تلك الروضة البريئة التي يتنسم منها أهل «يافا» نفحات الغروب من نسمات الربيع ..

يا له من صراع عجيب بين شيخة الأمس وفتاة اليوم ..

وإنه لصراع ظالم إذا ترك فيه الندان منفردين على النحو الذي نراه ، لأن «يافا» تقف وحدها هناك ولا تقف «تل أبيب» وحدها في ميدانها .. بل تقف

هناك من ورائها أمة موزعة بين جميع أنحاء العالم تعينها بأحدث ما اخترعه العلم من الوسائل ، وأخفى ما يعرفه المال من الأساليب ، وأقوى ما تسيطر عليه السياسة من الخدع والأحابيل ..

واليافيون لا يغفلون عن الخطر الذي يستهدفون له ولا يجهلون أن الأساليب القديمة لن تجدي وحدها في اتقاء هذه المنافسة التي تعتز بأحدث ما عرفه الناس من ضروب التعمير والاستغلال .

فقد علمت من مدير المجلس البلدي بمدينة يافا أنهم يعدون العدة لبناء الكرنيش الذي يضارع كرنيش تل أبيب ، ولتنظيم الطرقات التي لا تزال بحاجة إلى التنظيم ..

وعلمت أنهم يؤلفون شركة كبيرة لبناء فندق فخم وناد حديث يستغني بهما من يريد الاستغناء عن ارتياد الفنادق والأندية في تل أبيب .

وهذا كله حسن واجب ، بل هذا كله قليل من كثير ينبغي الشروع في إنجازه قبل أن يطول التفكير فيه .

ولكن الحقيقة التي ينبغي أن تذكر في هذا الصدد قبل كل حقيقة أخرى ، هي أن مدينة «يافا» لن تقوى على هذا الصراع العنيف على انفراد ، فلابد لها من عون سريع كالعون الذي ترجع إليه غريمتها ليجري الأمر بينهما على سنة الإنصاف ، ويرجى منه اتقاء الهزيمة في هذا النضال .

الصهيونية والجامعة العربية

إذا عبرت «تل أبيب» رأيت في أكثر أوقات النهار زحاما يملأ جوانب الطرق من اليمين والشمال ، وخيل إليك أن القوم منصرفون من محفل أو مقبلون على اجتماع في منتصف الطريق .

لأن حركة المرور لا تنقطع في «تل أبيب» من ساعات الصباح الباكر إلى ما بعد العشاء ..

ولكنك مع هذا تلاحظ هذا الزحام المتلاحق فتعجب لأنك لا ترى فيه أحدا يلوي على أحد ، ولا تكاد تلمح إنسانا يومئ إلى إنسان آخر بالتحية ، إلا في العرض النادر الذي يرجع إلى محض الاتفاق ..

وأعجب من ذلك أنك تنظر إلى القوم فلا ترى على وجوههم مخايل على السعادة : سعادة الظفر بالأمنية الروحية والمطلب التراثي القديم .. فلا تملك أن تسأل نفسك : ما هذا ؟ أهؤلاء قوم يهبطون إلى أرض الميعاد بعد التفرق في جوانب الأرض مئات السنين؟ .

وتتخيل المسلمين في عرفات ، أو النصارى في معاهد المسيحية المقدسة ، فلا ترى على وجوه القوم في « تل أبيب » شيئا من دلائل تلك الأخوة الروحانية التي تفيض على وجوه الحجاج من جميع الأديان . ولا يقع في نفسك إلا أن القوم مسوقون إلى هذه الحجة الموعودة ، وأن الذي وجههم هناك غير الذي آمنوا به وصدقوه . . .

وما في الأمر من غرابة إذا رجعت إلى الواقع ، أو رجعت إلى المعقول . .

إذ كانت حجة اليهود إلى أرض الميعاد غير الحجة إلى عرفات أو إلى كنيسة القيامة أو ما شابهها من الديانة المسيحية . .

فإن المسلمين والمسيحيين يقضون مناسك الحج ويعودون إلى أوطانهم التي نشأوا فيها وألفوا معالمها . .

أما اليهودي حين يهجر بلاده إلى الوطن القومي بفلسطين ، فإنه يترك وطنه الذي نشأ فيه وألف معالمه ليستنبت نفسه في وطن جديد . ولا يفعل ذلك إلا بدافع قوي من الأمل في تحسين الأحوال ، أو بدافع قوي من الحماسة الروحية . .
فليس من شك في أن اليهودي الناجح في وطنه – الأوربي أو الأمريكي – لن يهجر ذلك الوطن ليستأنف الحياة زارعا أو بائعا في ناحية يجهلها من أرض فلسطين ، ولن يبيع نجاحه المحقق بأمل بعيد يمنيه به الزعماء الصهيونيون ، بالغا ما بلغ به الإيمان بوعود صهيون . .

ولتذكر أن اليهودي قد ألف العمل في التجارة والصفقات المالية ، ولم يألف العمل في الزراعة وتربية الدواجن وما إليها من أعمال الفلاحة ورعي الحيوان .. فهو لا يقدم على تبديل مألوفاته إلا إذا اتفق الشظف والتعصب والأمل في المجهول على إقناعه بالهجرة وإمداده بالبواعث النفسية التي تساعده على هذا التبديل .. وقلما تعمر هذه البواعث إلى زمن طويل .

والذي نعتقده أن « النقلة الصهيونية » هي نقلة مصطنعة عارضة تخلقها تلك العوامل الموقوتة التي أشرنا إليها ، وينفخ فيها عاملان آخران موقوتان ، وهما دعاية الزعماء واضطهاد الطوائف الإسرائيلية في أوربا الوسطى وأوربا الشرقية .. ولولا هذان العاملان لبقيت الصهيونية حيث كانت أملا من آمال الخيال.

ظهرت في الأيام الأخيرة مذكرات اللورد « هربرت صمويل » الذي كان أول مندوب سام على فلسطين من قبل الدولة البريطانية ..

وهو سياسي فيلسوف ينتمي إلى أسرة إسرائيلية كبيرة في البلاد الإنجليزية، ويتكلم بكثير من الصراحة عن موقف زعماء اليهود من الدعوة الصهيونية عند ظهورها واشتدادها في أعقاب الحرب الماضية ، ومن هذه المذكرات يتبين لنا أن ثلاثة من عظماء اليهود الإنجليز الذين شاورتهم الحكومة البريطانية في إعلان الوطن القومي بفلسطين كانوا معارضين لإعلانه متشائمين من عقباه ، وعلى رأسهم « ادوين منتاجو » الذي كان وزيرا للهند في وزارة لويد جورج الائتلافية ..

فحماسة الشعوب الإسرائيلية للوطن القومي هي حماسة مصطنعة مبالغ فيها بغير مراء ، وأقل ما يقال فيها أنها ليست بالحماسة الاجتماعية التي تقاوم جميع المصاعب وتذلل جميع العقبات ..

وإنما قامت الحركة كلها على دعاية الزعماء ، وصادفت هذه الدعاية ما صادفته من النجاح لأمرين لا مناص منهما للمثابرة على نشاط الحركة واستمرارها ..

هذان الأمران هما : « أولا » سهولة الحصول على الوطن العربي القومي في أعقاب الحرب الماضية ، و« ثانيا » صعوبة المقام في كثير من الأقطار الأوربية على اليهود ، لما كانوا يلقونه هناك من ضروب الحجر والاضطهاد ..

فإذا تغير الموقف بعد الحرب العالمية الأخيرة ، فصعب المقام في الوطن القومي وسهل المقام في الأقطار الأوربية بعد زوال الاضطهاد منها وفتح أبوابها لمشروعات التعمير وصفقات التجارة والمال ، فقد تنكشف الحركة المصطنعة عن حقيقتها الباقية فإذا هي أضعف من أن تقوى على الثبات إلى زمن طويل .

* * *

نعم إن الصهيونية تعتمد الآن – بعد القيام فى فلسطين زهاء ربع قرن – على عاملين آخرين غير تلك العوامل التى بعثت الحركة من مرقدها فى دفعتها الأولى ..

تعتمد الآن على الجيل الجديد الذى يولد وينشأ فى تل أبيب وما يحيط بها من المستعمرات الإسرائيلية .

وتعتمد كذلك على الصناعات الحديثة التى تأسست فى أيام الحرب الأخيرة على الخصوص ، واتصلت معاملاتها بأقطار الشرق الأدنى وما جاورها من الأقطار .

لكن الجيل الجديد الذى يولد وينشأ فى تل أبيب خليط من الأوطان المختلفة لا يمتزج بعضه ببعض فى زمن قريب .

أما الصناعات الحديثة فلها مزاحم أقوى من الصناعات الأوربية المتعطشة إلى الأسواق ولها مزاحم أخرى من الصناعات الوطنية التى تعتمد على الشعور الوطنى والضرورات الاقتصادية ، ولها بعد هذا وذاك كابح آخر من حراسة الأسواق الشرقية حيثما تنبهت إلى أخطار الاحتكار ، وبعثت أزمات البطالة فيما بعد انتهاء الحرب بالأزمات التى يسهل علاجها فى هذه الأوقات .

* * *

كنت أقول لإخواننا الفلسطينيين كلما سألونى عن رأيى فى قضية بلادهم وقضية البلاد العربية : إننى متفائل قوى التفاؤل عظيم الرجاء فى مصير البلاد الشرقية على الإجمال ..

ولكنى كنت أشفع ذلك دائما بتفسير التفاؤل الذى أعنيه وأعقد عليه عظيم الرجاء ..

فالتفاؤل المحمود هو التفاؤل الذى يقنعك بأن العمل ممكن وأنه مع إمكانه مفيد ..

ومتى آمنت بذلك فعليك أن تعمل وأن تحقق الفائدة التى ترجوها وإن كلفك العمل أثقل الجهود ..

فلا فائدة من تعظيم خطر الصهيونية والارتفاع به إلى ما وراء طاقة الجهود البشرية ..

ولكن لا فائدة كذلك من تهوين هذا الخطر إذا لم يقترن تهوينه بالشروع فى العمل المفيد ..

والجامعة العربية خليقة أن تنتهز فرصة العمل فى هذه الآونة لأنها فرصة سانحة بعد الحرب الأخيرة وفى مفتتح الحياة الجديدة التى تستعد لها الأقطار الأوربية ، ممن كانت على صلة بالمسألة الصهيونية أو بالاضطهاد اليهود ، وقد تفتح أبوابها غدا لمن يؤثرون العودة إليها من أرض الميعاد إذا عز عليهم الوفاء بما وعدهم به الدعاة والزعماء ..

ولا غنى للبلاد العربية على أية حال – لخدمة نفسها لا لخدمة القضية الفلسطينية وكفى – من تنظيم الصناعات الحديثة ، وتنظيم الأسواق فى وجه المعاملات الطارئة عليها ، ومن منع الاحتكار فى أيدى فريق من الناس كائنا ما كان .

وإذا استقامت البلاد العربية على هذا الطريق فقد استقامت على الطريق السوى الذى يفضى بها إلى النجاح فى جميع قضاياها ، ومنها قضية فلسطين.

الحالة الاجتماعية

المجتمع الفلسطينى قريب من المجتمع المصرى فى تكوينه وفى معظم آدابه وعاداته ، ولا يختلفان إلا فى بعض التقاليد التى ترجع أولا إلى امتزاج شعائر الأسرة المصرية بشعائر الحداد الموروث من أقدم العصور ، وترجع ثانيا إلى الزراعة المصرية والبادية الفلسطينية .. فمصر تنقسم إلى عاصمة وقرية ، وفلسطين تنقسم إلى حاضرة وبادية ، وإن كانت باديتها أخصب من بادية الصحراء وأقرب إلى العمار ..

ولايزال سلطان البادية ظاهرا فى تقاليد الأسرة الفلسطينية سواء منها الإسلامية أو المسيحية ..

والبادية كما لا يخفى تشتد فى المحافظة الاجتماعية وتحب البقاء على القديم، وأظهر ما تبدو عليه هذه المحافظة الاجتماعية فى حجاب المرأة ونظام الحياة الزوجية .. فإن بنات الأسر فى حواضر فلسطين متعلمات على نصيب وافر من الثقافة العصرية ، ولا يندر بينهن من تحسن لغة أو لغتين من اللغات الحديثة ، ولكنهن قليلات الظهور فى الحياة العامة ، وقلما تجسر السيدة منهن أو الفتاة على السفور فى الطريق إلا أن تكون من أسرة قوية السلطان مهيبة الجانب تحميها سلطانها وهيبتها أن تتعرض للأذى والمهانة من بعض من ينكرون السفور ، وهم كثيرون ..

فإذا سفرت السيدة أو الفتاة من البيوت المتوسطة التى لا تخشى شوكتها فقد يصيبها ما يسوؤها فى طريقها ، ولا يتقدم أحد لحمايتها ، لأنها تستحق ما تلقاه فى رأى السابلة من طبقات العامة ومن يحسبون حسابها .

ونحن لا نتمنى لفلسطين ذلك الشطط الذى تمادى فيه بعض السافرات فى بعض الأقطار الشرقية .. ولكننا نعتقد أن تيسير الحجاب والتخفيف من قيوده الثقيلة نافعان للمجتمع الفلسطينى فى مرحلته الحاضرة ، ولعلهما نافعان له جد النفع فى مكافحة «تل أبيب» ومغرياتها لأن الفتى الذى يصحب خطيبته أو زوجته فى رياضته اليومية يشعر بالأمانة الزوجية ماثلة أمام عينيه فى بيته وفى طريقه ، وتغنيه هذه الصحبة المشروعة عن تلك الصحبة الموبقة التى تذهله عن كرامته وماله وقضية بلاده .

وسلطان البادية القوى أثر فى السياسة الفلسطينية ، لأن الزعماء هناك هم - بطبيعة تكوين المجتمع - رؤساء العشائر وعمداء البيوت العريقة فى الحواضر ، ولهم من النفوذ فى السياسة بمقدار ما لهم من الأشياع والأتباع والأقرباء وأنصار العصبيات ، وهم الذين نهضوا بأعباء الحركة فى أشدها ، وتعرضوا لمخاطر الموت والإبعاد من أجلها .

وقد أضيف إلى هذا العامل الموروث عامل مكتسب من نفوذ الدين أو نفوذ الرئاسة الرسمية ، بل أضيف إليه ما تقضى به أطوار العصر من رعاية البرامج والمبادئ التى تتعلق بها آمال الشعوب فى الزمن الحديث ..

ولا تخلو فلسطين من ذلك القلق الذى يخامر نفوس الشباب ويعجلهم على الصبر والانتظار ، ومطاولة الأحوال التى درجت عليها السياسة فى أيدى الرؤساء والعمداء ..

وقد سألنى بعضهم سؤالا صريحا فى حفل حاشد عن الزعامة السياسية والبرامج الوطنية فقال موجها إلى الخطاب : ألا ترى أن ينفرد الشباب بقيادة الحركة القومية دون الرؤساء والعمداء ؟ ..

فلمحت على وجوه الحاضرين أن صاحب السؤال ينوب فى الحقيقة عن الأكثرين منهم ، وأنه يعبر عن خاطر يساورهم ويدور عليه النقاش الطويل فيما بينهم ، فقلت : إن الشباب يستطيع أن يسمع صوته فلا يقوى الزعماء على

إغفاله ، ولا يزال للشباب عمل كثير يضطلع به فى خدمة وطنه قبل أن يتصدى لمهمة الزعامة الشعبية ، ولكنه إذا رزق الألمعية النادرة التى ترشحه لقيادة قومه فإن هذه الهبة الفطرية لن تخفى على أحد ، ولن تحول الحوائل دونه ودون القيادة التى يستحقها ، إذ لا حاجة به يومئذ إلى التوسل والرجاء فى طلب الاعتراف له بالكفاءة الممتازة والزعامة الموهوبة ، لأن الكفاءة الممتازة تفرض مكانتها من يعرفها ومن ينكرها على السواء .

* * *

والفلسطينى وسط بين المصرى وبين السورى واللبنانى فى الإقدام على الهجرة والتمرس بالمحاولات الاقتصادية فى بلاده أو فى البلاد الأجنبية .. فهو لا يهاجر كما يهاجر السوريون واللبنانيون ..

وهو أجرأ على إنفاق المال من أبناء الأمم التى تعودت المحاسبة على الموارد والمصارف ، وانتظمت على الموازنة بين الأرباح والخسائر ، منذ عهد بعيد .

ولم يزل إلى زمن قريب يعول على تربية الماشية والزراعة ، ويعول معها أحيانا على التجارة الموسمية التى تجرى فى مواسمها على سنة الزراعة والثروة الطبيعية ..

وفى طبعه استقلال البدوى الذى تثقل عليه رياضة الحياة المدنية وتعنته بما فيها من الموانع والقيود .

وقد قال لى رجل من أذكياء السوريين وذوى الغيرة منهم على القضية الفلسطينية : إن إخواننا هنا يتعبون كثيرا مع جماعة الصهيونية ، لأنها تحاربهم بسلاح لم يتعودوه .

قال ذلك وقد مررنا بخص من القش على شاطئ البحر فى جوار «يافا» يملكه رجل يهودى يطهو فيه الطعام لمن يستريحون لديه فى أثناء الطريق ، أو من يقصدونه فى طلب النزهة والاستجمام وقضاء فترة من الوقت فى ضواحى الخلاء .

قال الدمشقى الأريب : لو نزل رجل من بلدنا هنا يوما واحدا وتناول هنا وجبة واحدة ، لما فارق المكان قبل أن يعيد حسبته فى ذهنه ويقدر نفقات المكان ونفقات الطعام ومكسب اليوم الواحد ثم مكسب الأيام

فإذا أعجبه الحال وراقه المكسب ، فما هى إلا أيام معدودات حتى يرى اليهودى خصا قائما إلى جانب خصه يبيع الطعام الذى يبيعه ويهيئ المائدة التى يهيؤها ، وينزل عن بعض ربحه فى أيامه الأولى ليحول قصاد الخص القديم إلى الخص الجديد ..

قال صاحبى الدمشقى : فليت الصهيونية تبتلى فى هذه الديار بمن ينافسونها هذه المنافسة وينازلونها بمثل هذا السلاح ..

قلت : إن الدرس غير عسير على من يرى الصراع من حوله ويعلم عاقبة التعاون فيه ..

* * *

وأحسب أن المصريين والفلسطينيين فى مجال الهجرة فرسا رهان ، أو فارسان متقاربان ..

فمن فلسطين مهاجرون فى مصر ، ومن مصر مهاجرون فى فلسطين ، وقد يعيش الفلسطينى فى مصر زمنا ثم يعود إلى بلاده ، وقد ترى بينهم من يلقب بالأنشاصى والبلبيسى والطنطاوى كما ترى بيننا من يلقب بالغزى والرملى والعكاوى ، وكأنهم يتسابقون أو يتلاحقون فى حلبة واحدة لا يخرجون منها ولا يسرعون إلى تبديل معالمها ، سواء فى التقاليد الاجتماعية أو معيشة البيوت .. حتى «الملوخية» وهى صحفة مصرية لا يتقنها الطهاة فى غير وادى النيل - قد أكلناها فى بيت أبى خضرة كما تؤكل على أفخر موائدنا التى تعتز بتقديمها فى بواكيرها أو معقباتها .. لأن أبناء هذا البيت على تراثهم القديم منذ كانوا بريف مصر ، ولا تزال لهم قرابة فيه ..

بين مصر وفلسطين جوار هو أقرب من جوار المكان لأنه كذلك جوار التاريخ وجوار السكان.

مصر والقضية العربية

سألنى فتى صهيونى : لماذا يهتم المصريون بمشاكل العرب ؟

فاستغربت سؤاله، ولم أكتمه أنه سؤال غريب ، فعاد يسأل: وما وجه الغرابة فيه؟

قلت : وجه الغرابة فيه أنك تنتظر الاهتمام من يهود أمريكا بجماعة الوطن القومى فى فلسطين وتحسبه من الأمور الطبيعية التى لا تحتمل السؤال والاستفسار ، ولكنك تستغرب من العرب المتجاورين أن يهتم بعضهم ببعض ، وهم مضطرون إلى هذا الاهتمام .. نعم مضطرون إليه ولو لم ينظروا إلى المسألة من الوجهة الشعورية أو العلاقة التاريخية الروحية، لأن استقرار السلام فى الشرق الأدنى يعنيهم جميعا ويوجب عليهم أن يتداركوا أخطاره قبل وقوعها بشىء من الحيطة والمعاونة ، ولا استقرار للسلام فى الشرق الأدنى مع تهديد أمة كاملة فى استقلالها ومصالحها ومعالم وجودها .

فلاح عليه أنه كان يتوقع جوابا غير هذا الجواب ..

وكان غيره أصرح منه فى السؤال - وهو كاتب فى صحيفة «فلسطين بوست» الإنجليزية يرأس بعض الشركات البرقية - فسألنى : هل تريد مصر أن تسيطر على سياسة البلاد العربية ؟ ..

قلت : كلا .. ولو جاءت السيطرة طيعة هينة بغير سعى منها ، لأن الأساس الذى قامت عليه الجامعة العربية هو استقلال كل أمة من أمم العرب التى تشترك فيها ، وبذل المجهود المستطاع لتمكين الأمم الخاضعة للحكم الأجنبى من بلوغ استقلالها ، وليست لمصر مصلحة فى التوسع أو زيادة التبعات والأعباء السياسية والعسكرية والاقتصادية ، ولكنها ترى المصلحة كل المصلحة فى التعاون بينها وبين الأمم التى تقاربها فى الموقع الجغرافى والتراث التاريخى والوجهة السياسية ..

* * *

إن الشعوذة السياسية وحدها هى التى تسول لبعض الأدعياء أن ينتحلوا لأنفسهم صفة الزعامة على جميع الأمم العربية ، كما ينتحلون لأنفسهم صفة الزعامة المطلقة على الأمة المصرية ..

وإنما يخدم أولئك الأدعياء أنفسهم بتلك الشعوذة البغيضة إلى كل من يطلب الحرية وكل من يؤمن فى الشرق بمبادئ الديموقراطية ، لأنها تضير القضية المصرية كما تضير القضية العربية ، ولا تنتهى إلى فائدة مرجوة لغير أولئك الأدعياء فيما يتخيلونه من الأوهام والأحلام ..

إنهم يتوهمون أنهم يروجون فى سوق المذهب على قدر البضائع التى يعلنون عنها ويدخلون فى روع الأجانب أنهم قادرون على تسليمها ..

فهم يبيعون ويشترون فى قضية مصر وقضية العرب على السواء ، ويخرجون المسألة من حدود التعاون المحمود إلى حدود الزعامة المنكرة وما وراءها من الدعاوى والشبهات .

ونحمد الله على أن الوقائع قد أفهمت من يفهم ومن لا يفهم أن مصر تبغض هذا النوع من الشعوذة وتتشاءم وتأباه ، وأنها تعرف مزاج الدعاة الذين يدقون الطبول وينفخون الأبواق حول أنفسهم ، ولا يزهدون سلبا من المطالب عن صغائر التهريج والتهييج ، لأنهم لا يعيشون بغير أجراس المزاد فى سوق المساومات .

ليس فى ساحة مصر اليوم - بحمد الله من ينطوى على مثل ذلك المزاج ، فهم لا يعملون لمصر ولا لغير مصر ليحتكروا زعامة أبدية على هذا الشعب أو ذاك ، ولكنهم يعملون لأنهم يعرفون الواجب ولا يتجاوزون به حدوده ، ويخدمون القضية العربية خدمة الإخوان أو الأعوان ولا يخدمونها - ولا يستطيعون أن يخدموها - بطريق الضجة الدعوية التى يعلن بها المعلنون عن تسليم البضاعة فى أسواق المطامع الأجنبية .

هذا التعاون على أساس الاستقلال الموفور لكل أمة من الأمم العربية هو قوام الجامعة العربية ، ولا قوام لها بغيره ..

وينبغى أن يفهم الاستقلال هنا على أوسع معانيه أو على جميع معانيه : فهو يشمل الاستقلال الأدبى كما يشمل الاستقلال فى عرف العلاقات الدولية ..

فلا افتيات فيه على حق أمة من الأمم فى الاعتماد على نفسها والتوفر على جهودها ، وليس من شأنه أن يحمل أحداً على التواكل ولا أن يحمل أحداً على تجاوز الحدود ..

لكل أمة عربية أن تنتظر المعونة من أخواتها وجاراتها .

ذلك حق الأخ على أخيه والجار على جاره ..

وعلى كل عربية أن تعمل ما فى طاقتها لتحقيق مطالبها ..

ذلك واجب الإنسان على نفسه بل واجبه لنفسه ..

وقوام الأمر بين الجميع هو استقلال فى الرأى والعمل وتعاون بين إخوان مستقلين فى الآراء والأعمال ..

فلا سيطرة هناك ولا قيادة ، ولا إعفاء من واجب ولا تجاوز فى الحقوق ..

* * *

ومن دواعى الغبطة أننى رأيت دلائل الشعور بهذه التبعة العظيمة - على هذا الأساس القويم - فى كل من لقيت من ذوى الرأى والمكانة بين خاصة وأبناء الأمم العربية .

فهم - مع إيمانهم بجدوى هذا التعاون الأخوى فى تخفيف الأعباء ومضاعفة القدرة على النجاح - يعتقدون أنه قد ضاعف شعورهم بالتبعة وتقديرهم للواجب ورعايتهم للحقوق ، لأن عمل أمة تسأل عنه أمم ، وكلمة فريق من المجاهدين قد تحسب على كل فريق .

قلت للكاتب الصهيونى : إن مصر لا تريد السيطرة على الأمم العربية ولو جاءتها السيطرة بغير سعى منها .

وأحسبنى أردد كل رأى رشيد فى الأقطار العربية حين أقول إن الضجة الخاوية التى سولت لبعض الملونين أن تهجس فيها هذه الهاجسة قد ذهبت إلى غير رجعة ، وأن العمل الوقور هو العمل الوحيد الذى يليق بخدام هذه القضية الكبرى ، وأنه لا يستقيم على أساس كما يستقيم على أساس التعاون الأخوى فى حدود الاستقلال المرعى : ومرحبا بفضل الأمم العربية فى الأمة المصرية ولو طالبتها بالحصة الكبرى من المعونة وتوجهت إليها بالجانب الأكبر من الرجاء .. فحبذا مضاعفة الواجب كلما تضاعفت الطاقة ، وحبذا أن تزداد القدرة ويزداد معها التوفيق إلى تحقيق الآمال .

... دين وفلسفة ...

الله

في رأينا أن مسألة وجود الله مسألة «وعي» قبل كل شيء، فالإنسان له «وعي» يقيني بوجوده الخاص وحقيقته الذاتية، ولا يخلو من «وعي» يقيني بالوجود الأعظم والحقيقة الكونية، لأنه متصل بهذا الوجود، بل قائم عليه.

والوعي والعقل لا يتناقضان، وإن كان الوعي أعم من العقل في إدراكه لأنه مستمد من كيان الإنسان كله، ومن ظاهره وباطنه، ومما يعيه وما لا يعيه، ولكنه يقوم به قياما مجملا.

ونحن نخطئ فهم العقل نفسه حين نفهم أنه مقصور على ملكة التحليل والتجزئة والتفتيت، وأنه لا يعمل عمله الشامل إلا على طريقة التقسيم المنطقي وتركيب القضايا من المقدمات والنتائج وإثباتها بالبراهين على النحو المعروف.

فالعقل موجود بغير تجزئة وتقسيم .. وهو في وجوده ملكة حية تعمل عملا حيا، ولا يتوقف عملها على صناعة المنطق وضوابطه في عرف المنطقيين .. وهو في وجوده هذا يقول: «نعم» ويقول «لا» ويحق أن يقولهما مجملتين في المسائل المجملة على الخصوص.

وقد يخطئ القول في بعض الأشياء ولا يضمن الإصابة في كل شيء، ولكن الخطأ ينفي العصمة الكاملة ولا ينفي الوجود، فقد يكون العقل المجمل موجودا عاملا وهو غير معصوم عن الخطأ الكثير أو القليل، ولا يقدح ذلك لا في وجوده ولا في صلاحه للتفكير، لأن «التقسيم المنطقي» يخطئ أيضا كما يخطئ العقل المجمل في أحكامه المجملة، ولا يقال من أجل ذلك أن التقسيم المنطقي غير موجود أو غير صالح للتفكير.

فإذا قالت البداهة العقلية: «نعم .. هناك إله» فهذا القول له قيمة في النظر الإنساني لا تقل عن قيمة المنطق والقياس، لأن قيمة العقل الحر الذي لا يرجع

المنطق والقياس إلى مصدر غير مصدره أو سند أقوى من سنده، وقد كان العقل المجمل أبدا أقرب إلى الإيمان وأقرب إلى قولة «نعم» في البحث عن الله، ولم يستطع التقسيم المنطقي أن يقول «لا» قاطعة مانعة في هذا الموضوع.

وقد أسفرت مباحث الفلاسفة المؤمنين عن براهين مختلفة لإثبات وجود الله بالحجة والدليل، ونحسب أننا نضعها في موضعها حين نقرر في شأنها هذه الحقيقة التي يقل فيها التشكك والخلاف، وهي أن البراهين جميعا لا تغني عن الوعي الكوني، وأن الإحاطة بالحقيقة الإلهية شيء لا ينحصر في عقل إنسان ولا في دليل يتمخض عنه عقل الإنسان. وإنما الترجيح هنا بين نوعين من الأدلة والبراهين، وهما نوع الأدلة والبراهين التي يعتمد عليها المؤمنون، ونوع الأدلة والبراهين التي يعتمد عليها المنكرون. فإذا كانت أدلة المؤمنين أرجح من أدلة المنكرين فقد أغنى الدليل غناءه وأدى القياس رسالته التي يستطيعها في هذا المجال، وهي في الواقع أرجح وأصلح للاقتناع بالفكر – فضلا عن الاقتناع بالبداهة – كما يبدو من كل موازنة منصفة بين الكفتين.

ولا يخفى أن قاعدة الإثبات والنفي في مناقشات الخصوم لا تنطبق على هذا الموضوع الجليل، فليس للعقل البشري خصومة في الإثبات ولا خصومة في الإنكار .. وليس على أحد عبء الدليل كله ولا على أحد عبء الإنكار كله في البحث عن حقيقة الوجود.

ونحن لا نحصي هنا جميع البراهين التي استدل بها الفلاسفة على وجود الله فإنها كثيرة يشابه بعضها بعضا في القواعد وإن اختلفت قليلا في التفصيلات والفروع، ولكننا نكتفي منها بأشيعها وأجمعها وأقربها إلى التواتر والقبول، وهي: برهان الخلق، وبرهان الغاية، وبرهان الاستكمال أو الاستقصاء، وبرهان الأخلاق أو وازع الضمير.

محمد الإنسان

من الأقوال المتواترة بين كثير من مؤرخي المسيحية، أنها انتشرت على يد بولس الرسول، ولو لم يعرف المسيحيون قبل ذلك بهذا الاسم لعرفوا في الغرب باسم «البولسيين» نسبة إلى «بولس» الذي كان يسمى قبل ذلك باسم شاؤل

ويحمل الاستطراد بعض مؤرخي الغرب إلى التماس الشبه بين انتشار المسيحية وانتشار الإسلام في خصلة كهذه بين محمد عليه السلام وخليفة من أكبر أصحابه وهو الفاروق عمر بن الخطاب ، ويزيدهم ولعا بهذا التشبيه أن الفاروق كان ، أيام جاهليته ، أشد أبناء قريش إيذاء للمسلمين ، وكذلك كان بولس قبل إيمانه برسالة السيد المسيح ، فإنه آمن بها وهو يتجرد لاضطهاد أتباعها في حملة من حملاته على الشام .

وهذه مشابهة مغرية بالمقارنة في أكثر ظواهرها وأشكالها ولكنها تنقضي عند حقيقة واحدة غفل عنها أصحاب المقارنات بين الأديان ، وتلك هي الفرق بين أثر الدعوة وأثر الداعي بالنسبة إلى الرجلين . فإن بولس الرسول لم يلق السيد المسيح ولم يعاشره على التحقيق . ولكن الفاروق كان هو نفسه غرسا من غروس محمد عليه السلام ، وكان في كل ما عمله بعد إسلامه طالبا مجتهدا على يد معلم محبوب .

واجتماع الرجال الأفذاذ من قبيل ابن الخطاب هو مقياس العظمة الإنسانية في نبي الإسلام صلوات الله عليه ، فلم يحدث قط في تواريخ الدعوات الدينية ، كتابية كانت أو غير كتابية ، أن اجتمع حول داع من دعاتها رهط من أفذاذ الرجال يدينون «لشخص» ذلك الداعي بالإجلال والمحبة ويعترفون له بالتفوق والرجحان راضين مغتبطين كما اجتمع الفاروق وأقرانه حول نبي الإسلام ، وقد ظل الفاروق طوال حياته يتحدث بعذوبة قول النبي له «يا أخي» مرة وندائه له بكنيته «أبي حفص» مرة أخرى ، وظل غيره من الصحابة يحتفلون بكل أثر «شخصي» ظفروا به في أيام صحبتهم له سنوات بعد سنوات ..

* * *

كان للأنبياء والدعاة أصحاب كثيرون أو قليلون ، ولكنهم لم يذكروا بين عداد العاملين بين أبطال التاريخ ، ولم يجتمع قط في صحبة طويلة لأنبياء أمثال هؤلاء الأصحاب الذين حفوا بنبي الإسلام . ولا نحصيهم في هذا المقام ولكننا نذكر منهم أبا بكر وعثمان وعليا وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، ومعاذ بن جبل ومعاوية بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح والمقداد بن عمرو ، وغيرهم من السابقين المتلاحقين في هذا الطراز . كل منهم أمة في رجل أو قائد على

جيش ، أو مؤسس لدولة أو سيد بين علية القوم يؤتم به ويهاب . وكلهم يلحظ في عشرته لنبيه أنه يعتز برئاسته وولائه ، فضلا عن إيمانه به إيمان المهتدي بهاديه المصدق الأمين .

ذلك مقياس للعظمة الإنسانية لم يتحقق قط لعظيم من عظماء بني الإنسان ، ولا استثناء لأحد من العظماء الدينيين كان أو من العظماء الدنيويين .

فالصداقة العالية أكبر برهان من براهين العظمة المحمدية في صورتها الإنسانية ، مع صورتها القدسية الإلهية .

ومحمد الصديق هو أعظم العظماء بين بني الإنسان بمقياس هذه «الظاهرة» النفسية الفذة في تواريخ العظماء .

* * *

ولسنا نقول غير الحقيقة التي تثبت كل الثبوت بمعيار النفوس ، إذا قلنا أن محمدا الزوج أعظم نفسا وخلقا من محمد الصديق .

إن الأراذل من المحترفين بالتبشير الديني قد ابتذلوا كل أدب من آداب الدين ، وكل خلق من أخلاق الكرام ، حين اتخذوا من زواج محمد عليه السلام مذمة يعيبون بها ، حاشاه ، بين رسل الله بل يعيبونه بها بين عامة الخلق من عباد الله.

ولو كان محمد كما أرادوا أن يكون طالب متعة في زواجه ، لكان على النقيض مما كان – في حريمه عشرات من أجمل العقائل والجواري ، من بيوت العرب ومن سبايا العجم والروم ، يرفلن في الحرير ويتحلين بالذهب والجوهر ، ويأكلن على سماط كسماط قيصر وكسرى وبلقيس .

ولكنه كان وحوله من الزوجات الكهلة والشيخة والتي مات عنها زوجها والتي عز عليها الزواج من غيره ، ولم تكن بين هؤلاء غير فتاة عذراء واحدة هي بنت صديقه أبي بكر الصديق ، وكن جميعا يشكين قلة المؤنة وشظف العيش ويخيرن بين الطلاق وبين البقاء على هذه الحال :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ .

وإذا بحثنا عن بواعث الزواج النبوى كلها لم نجد بينها غير باعثين اثنين كان لهما الأثر الأول والأخير فى اختياره عليه السلام لكل زوجة من زوجاته : وهما مصلحة الدعوة والمروءة العالية .

فقد بنى بثلاث من زوجاته لأنهن بنات أصحابه الأوائل : أبى بكر وعمر وعثمان ، وليس للأخوة فى الله من سند إنسانى فى بلاد العرب أوثق من الأخوة فى النسب والمصاهرة .

وأولى زوجاته خديجة رضى الله عنها كانت فى نحو الأربعين يوم بنى بها وهو فى نحو الخامسة والعشرين ولم يكن وفاؤه لها وفاء الحس والمتعة ، لأنه فضلها على أصغر زوجاته وأحبهن إليه : عائشة بنت الصديق ، عليهما الرضوان ..

وكانت أم سلمة مسنة حين قتل زوجها عبد الله المخزومى فى واقعة أحد . ورملة بنت أبى سفيان تركت أباها لتسلم وتركت وطنها لتهاجر ، وفارقها زوجها بغير عائل وهى فى الحبشة ، فطلبها النبى من النجاشى وتزوج بها لكى لا ترتد وهى عائدة إلى أهلها ، وصفية الإسرائيلية خيرت بين العودة إلى قومها وبين العتق وزواج الحرائر غير السبايا .. فاختارت زواجها بالنبى عليه السلام .

وأكرم ما كان من بواعث المروءة فى اختيار زوجات النبى قد كان ذلك الزواج الذى خاض المبشرون فى حديثه ، وزعموه عشقا غلبه على نفسه الكريمة . حاشاه ، فطلقها من فتاه زيد لبضمها إليه .

فقد كانت زينب زوجة زيد بن حارثة من بنات عمومته عليه السلام رآها منذ طفولتها إلى يوم زفافها ، ولم تكن من الغريبات اللاتى يفاجأ برؤيتهن لأول مرة فى بيوت أزواجهن ، وإنما كان كرم النبى هو الذى حبب إليه أن يرفع من شأن الأسير الغريب فيجعله أهلا لمصاهرته ومصاهرة بنى هاشم من أبناء عمومته . وقد شق على الفتاة أن تسكن إلى العيش مع رجل من غير أكفائها ، ثم شق على زيد أن يواجه النبى بتسريح بنت عمته بعد ما كرمه بمصاهرته ، فكان كرم النبى باعثه على إعفاء الزوج من ضنك هذه العشرة وإعفاء الزوجة من إهمال يصيبها بعد طلاق يذلها ، ثم يقصى عنها الخاطبين الذين لا يتقدمون مختارين إلى مطلقات الأرقاء ، وتمت القدوة كما أرادها الإنسان بمروءته وأرادها النبى بتشريف الأسير وجبر الخاطر الكسير ..

وإن الإنسان - حق الإنسان - ليعرف من أمر محمد فى اختيار زوجاته جانبا من المروءة المثلى فى صاحب الدعوة الإلهية ينبئ عن تلك العظمة الإنسانية التى تمثلت فى مكانة الرجل بين صفوة الأبطال من عظماء الرجال فهو كذلك لأنه إنسان عظيم ، غاية ما ترتقى إليه شمائل الرجل العظيم

ولقد كانت معاملة محمد لنسائه صفحة أخرى من صفحات تلك المروءة التى يسمو بها - إنسانا عظيما - إلى شرف الرسالة الإلهية ، فمن وصاياه ، نبيا إن خير الناس خيرهم لنسائهم ، ومن رعايته لهن ، إنسانا ، قد ضرب للرجال مثلا يعلو على غاية الغايات فى العمل بتلك الوصية ، فما من رجل مضت له فى العشرة الزوجية سنوات طوال لم تفلت من لسانه الكلمة النابية ولم تبد على وجهه اللمحة القاسية ، ولم يلق امرأته بحالة من الشدة تبدو من الرجل للمرأة كما تبدو من المرأة للرجل ، وهذه سيرة محمد مفصلة مطولة لم يهمل رواتها خبرا من أخبارها ولم يسقطوا حديثا من أحاديثها التى تؤثر بالنقل والرواية فما انتقلت إلينا منه كلمة زجر ولا نظرة سخط ولا لمحة تأنيب أو زراية ولم يكن له فى حالة غير حال الرضا موقف أشد من موقف العتاب فى صمت أو السؤال فى غير إقبال ، وتلك شيمة من شيم الرفق الإنسانى تتلاقى عنده طبائع الملائكة وطبائع البشر من أبناء آدم وحواء .

وليس هذا من صنيع رجل لا يعرف الغضب ، فليس من لا يعرف الغضب بإنسان ! ولكنها قدرة على النفس حيث تحمد القدرة فى موضعها ، وهى أحمد ما تكون من رجل إذا غضب حق الغضب استطاع أن يوقع بمن يغضب عليه ما ليس فى طاقة الأقوياء بله الضعفاء ، ولقد غضب النبى على أناس خدعوه وكفروا نعمته وقتلوا الآمنين من رجاله واستدرجوهم ليعلموهم الدين كما زعموا فغدروا بهم وانتزعوا منهم ما أحسنوا به إليهم ، فغضب الإنسان محمد والنبى محمد ، حيث يغلب الرضا والهوادة .

غضب على الغدر والشر والخداع والغلظة ، وجزاهم الجزاء العدل وهم غير أهل للرحمة ولم يحرمهم الرحمة وهى ليست عنده أو ليست من ألزم شمائله بل حرمهم رحمته ورحمة الله لأن الرحمة بهم قسوة على كل خلق شريف فى الإنسان . لكن غضبه سواء ورفقه ورحمته فى خير ما يحمد من إنسان .

ولقد يكون الضعف الإنسانى خير مقياس للعظمة الإنسانية فى أرفع مراتبها، بل هو فى الواقع أصدق قياسا للعظمة الحقة من منازلة الأبطال الأشداء من الرجال فإن من يغلب بقدرته قدرة تصارعها وتضارعها عظيم ، ولكن القدرة التى هى أعظم من قدرة القاهر الغلاب قدرة تثنى نفسها باختيارها لترفق بالضعيف الذى لا طاقة له بقهرها ولا غنى له عن رفقها ولا أمل له فى النصفة من غيرها ، ولا حصر لمآثر النبى التى شمل بها الضعفاء فى عنفوان قوته ونصره ، ولكننا نحصرها كلها إذا ذكرنا منها تلك المروءة التى حببت إليه أن يجبر خاطر الأسير الضعيف المنقطع عن أهله ، فيرفعه إلى مقام مصاهرته فى أقرب الناس إليه ، وتلك آية من آيات «الإنسانية» الحقة أروع ما فيها أن تأتى من النبى العربى القرشى الهاشمى وليس أحق منه باعتزاز النسب فى مقام المصاهرة .

إن محمداً الصديق لإنسان فى الذروة من عظمة الإنسانية .

وإن محمداً رب الأسرة لفى الذروة من رفق الإنسانية .

وإن محمداً المنتقم لفى الذروة من بأس الإنسانية وعدل الإنسانية والرحمة بالإنسانية .

إن محمداً السيد لفى الذروة من بطولة الإنسانية .

وإن محمداً الأب قد عرف ضعف الإنسان فبكى بكاء الإنسان ، فكان فى موضع ضعفه نعم الأب الإنسان ، نعم النبى المرسل فى آن .

بكى وهو يحمل جثة وليده الصغير إبراهيم على يديه ، ونظر إلى الجبل فقال : «يا جبل : لو كان بك مثل ما بى لهدك» .

ولكن «إنا لله وإنا إليه راجعون» .

وكان النبى الصادق الأمين أقرب ما يكون يومئذ من الإنسان الباكى الحزين؛ فلما انكسفت الشمس وقيل أنها انكسفت لموت إبراهيم أبت النبوة على الأب أن يبلغ بالنبوة هذا المبلغ فى سورة الوجد عليه ، فقال الأب الذى انكسفت الشمس حقا فى عينيه : «كلا إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا حياته» .

بهذا الحزن الصادق وهذا الصدق الحزين استحق الإنسان محمد بمشيئة الله أن يصبح رسوله إلى الناس : «والله أعلم حيث يجعل رسالته» ، كما قال عز من قال .

ومحمد «الإنسان» هو الذى استحق كرامة النبوة فصنع فى تاريخ الكون ما لم يصنعه قط إنسان سواه : أربعمائة ألف ألف من بنى الإنسان هم اليوم فى مشارق الأرض ومغاربها يقرنون اسمه باسم خالق الأرض والسماء كل صباح ومساء : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

ليلة القدر

ليلة القدر خير من ألف شهر ..

والمتفق عليه بين جمهرة المفسرين أن ليلة القدر شرفت هذا التشريف لنزول القرآن الكريم فيها ، ولا خلاف بينهم على هذا المعنى ، ولكنهم – كعادتهم فى تحقيق كل دقيقة وجليلة من تفاصيل الآيات والأخبار القرآنية – يفسرون نزول القرآن على كل وجه من وجوهه المحتملة ، إذ يجوز أن يكون المقصود به ابتداء النزول كما يجوز أن يقصد به نزول الكتاب كله جملة واحدة ، ويشير القرطبى وابن كثير إلى قول القائلين أن ليلة القدر اسم جنس لجميع الليالى التى نزلت فيها الآيات ، قد تبلغ عدتها عشرين أو أكثر من عشرين ليلة على هذا الاحتمال. ولكنه قول لا يأخذ به الكثيرون وإن أخذوا بتعدد الليالى التى نزلت فيها آيات الكتاب .

والمفسرون الذين يحققون أن ليلة القدر ليلة واحدة من ليالى شهر رمضان يرجحون أنها إحدى ليالى العشر الأخيرات ، وأنها على الأرجح ليلة السابع والعشرين منه لأسباب لا محل لتفصيلها فى هذا المقام .

ومن المفسرين من يرى أن نزول القرآن الكريم جملة واحدة هو المقصود بنزوله فى ليلة القدر يعززون رأيهم بأن ابتداء نزول الآيات كان نهارا ، ولم يكن فى ليلة من الليالى ، لأنه من المتواتر أن النبى عليه السلام خوطب بأول آية كريمة وهو عاكف بغار حراء ، وقيل له (اقرأ) فقال : ما أنا بقارئ ، إلى آخر ما ورد فى الحديث المشهور ، ولكن الأمر الذى لا خلاف فيه أن سورة العلق التى افتتحت بهذه الآيات قد تمت بعد ذلك لما ورد فيها من الإشارة إلى الأمور التى حدثت كما قال الأستاذ الإمام «بعد شيوع خبر البعثة وظهور أمر النبوة وتحرش قريش لإيذائه عليه السلام» .

فلا خلاف على وجه من الوجوه في تشريف ليلة القدر لنزول القرآن الكريم فيها آيات متفرقة أو جملة واحدة ، وإن حكمتها الكبرى أنها هي ليلة الفرقان كما جاء في سورة الدخان ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) ﴾ .

فهي ليلة القدر لأنها ليلة التقدير والتمييز بين الخير والشر والتفريق بين المباح والمحظور ، والأمر بالدعوة والتكليف ، وهو أشرف ما يتشرف به الإنسان لأنه هو المخلوق المميز بالتكليف والمخصوص بالتمييز بين جميع المخلوقات ، ومن أجل هذا فضل الإنسان على الملائكة ، لأنها لا تتعرض لما يتعرض له الإنسان من فتنة التمييز بين المباح والمحظور وفضيلة الوصول إلى الخير والامتناع عن الشر بمشيئة الحي المكلف المسئول ، وقد افتتحت دعوة محمد عليه السلام بالأمر بالقراءة واقتران تمييز آدم على الملائكة بفضيلة العلم كما جاء في وصف الخليفة من الكتاب المبين :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) ﴾ .

وقد جاء وصف الإنسان بهذه المزية بعد الأمر بالقراءة في أول آية خوطب بها عليه السلام ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ .

وهكذا ينبغي أن نفهم معنى القرآن ومعنى الفرقان ومعنى التقدير والتمييز الذي خص به الإنسان ، ومعنى الأمر الحكيم الذي يفرق في ليلة القدر ، بأمر العليم الحكيم .

فالشرف الذي فضلت به ليلة القدر إنما هو شرف التقدير والتمييز ، وشرف القرآن والفرقان ، وشرف التكليف الذي رفع به الإنسان إلى منزلة أشرف

المخلوقات وحق عليه أن يذكره لأنه محاسب عليه ، فيذكر في كل يوم وليلة أنه مسؤول عما يفعل وأنه مشرف بين الخلائق جميعا لأنه مناط السؤال والحساب .

وعلى هذا المعنى وحده ينبغي أن نفهم التقدير الذي يرتبط بنزول القرآن وبأمر القراءة والعلم الذي يفرق به كل أمر حكيم .

ومن حقائق البداهة التي يدين بها المؤمن بالله أنه سبحانه وتعالى يقدر الأقدار ويقسم الأرزاق ، ويحيي ويميت ، ويجري قضاءه في صروف الحوادث وأطوال الحياة والأحياء ، ولكن اقتران ذلك بليلة واحدة من ليالي الزمن أمر لا يقول به المؤمن بالإله الواحد السرمد الذي لا أول له ولا آخر ، ولا تأخذه سنة ولا نوم ، وإنما يتخلف هذا الاعتقاد من بقايا الأديان التي ظلت تعدد الأرباب وتخص كل رب منها بوقته وبسمائه ، أو تشبهه بما يعده الإنسان من أعمال أصحاب التصريف والسلطان من بني نوعه المحكمين فيه ، وتجعل للسعود والنحوس أياما تتعلق بمطالع النجوم ومدارات الأفلاك ، ويستنزلها العارفون بأسرار النجوم عندهم توسلا إليها بشفاعة القرابين والضحايا ورموز الطلاسم والعبادات .

ومن بقايا تلك العقائد الوثنية تسربت عقيدة التقدير في إحدى ليالي السنة ، وسرت إلى بني إسرائيل بعد اختلاطهم بعباد النجوم والأرباب الأرضية أو الفلكية في أرض بابل فأخذت سبيلها مع سائر الخرافات والإسرائيليات إلى عامة المسلمين ، فظهر في تلك الأساطير التي أحاطت بأخبار ليلة القدر وعدلت بتلك الليلة المباركة عن معناها الذي يتصل به شرف الإنسان وشرف التمييز والتكليف إلى معنى يناقضه ويبطل حكمته ويبطل حكمة الإسلام في جملته ، لأنه يرتهن السعادة والشقاء والمثوبة والجزاء بغير الأعمال والمقاصد ويعود بها إلى أرصاد الليالي والأيام ورموز الشفاعات والقرابين .

كان قدماء البابليين يحتفلون بسنتهم الزراعية ويبتهلون إلى أربابهم في مطلعها أن يغدق فيها المطر ، ويورق فيها الشجر ، ويجعلها سنة أمن ورخاء ونعمة وثراء ، لاعتقادهم أن أرباب النجوم تقضي في الليلة الأولى من مطلع السنة كل ما يقضى من أمور الخصب والجدب والرزق والحرمان والحياة والموت ، وكان من عقائدهم أن للأعمار شجرة تخضر أوراقها أو تذبل مع

اخضرار الشجر على الأرض وذبوله ، فمن كتب له العيش اخضرت ورقته ، ومن قضى عليه بالموت ذبلت ورقته وسقطت فلم يبق منه غير عود كعيدان الحطب بغير روح ، وكان من عقائدهم مع هذا أن اخضرار الورقة وذبولها مرتهنان بمراسم الصلاة وطلاسم السحر التي يتولاها الكهان ويفرضون من أجلها القرابين والهدايا على طلاب الصلوات والدعوات .

وقد نقل الإسرائيليون كل ذلك إلى عيد من أعيادهم التي اختلطت فيها عبادة الإله بعبادة الأرباب الوثنية ، ثم تسربت منهم إلى عامة المسلمين ، وانخدع بها من غير العامة من كان يحسب أن القوم ينقلون ذلك عن مصادر الكتاب الصحيحة فأضافوا إلى ليلة القدر أكثر ما كان يقال عن مراسم السنة الزراعية عند البابليين ومراسم التفكير عند كهان إسرائيل .

ولعل انتقال بعضهم بليلة القدر إلى منتصف شهر شعبان ، مع وضوح نسبتها إلى شهر الصيام في القرآن الكريم ، إنما جاء من ذلك الاعتقاد القديم في السنة الزراعية إذ كان شهر شعبان إنما سمي بذلك لانشعاب عيدان الشجر فيه على ما جاء في روايات الجاهلية ، فهو أشبه بما كان يقال في بابل القديمة عن شجرة الحياة وعما يعرض لها من «انشعاب» الأعمار بين الاخضرار والذبول .

لكنه في الواقع «انشعاب» آخر بين العقائد الإسلامية في صميمها وبين العقائد التي تخلفت عن عبادة الأوثان والأرباب من دون الله .

فالعقيدة الإسلامية في صميمها لا تتمثل في شيء كما تتمثل في التكليف والتمييز ، وفي المخلوق العامل المسؤول الذي يدان بعمله ولا يصيبه الجزاء أو الغفران من عمل غيره ، وهنا تتشعب العقائد بين ليلة القدر في شريعة المسلم وبين أشباه هذه الليالي في كل شريعة يناط فيها قدر الإنسان بغير الأعمال والنيات ، وإن المسلم ليعود إلى إسلامه الصحيح كلما احتفل بليلة القدر ، وهو يذكر أنها ليلة فرقان وحسب ، وأنه يدعو الله فيها لشرف بما شرفته به الليلة المباركة من آيات التقدير والتذكير .

القصة في القرآن الكريم

القصص في اللغة هو تتبع الأثر لمعرفة المكان الذي نزل به أصحابه أو سلكوه .

ومن هنا قيل للحكاية عن القوم أنها قصة ، لأن من يحكي عنهم يتتبع أثرهم ليعرف خبرهم ، فهو يقص سيرتهم في الزمان ، كما نقص السير في المواقع والجهات .

وقد وردت الكلمة في القرآن الكريم بالمعنيين في سورة واحدة ، فجاء في سورة الكهف: ﴿ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) ﴾ بمعنى تتبع الأثر لمعرفة الطريق ، وجاء فيها : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) ﴾ بمعنى تتبع الخبر في التاريخ

ولكن كلمة القصص في القرآن الكريم تنصرف على عمومها إلى معنى الهداية إلى الأخبار والآثار الباقية من سير القرون الغابرة ، وهي تساق في الكتاب لمقاصد كثيرة تجمعها كلها هذه المقاصد الثلاثة

فهي تساق للعبرة والموعظة ، أو تساق للقدوة وتثبيت العزيمة ، أو تساق للتعليم والهداية.

وتتلى قصص العبرة والموعظة في القرآن الكريم لتذكير الأحياء بمصائر الغابرين من الأمم الأولى ، وكانت توصف بأنها أساطير الأولين من الكلام المسطور أي المكتوب ، وقد تكون الكلمة إحدى الألفاظ التي تعربت عن اليونانية ، لأن «الاستوريا» عندهم بمعنى الخبر المسجل أو المعروف ، ولا يبعد أن يكون اليونان قد أخذوها عن العرب لأنهم أخذوا الكتابة عن الأمم السامية وسبقهم عرب الشمال وعرب الجنوب إلى رسم الحروف ، ولا تزال أسماء «الألفا والبيتا والجما» عندهم منقولة من الألف والباء والجيم ، بل يرجح أن كلمة «كلموس» اليونانية أي «القلم» منقولة عن العربية ، لأن القلامة أصيلة فيها ، ومن مادتها «القصم والنضم والقطم والقحم والقرم» وكلها تفيد القطع كما يفيده التقليم ، وكذلك السطر والشطر بمعنى الخط أو القط في العربية ، يقال سطره وشطره وخطه بمعنى واحد ، فليس من البعيد أن تنتقل هذه الكلمات مصاحبة للكتابة التي لاشك في انتقالها من الأمم السامية إلى اليونان .

وقد ترددت في القرآن الكريم أخبار الأولين على سبيل العبرة والموعظة ، وكان مدارها جميعا على تحذير الأمم الباقية من الاغترار بالمتعة .. كما اغترت

بها الأمم الخالية ، وكانت هذه العظات ألزم العبر لتلك الأمم التي آمنت بالأوثان والأرباب ولم تؤمن بالوحدانية. فإنها إذا علمت أن أربابها لا تحميها من الكوارث، ولا تقدر على إصابتها بها ، ذهب ايمانهم بتلك الأرباب ، ووجب عليها أن تبحث عن قوة إلهية تملك القدرة التي عجزت عنها معبوداتها .

وفي القرآن غير القصص التي تدعو إلى العبرة بمصير الكافرين أنباء تروى عن الأنبياء الذين أرسلوهم إلى الأمم الغابرة فكذبتهم وتنكرت لهم ، ثم ظهرت دعوتهم وحاقت النقمة بمن كذبوهم وأنكروهم ، وبقيت تلك القدرة لينتفع بها من يعمل عملهم ، ويقفو أثرهم ، ويلقى من قوله مثل ما كانوا يلقونه من أقوامهم ... ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) ﴾ كما جاء في سورة هود .

وهذه على الجملة حكمة القصص التي جاءت في الكتاب عن جهاد الرسل وعاقبة الصبر على الدعوة ، تثبيتا للأفئدة وتبشيرا للدعاة والمصلحين بعاقبة الصبر على الجهاد .

* * *

ومن قصص التعليم والهداية في القرآن قصة موسى والخضر عليهما السلام. يرى بعض المفسرين أنها درس لأصحاب الشرائع يفرقون به بين شريعة الظاهر وشريعة الباطن كأنهما على اختلاف ، كما اعتقد أناس من القائلين بالأسرار والإشارات الخفية ، ويرى الثقات أن القصة درس لأصحاب الشرائع حقا ولكنهم يفهمون من هذا الدرس أن سعة العلم من شروط القضاء بين الناس، وأن العدل منوط بمقدار ما يعلمه الحاكم من شؤونهم وحقائق أحوالهم وأسباب مصالحهم ، فلا يتساوى في العدل قاض يعرف تلك الأحوال على حقائقها وآخر ينظر فيها بما يبدو له ظاهرها ، وذلك درس لا غنى عنه لمن يقضي بشريعة من الشرائع تجري على قسطاس واحد ولا يختلف فيها ظاهر وباطن ، كما يعتقد القائلون بالأسرار والإشارات الخفية . فلا حاجة بالقاضي العادل إلى غير العلم بحقيقة القضية التي بين يديه ، ثم لا يختلف فيها بعد ذلك قولان .

ومن الواجب أن نذكر أن قصص القرآن جميعا تساق للموعظة والتعليم وحسن القدوة ، وأنها تأخذ من التاريخ ما فيه الغنى لكل سياق أو مقصد يعنى به الدين . فليس المقصود بها تفصيل التواريخ ولا تسجيل الوقائع والسنين ، وليست حكمتها موقوفة على شيء غير ما فيه الكفاية لهذه المقاصد كما يفهمها الناس

ولكن الجانب التاريخي المحض من القصص الديني قد كان له درسه النافع للمتعجلين من أدعياء التحقيق – العلمي – منذ أوائل القرن التاسع عشر ، لعلهم لا يستغنون عنه بعد انتصاف القرن العشرين . فقد كان ورود الخبر في كتاب من كتب الدين كافيا عندهم للجزم باختلافه وحسبانه في عداد الخرافات أو في عداد الخيالات الشعرية التي لم تحدث قط في غير أوهام الشعراء ، فلم تمض سنوات على الشروع في حركة البحوث الحفرية حتى ثبتت علامات الصبغة التاريخية لكل خبر من أخبار تلك الحوادث المشكوك فيها ، وثبت أن علماء التاريخ كانوا خلقاء أن يجهلوا كل شيء عن تلك الحوادث لو لم يعلموا بها من مصادرها الدينية ، قبل أن يتوفروا على حركة الحفر والتنقيب في آثار الشرق الأدنى وما جاور بلاد النهرين .

وفي هذه الأخبار ما كانوا يقرءونه في الكتب ويمرون به على غير انتباه لأنهم لم يعرفوا له خطرا جديرا بالاهتمام في غير المصادر الدينية ، فشكوا في وجود عاد وثمود وشكوا في حملة الفيل وهلاك أصحاب الفيل، وشكوا في الزلازل والأعاصير والطوفانات والجوائح والحروب التي سيقت مساق العبرة في قصص القرآن وانفرد بها أحيانا بين كتب الأديان. فلما حققوا الآثار وصححوا المراجعة تبين أن عادا وثمودا من أخبار بطليموس ، وإن هلاك أصحاب الفيل من تواريخ الحبش والروم ، وأن المدن التي ساخت بها الأرض أو عصفت بها الرياح حقيقة لا تقل في صدقها عن حقائق طيبة ومنف وطروادة ومسيني ، وإن فقه اللغة تقول لنا اليوم بعد المقارنة بين اللغات كل ما كتبوه من الأصول أو من الصلات بين شعوب الأمس وأعراقه في أحاديث المتدينين ، وإنهم هم في إنكارهم وتحقيقهم المزعوم قد أبدعوا لهذا العصر صورة جديدة من صور الخرافة لم تكن مقبولة عند المخرفين الأقدمين ، وهي خرافة العالم الذي ينكر ما يجهل ويجهل ما ينكر ، ويظن أن كلمة «التحقيق» وحدها سلطة تخولهم دون غيرهم حق الاستئثار بالرفض والإنكار .

وإذا أنكر هؤلاء المتعجلون كل شيء في الدين فلعلهم لا يستطيعون أن ينكروا اليوم هذا الدرس الذي تعلموه من كتب الدين ، فقد تعلموا على غير قصد منهم أن التعجل بالإنكار جهل شائن كجهل المتعجلين بالتصديق .

كان منا رجل من رجال الأعمال ، وسفير ، وشاعر ، وكاتب ، وصحفي ، ومنا المسلمون والمسيحيون ، وجرى حديث الصحة ونظام التغذية المفضل فقال رجل الأعمال : «إنني تعودت بين حين وحين أن أصوم أسبوعًا أو أسبوعين عن كل طعام غير السوائل وأفضل من السوائل عصير البرتقال».

وقال السفير : «إنني أصوم فترة كهذه وأكتفي فيها كل يوم بوجبة أو وجبتين من اللبن ، ولكني أفضل عليه السوائل الأخرى».

وقلت : «إنني أعالج الصوم مرة في كل أسبوع ، واختار يوما من أيامه للصوم عن كل طعام غير السوائل ، وأفضل منها مغلي البابونج أو عصير الليمون الحلو أو عصير البرتقال ، وقد أحتاج في أيام الأسبوع الأخرى إلى إسقاط وجبة من الوجبات الثلاث ، وأكثر ما تكون وجبة العشاء».

ولا أذكر مما قيل في هذا المعنى غير ما تقدم ، ولكني على يقين أن القارئ يسمع في مجالسه مثل ما سمعنا في ذلك المجلس وفي غيره ، فإن لم يسمع حديثًا عن الصيام لإصلاح المعدة سمع حديثًا عنه لاجتناب السمنة أو لزيادة نصيب الجسم من بعض الأغذية الحيوية ، أو سمع عن الصيام السياسي الذي يراد به فرض رأي أو الاحتجاج على معاملة ، فليس أكثر من أنواع الصيام في هذه الأيام .

ولا حاجة إلى الإفاضة عن الكلام على أنواع الصيام التي يعالجها الجنس اللطيف حرصا على الرشاقة واعتدال القوام ، أو رياضة له في سبيل الجمال تشبه الرياضة التي يعالجها اللاعبون في سبيل القوة والنشاط ، فإن حديث الصيام من هذا القبيل في كل بيت وكل ناد ، وبلغ من شيوعه أنه أخاف المصانع التي كانت تعول على الشراب الخفيف كالجعة والمنقرمات وما إليها وتعلم أن وجود الجنس اللطيف مع الرجال أكبر مشجع على الإكثار من هذه الأشربة ، فبتنا نقرأ عن الجعة التي تخفف السمنة وعن التي تزيل الرواسب وتحفظ على الجسم «هندامه» واعتدال قوامه .

ووراء هذه المنشورات مصالح تلك المصانع على الأقل في بعض الأحايين .

ليس زماننا إذن زمن الإعراض عن الصيام كأنه عادة من عادات الأقدمين التي عفى عليها الدهر كما يقولون ، بل هو في الواقع زمان تزيد فيه ألوان الصيام ولا تنقص ، ويكثر فيه اختلاف أنواعه ولا يقل ، فما علمنا من عصر قط أنه استحق أن يسمى عصرًا «صياميا» كالعصر الذي نحن فيه .

ونقول «الصيام على اختلاف أنواعه» لأن الأنواع التي ذكرناها آنفا ليست هي كل الصيام الذي يشتغل به أبناء العصر الحاضر ، فتلك جميعا أنواع «جسدية» تراد لحفظ الصحة أو حفظ الرشاقة أو حفظ القوة والنشاط ، وغيرها كثير من أنواع الصيام يدرسها أبناء العصر الحاضر ولا يطلق وصف «الأنواع الجسدية» ... لأنها تراد لتربية الخلق ورياضة النفس وتعويد الإنسان أن يملك عاداته كما يشاء .

وقد تفتح باب البحث في هذه «الصيامات» على أثر التوسع في دراسة الأديان والمقارنة بينها ، وعلى أثر التوسع في الدراسات النفسية وعلاقة العقل فيها بالبنية ، وعلى أثر القول بإمكان توليد الأمراض العقلية وشفائها بتعاطي بعض العقاقير أو الامتناع عن بعض أصناف الطعام .

وكثر الكلام على «اليوجا» الهندية ، كما كثر الكلام على عادات المتصوفين والنساك التي ملكوا بها زمام أجسادهم وضمائرهم ، فلا يقل الكلام على الصيام في سبيل الروح والضمير عن الصيام في سبيل الجوارح والعضلات .

والصيام الذي فرضته الأديان أحق هذه الأنواع بالبحث عن دواعيه وعن معانيه ، وقد طال القول في أصل الصيام الديني قديما قبل ظهور الأديان الكتابية فلا حاجة بنا إلى استقصائه في هذا المقام .

أما حكمة الصيام في الأديان الكتابية فهي محصورة في أغراض معدودة : وهي تعذيب النفس والتكفير عن الخطايا والسيئات ، وتربية الأخلاق على نحو من الأنحاء .

والدين الإسلامي هو الدين الكتابي الوحيد الذي فرض كتابه الصيام فترة معروفة من الزمن على نحو معروف من النظام .

ولا خلاف بين الأئمة فى الحكمة المقصودة بهذه الفريضة وهى تقويم الأخلاق وتربيتها ، وإن تعددت الأخلاق التى تذكر فى هذا المقام .

فمن الجائز كثيرا أن صيام الغنى يعلمه الرحمة بالفقير ، ولكنه مقصد لا يشمل الفقراء كما يشمل الأغنياء وكما ينبغى فى كل فريضة عامة لا تختص بإنسان ولا بطائفة من الناس .

أما الخلق الذى يعم الأغنياء والفقراء ولا يستفاد من فريضة عامة كما يستفاد من الصيام فهو «الإرادة» ألزم الصفات لكل إنسان . إن الإرادة لازمة فى كل تكليف وفى كل تبعة وفى كل فضيلة . فلا قوام للفرائض جميعا بغير هذه الإرادة .

وهى لازمة للفقير لزومها للغنى ، فإن كان أحدهما أحوج إليها من الآخر فهو الفقير ، لأن الغنى قد يجد عنده ما يعوض التفريط فى أعمال الإرادة والعزيمة والحزم والمضاء ، وليس هذا العوض ميسورا للفقير إلا بزيادة الجهد والعناء .

الإرادة إذن هى فضيلة الفضائل فى الصيام .

ومتى عرفت هذه الحكمة فآداب رمضان كلها محصورة فيها مستفادة من معناها . ولا حاجة بالصائم إلى أدب غير أن يذكر أنه يريد الصيام وأنه يقوم بفريضة يطلبها ويعلم نفعها ويحمل جهدها ، وإن لم تكن مفروضة عليه .

فليس من أدب رمضان أن يتململ الصائم وأن يتجهم لمحدثيه وأن يبدو منه ما يدل على الضيق بالفريضة كأنه مكره عليها مطيع لها بغير رضاه .

وليس من أدب رمضان أن يهرب الصائم من إرادته بقضاء النهار كله فى النوم تاركا للطعام ، لأنه غافل عن مواعيده غير منتبه إليه .

وليس من أدب رمضان أن يفلت زمام الإرادة بعد غروب الشمس فلا يعرف الصائم له إرادة تصده عن الإفراط فى الطعام والشراب إلى موعد الإمساك .

وليس من أدب رمضان أن يصوم الإنسان وهو معرض للتهلكة بصيامه فإن من كان مريضا لم تجب الفريضة عليه ولا معنى لأداء الفريضة إذن ، إلا أنه يريد لنفسه الهلاك ، وهذا محرم عليه .

كلمة «الإرادة» وحدها تلخص آداب رمضان ولا تحتاج إلى إسهاب فى تفسيرها وتعديد أنواعها .

ومزية رمضان أنه فريضة اجتماعية مع فرضه على آحاد المكلفين ، فهو موعد معلوم من العام لترويض الجماعة على نظام واحد من المعيشة وعلى نمط واحد من تغيير العادات ، وليس أصلح لتربية الأمة من تعويدها هذه الأهبة للنظام ولتغيير العادات شهرا فى كل سنة، تتلاقى فيه على سنن واحد فى الطعام واليقظة والرقاد وما يستتبع ذلك من أهبة الجماعة كلها لهذا الشهر خلال العام .

وإذا استطاعت الجماعة أن تريد ، ذلك التنظيم وذلك التغيير ، فليس ثمة نمط من أنماط المعيشة لا تستطيعه على هذا المثال فى الشدة أو الرخاء .

رمضان شهر الإرادة .

أدبه أدب الإرادة ، وحكمته حكمة الإرادة ، وليست الإرادة بالشىء اليسير فى الدين والخلق ، فما الدين وما الخلق إلا تبعات وتكاليف ، وعماد التبعات والتكاليف جميعا أنها تناط بمريد .

ومن ملك الإرادة فزمام الخلق جميعه فى يديه .

لو عاد محمد عليه السلام

من الأماثيل التى تعاد ولا تمل أمثولة للكاتب الروسى «ديستيفسكى» عن السيد المسيح ومحكمة التفتيش فى قصة الاخوة كرامزوف .

وخلاصة الأمثولة أن السيد المسيح عاد إلى الأرض وأخذ فى وعظ الشعب وتبشيره بالملكوت فأقبلوا عليه واستمعوا له وأوشكوا أن ينفضوا عن وعاظهم ودعاتهم المعهودين ، فأشفق هؤلاء على مكانتهم وأوعزوا إلى رئيس محكمة التفتيش فاعتقله وتوعده بالمحاكمة والحكم عليه لتضليله الشعب والانحراف به عن تعاليم السيد المسيح ... وقال له : إن هؤلاء الذين يقبلون عليك اليوم هم أول الثائرين عليك وأسبق المبادرين إلى تنفيذ القضاء فيك ..

أمثولة تعاد ولا تمل لأن العبرة بها لا تنقضى فى حقبة واحدة ، ولا تزال عبرة الدهر كله فى أحاديث المصلحين والمفسدين .

ولم يبالغ الكاتب العظيم فى تخيله . فإنما يكون مبالغا لو كان ما تخيله بعيدا أو غريبا فى بابه ، ولكنه فى الواقع أقرب شىء إلى الاحتمال مع هذه البشرية

التى تختلط فيها الشيطانية والخنزيرية والحمارية فى وقت واحد ، فلا تزال حربا على من ينفعها وألعوبة فى أيدى العابثين بها ، وإن كرروا العبث بها كل يوم مرات بعد مرات .

لو عاد السيد المسيح لأنكره كثيرون ممن يعيشون باسمه وينتحلون هدايته .

ولو عاد محمد عليه السلام لكان له نصيب كذلك النصيب ممن يرفعون العقيرة بهداية الإسلام والإسلام برىء منهم ، وكل ما هنالك من خلاف أن المسألة لا تمر بتلك السهولة التى توهمها رئيس محكمة التفتيش أو من يتصدى فى الإسلام لمثل عمله ، وأنه سيندم على فعلته ندما يكفر عن سيئاته . إن كانت سيئاته مما يقبل التكفير .

وأسأل نفسى كيف ينتفع المسلمون على أحسن وجوه النفع بعودة النبى عليه السلام فترة قصيرة من الزمن ؟ وما هى المسائل التى يرجعون بها إلى شخصه الكريم فيسمعون منه فصل الخطاب فيها ؟

أسأل نفسى فتخطر لى مسائل خمس يرجع فيها إلى شخصه الكريم ويغنى جوابه فيها كل الغناء . فلا لجاجة ولا اختلاط ولا حاجة إلى الاجتهاد والتأويل من مجتهد أو مقلد وما أشبه الاجتهاد والتقليد فى هذا الزمان !

تلك المسائل الخمس هى : مسألة الأحاديث النبوية . ومسألة الروايات فى قراءة الكتاب المجيد . ومسألة الخلافة والملك . ومسألة الرسالة والنبوة بعد خاتم المرسلين ، ومسألة المذاهب الاجتماعية الحديثة وحكم الإسلام عليها وقول نبى الإسلام فيها .

مسألة الأحاديث النبوية:

إن رجال الحديث قد بلغوا الغاية من الاجتهاد المشكور فى جمع الأحاديث وتبويبها وتقسيم رواتها وأسانيدها ، وقد جعلوا من أقسامها الثابت والراجح والحسن والمقبول والضعيف والمشكوك فيه والمرفوض وجعلوا لكل قسم شروطه وعلاماته فأصبح الحديث بفضل هذه الشروط والعلامات علما مستقلا يتفرغ له علماء مستقلون .

وبعد كل هذا الجهد المشكور لا تزيد الأحاديث الثابتة على عشر الأحاديث المتداولة فى الكتب وعلى الألسنة .

وكلمة واحدة من فمه الشريف عليه السلام ترد الأمور جميعا إلى نصابها : «لم أقل هذه الأحاديث !» وينتهى القيل والقال ويبطل الخلف والجدال ويبطل معهما بلاء أولئك المحدثين الذين يستندون إلى الحديث الكاذب فى التضليل وترويج الأباطيل .

قراءات القرآن:

ومسألة الروايات القرآنية دون مسألة الأحاديث فى أشكالها ونتائج الاختلاف عليها ، فإن الروايات التى لم يتفق عليها القراء لا تغير شيئا من أحكام القرآن ويمكن الأخذ بها جميعا ولا ضرر فى ذلك ولا ضرار .

إلا أنها لا تحتمل أقل اختلاف مع وجود النبى الذى نزل عليه القرآن فما يقوله فيها فهو مجتمع القراءات ومرجع الروايات ، ومتى استمع الناس إلى تلاوته – فى عصر التسجيل – فتلك ذخيرة الأبد فى ذاكرة الأجيال . وسيبقى صوته بتلاوة القرآن أول ما يسمعه السامعون فى مجالس الذكر الحكيم .

الخلافة والملك:

وتأتى مسألة الخلافة ، بل معضلة الخلافة .

تلك المعضلة التى سالت فيها بحور من الدم وجداول من المداد ، وبقيت وراء كل انقسام نذكره فى الإسلام حين نذكر السنة والشيعة والإماميين والزيديين والإسماعيليين والنزاريين ، وحين نذكر الهاشميين والأمويين والعباسيين والفاطميين وغيرهم وغيرهم من المنقسمين وأقسام المنقسمين .

بم أوصيت يا رسول الله فى أمر الخلافة ؟ وهل أوصيت بها دينية أو دنيوية ؟ وهل تريدها اليوم على هذه أو على تلك من صفاتها وأحكامها ؟

فإذا قال عليه السلام أوصيت بكذا ولم أوص بكذا ، فكأنما مسح بيده الشريفة على تلك الصفحات والمجلدات فإذا هى بيضاء من غير سوء ، وإذا

هى بقية من بقايا الماضى تحال إلى دار المحفوظات للعبرة والحذر أو يلقى بها حيث لا حس ولا خبر .

وكفى الله المؤمنين شر القتال وذكرى القتال .

الرسالة بعد خاتم المرسلين:

والخطب أهون من ذلك جدا فى مسألة الرسالة والنبوة بعد خاتم المرسلين ، فإن المخالفين للإجماع فى هذه المسألة واحد فى كل خمسمائة مسلم ، وسينتهى خلافهم عما قريب ولكن إذا انتهى بكلمة من الرسول الذى يؤمن به المسلمون جميعا فتلك هى النهاية الفاصلة ، وقد تمنع فى المستقبل أضرارا لا يقاس عليها ضررها فى الوقت الحاضر ، وخير من واحد ينشق على خمسمائة أن ينفق الخمسمائة فلا ينشق منهم واحد .

المذاهب الاجتماعية الحديثة:

وما قولك يا رسول الله فى دعاة المذاهب العصرية من اجتماعية أو غير اجتماعية ؟

لا حاجة إلى السؤال عن الديمقراطية ، فإن سابقة الإسلام فيها أصلح من كل سابقة .

ولا حاجة إلى السؤال عن الفاشية فإن الإسلام يمقت الجبارين والمتجبرين .

ولا حاجة إلى السؤال عن الشيوعية الماركسية ، فإنها ملعونة فى كل دين .

وإنما يسأل النبى عليه السلام فى الاشتراكية فيقول ما قاله القرآن حيث نهى أن تكون الثروة «دولة بين الأغنياء» .. ثم يسأل عن شرحها فيتلقاه منه المسلمون على أقوم المناهج وأسلم الحلول .

وتأتى على الهامش أسئلة عن ترجمة القرآن وعن حقوق المرأة وعن دعاوى المدعين فى الأحكام والقوانين باسم الدين ، وعن أحاديث شتى مما يتحدث عنه المصحفيون وأشباه المصحفيين .

ويسمع من النبى عليه السلام فى أولئك كله جواب يغنى عن ألف جواب أو عن كل جواب.

وتعود إلى محكمة التفتيش وما يشبه محكمة التفتيش بين المسلمين .

إن كاتب هذه السطور آخر من يؤمن بإقناع العقول أو بسلطان البرهان فى الإقناع .

إن كاتب هذه السطور قد رأى بعينيه أناسا أغرب وأصفق ممن ينكرون الشمس فى رائعة النهار .

وليس بالمستحيل عندى أن يعاندك المعاند ويكابرك المكابر فى «اثنين واثنين يساويان أربعة وفى واحد وواحد يساويان اثنين» .

وليس بالمستحيل عندى أن يكابرك المكابرون فى معنى الواحد ومعنى الاثنين وإن هذا خمسة وليس بواحد وذلك صفر وليس برقم من الأرقام

فإذا عاد النبى عليه السلام وقضى قضاءه فى أحكام الإسلام فلا والله لا يعدم الناس من يشكك فى كلامه وبيانه وفى ملامح وجهه وعلامات جثمانه ، ولا والله لن يسلس المقاد ممن يلج فى العناد ويضيع عليه الجاه أو الغنى بما قضاه الرسول وتلقاه الناس منه بالتسليم والقبول .

غير أنه ، فيما نحسب ، عناد لا ينفع أصحابه ولا يطمعون فى الرجاء منه حتى تقتحم الحوادث بالندم عليه ، وصلى الله على محمد فى الأولين والآخرين . فما هو إلا أن يعود فلا تعز عليه هداية المهتدين ورياضة الذين لا يهتدون فلا يحسون أحدا عن الدنيا ولا عن الدين.

لو عاد السيد المسيح

فى إحدى روايات الكاتب الروسى العظيم - دستيفسكى - بطل من أبطال الرواية يتخيل أن السيد المسيح عاد إلى الأرض فى طوفة عابرة ونزل بإشبيلية فى إبان سطوة «التفتيش» فوعظ الناس وصنع المعجزات وأقبل عليه الضعاف والمرضى والمحزونون يلثمون قدميه ويسألونه العون والرحمة .

وإنه ليمضى بين الشعب يضفى عليهم حبه وحنانه ويبسطون له شكاياتهم ومخاوفهم إذا برئيس ديوان التفتيش - المفتش الأعظم - يعبر بالمكان ويتأمل السيد والشعب من حوله هنيهة ثم يشير إلى الحراس ويأمرهم أن يعتقلوه ويودعوه حجز السجن فى انتظار التحقيق .

ويأتي المساء فيذهب المفتش الأعظم إلى الحجرة ويقول للرسول الكريم : «إنني أعرفك ولا أجهلك ، ولهذا حبستك ، لماذا جئت إلى هنا ؟ لماذا تعوقنا وتلقي العثرات والعقبات في سبيلنا ؟»

ثم يقول له فيما يقول : «إنك كلفت الناس ما ليست لهم به طاقة ، كلفتهم حرية الضمير ، كلفتهم مزية التمييز ، كلفتهم أوعر المسالك فلم يطيقوا ما كلفتهم وشقيت مساعيهم بما طلبت منهم .. والآن وقد عرفنا نحن داءهم وأعفيناهم من ذلك التكليف ، وأعدناهم إلى الشرائع والشعائر ، تعود إلينا لتأخذ سبيلنا وتحدثهم من جديد بحديث الاختيار وحرية الضمير ؟

«ليس أثقل على الإنسان من حمل الحرية ، وليس أسعد منه حين يخف عنه محملها وينقاد طائعا لمن يسمه الحرية ويوهمه في الوقت نفسه أنه قد أطلقها له وفوض إليه الأمر في اعتقاده وعمله . فلماذا تسوم الإنسان من جديد أن يفتح عينيه وأن يتطلع إلى المعرفة وأن يختار لنفسه ما يشاء ، وهو لا يعلم ما يشاء ؟

«إنك منحتنا السلطان قديما وليس لك أن تسترده ، وليس في عزمنا أن ننزل عنه ، فدع هذا الإنسان لنا وارجع من حيث أتيت ، وإلا أسلمناك لهذا الإنسان غدا وسلطناه عليك وحاسبناك بآياتك وأخذناك بمعجزاتك ، ولترين غدا هذا الشعب الذي لثم قدميك اليوم مقبلا علينا مبتهلا لنا أن نخلصه منك وأن ندينك كما ندين الضحايا من المعنتين والمحرقين» .

قال ايفان كرامزوف بطل الرواية التي تتخيل هذا الملتقى وهذا الحوار «إن السيد المسيح لم ينبس بكلمة ولم يقابل هذا الوعيد وهذا العداء بعبوس أو ازورار ، وتقدم إلى المفتش الأعظم - وهو شيخ فان في التسعين - فلثم شفتيه وخرج إلى ظلام المدينة وغاب عن الأنظار» .

خلاصة لما تخيله الكاتب العظيم في خطاب طويل مملوء بحكمة الحياة كما يراها «الحكماء» من الطرف الآخر الذي يقابل الحكمة المسيحية : حكمة الرسول الكريم .

ولا نحسب أن الخيال في هذا الخطاب العجيب بعيد عن الحقيقة ولا نستبعد ما قاله المفتش الأعظم حين أنذر الرسول الكريم أن يسلمه لمن يثور عليه ويصب عليه الويل والغضب بعد أن أحاط به ولثم قدميه وتوسل إليه .

كلا ، إن الخيال في ذلك الخطاب غير بعيد من الحقيقة ، وأقرب شيء إلى طبائع الناس أن يصنعوا ذلك الصنيع وأن يتبعوا المفتش الأعظم في نقمته على الرسول الكريم .

وأقرب شيء أن يكون لو عاد السيد المسيح إلى الأرض أن ينكر الكثير مما يعمل اليوم باسمه وأن يجد بين أتباعه كتبة وفريسيين ينعى عليهم الرياء ويعلمهم من جديد أن السبت للإنسان وليس الإنسان للسبت ، وإن العبرة بما في الضمائر لا بما تفوه به الألسن ويبدو على الوجوه ، وأن الوحي في طوية الإنسان لا في طوايا الكتب والأوراق .

أقرب شيء أن يكون أن ينعى على الناس ما نعاه قبل ألف وتسعمائة سنة ، وأن يجد إنسان اليوم كإنسان الأمس في شروره وعداوته ، وفي نفاقه وشقاقه ، وفي إعراضه عن اللباب وإقباله على القشور ، وفي استعلائه بالتقوى حين يتقي ، ولجاجه في الجمود والعدوان حين يجحد ويعتدي ، خمرا جديدة في زق قديم .

ذلك أقرب شيء أن يكون .

وأقرب شيء أن يقال إذا طاف بالخاطر ذلك الخيال ، وأن يردد اللسان قول أبي العلاء :

تعب غير نافع واجتهاد ... لا يؤدي إلى غناء اجتهاد

ففيم يشقى المصلحون ، وفيم يهلك الشهداء ؟ وفيم يأتي الأنبياء ويذهبون ؟ وفيم اختلفت الديانات واصطرع عليها المتدينون ؟ فيم كان هذا ؟ فيم جاء رسول بعد رسول ؟ وفيم توالى التابعون بعدهم بإحسان أو بغير إحسان .

جاءوا وعادوا

وانصرفوا والبلاء باق ... ولم يزل داؤنا العياء

لئن قيل هذا ليكونن أقرب ما يقال بعد تلك الحقيقة التي جاءت في صورة الخيال .

ولكن الحقيقة الكبرى التي توزن بها جميع الحقائق هي أن الحقيقة لا ترى من جانب واحد ، ولا سيما الحقيقة التي تخلد على الزمن في أطوار الإنسان منذ كان ، وتخلد معه أنى يكون .

ليست حرية الضمير مطلبا محدود المسافة ، يرحل إليه الإنسان ثم يصل إليه ويقعد عنده ، ويكف بعده عن كل عناء .

إنما حرية الضمير جهاد دائم وعمل دائب ، يتقدم فيه الإنسان شوطا بعد شوط ، أو طبقة فوق طبقة ، ولا يفرغ من جهاده يوما إلا لينظر بعده إلى جهاد مستأنف ولا يودع الشر في مرحلة من مراحله إلا ليلقاه ويجاهده ، ولن يلقاه في سلام .

ومطالبنا المحسوسة تهدينا إلى القياس الصحيح في هذه المشكلة ، وهي أولى بأن ندركها من المطالب الخفية التي تختلج بالضمير وتبعثه إلى العمل مرة حيث يرى مواقع خطوه ، ومرات حيث يبصر فلا يرى غير الحجب والظلمات .

منذا يقول أن عناء التعليم باطل إذا رأى الطفل يحمل الكتاب وهو في الخامسة ، ورآه يحمله وهو في العاشرة ، ورآه يحمله وهو في العشرين ثم في الثلاثين . ثم رآه مدى الحياة لا يستغنى عن علم ولا يقضى على الجهل كل القضاء ؟

منذا يقول أن عناء الطب باطل إذا رأى الناس يمرضون بعد علمهم بالجراثيم وبعد افتنانهم في الطبابة ومواقع الدواء وموانع الشفاء ؟

منذا يقول أن الغاية عبث لأن الطريق إليه طويل ، أو لأنها غاية تتلوها غاية بلا انقطاع ولا اكتفاء ؟

لا نقول هذا في محسوساتنا التي نلمحها ونلمسها ، فهل نقوله في غاية كحرية الضمير هي سر الأسرار في حياة الإنسان منذ كان وأنى يكون ؟

ليست العبرة أن الشر واقع ، ولكن العبرة كيف ننظر إليه وكيف نواقعه أو كيف نتقيه .

وإذا وقع اثنان في الشر ، فليس الذي وقع فيه وهو مستريح إليه مستزيد منه ، كالذي وقع فيه وهو مضطر إليه نادم عليه . وليس الذي وقع فيه وهو يعلمه كالذي وقع فيه وهو يجهله . أو يقف منه موقف المغالطة بين العلم والجهل وبين القصد والاضطرار .

إنما الإنسان غير الحيوان البهيم لأنه صاحب ضمير ، وإنما يقاس ضمير الإنسان بالقيم التي يقومها والمثل العليا التي يتمثلها ، والمطالب التي يطلبها وينالها أو لا ينالها ، وما دام المصلحون والرسل يعلمون الإنسان قيمة يغليها ويرفعون أمامه مثلا أعلى يتسامى إليه .. فهم عاملون وعملهم لازم ، ونتيجته محققة ، وإن دام الشر ولم ينقص عدد الذنوب والجرائم بأرقام الإحصاء .

وإذا قلنا يوما أن الإنسان في هذا العصر يطلب الخير ولا يدركه ، فقد قلنا على اليقين أنه أفضل من الإنسان الذي كان لا يطلبه ولا يعرفه ، وأن عمله غير مطلوب وغير معروف كما يعمل الحيوان .

إنما تقاس الأديان بما تودعه النفوس من القيم والحوافز ، وبما تزيده من نصيب الإنسان في حرية الضمير أو في حرية التمييز بين الحسن والقبيح ، وقد عملت الأديان كثيرا ولا تزال قادرة على العمل الكثير ، ولكنها لن تغني الإنسان يوما عن جهاد الضمير

كان جهلاء الناس فيما غبر ينتظرون ألف سنة يعم فيها الخير وينقطع فيها الشر ويمتنع الشقاء ولا يرى في العالم يومئذ غير سعداء أبناء سعداء .

وكان «العارفون» يقولون عن هؤلاء أنهم جهلاء

لكن هؤلاء العارفين أجهل منهم إذا اعتقدوا أن دينا من الأديان لم يحمل عملا ، ولم يكن غير عبث من العبث لأن الدنيا باق فيها الشر ، باق فيها البغي ، باق فيها الكفران .

أي فرق بين العارفين الذين ينتظرون من الدين دنيا لا تعاب وبين الجاهلين الذين انتظروا السعادة المطلقة في «الألفية» الموعودة آخر الزمان ، بعد قرون تعد بالعشرات أو بالمئات ؟

لعل هؤلاء الجاهلين أقرب إلى التقدير الصحيح من أولئك العارفين ، لأنهم يفكرون وينتظرون «الألفية» ، وقد نظرها الجاهلون بغير تفكير ! .

لو عاد السيد المسيح اليوم لوجد كثيرا يصنعه ويعيد صنعه ، ولصنع كثيرا بين أتباعه ومن يعملون باسمه ويتواصون بوصاياه ، ولكن الدنيا التي يصنع فيها الهداة صنيعا كثيرا خير من الدنيا التي لا موضع فيها لصنيع الهداة وجهاد الضمير .

ولن يختم المسيح العائد إلى الدنيا رسالة الخير والهداية ، فتلك هي شروط الضمير الذى لا ختام له ، وهو الغاية وراء كل ختام .

وسيعلم الناس فى العصر الحديث – إن لم يكونوا قد علموا حتى اليوم – أن عقيدة الإنسان شيء لا يأتيه من الخارج فيقبله مرضاة للداعي أو منّا عليه ، ولكنها هى ضميره وقوام حياته الباطنية يصلحه ، إن احتاج إلى الإصلاح ، كما يصلح بدنه عند الطبيب وهو لا يمتن عليه ولا يرى أنه عالج نفسه مرضاته ، فالعقيدة مسألة الإنسان ، لا شأن للأنبياء بها إلا لأنها مسألة الإنسان ، وعليه إذا عالج إصلاحه أن يعالجها كما يعالج جزءا من نفسه بل كما يعالج قوام نفسه ، ولا يعالجها بضاعة يردها إلى صاحبها ويفرغ من أمرها ، فلا فراغ من أمر العقيدة إلى آخر الزمان .

...في الشعر العربي...

المذاهب العربية

نظم الشعر فى اللغة العربية فن مستقل بذاته بين الفنون التى عرفت فى العصر الحديث باسم الفنون الجميلة ، وتلك مزية نادرة جدا بين أشعار الأمم الشرقية والغربية ، خلافا لما يبدر إلى الخاطر لأول وهلة .. فإن كثيرا من أشعار الأمم تكسب صفتها الفنية بمصاحبة فن آخر ، كالغناء ، أو الرقص أو الحركة على الإيقاع ، ولكن النظم العربي فن معروف المقاييس والأقسام بعد استقلاله عن الغناء والرقص والحركة الموقعة ، فلا يصعب تمييزه شطرة شطرة بمقياسه الفنى من البحور والأعاريض إلى الأوتاد والأسباب .

وليست هذه خاصة من خواص اللغات السامية أخوات العربية ، فإننا إذا أخذنا سطرا على حدة من قصيدة عبرية لم نستطع أن ننسبه إلى وزن محدود أو مقياس متفق عليه ، ولابد من اقترانه بسطور أخرى يتم بها الإيقاع ولا تطرد فى قول كل شاعر ولا فى سطر كل قصيدة ، فهو والفاصلة النثرية التى يمكن أداؤها بالغناء أو بالإيقاع على حركة الرقص متساويان .

ومن الشعر الغربى ما يعرف كل سطر منه بعدد من المقاطع والنبرات ، ولكنه بغير قافية تنتهى إليها هذه السطور .

أما ضروب النظم التى تلتزم فيها القافية ، فكلها فى نشأتها كانت تغنى أو تنشد على إيقاع الرقص ، ثم استقلت بأوزانها المحدودة على نحو مشابه للأوزان العربية ، وهى الموشحات التى اشتهرت عندهم باسم «استانزا» أو اسم «سونيت» ، ويدل كلا الاسمين على أصلها من الرقص والغناء .. فإن استانزا كلمة إيطالية بمعنى الوقف تقابلها ستاند Stand بالإنجليزية، وسونيت» Sonnet من كلمة سونج Song بمعنى الغناء .

فالشعر الذي لا يضبط بالوزن أو بالقافية موجود في اللغات السامية واللغات الآرية . وبعضه لا يزيد الإيقاع فيه على الموازنة بين السطور بغير ضابط متفق عليه . وبعضه يضبط فيه الإيقاع بعدد المقاطع والنبرات . ولا ينتهي إلى قافية ملتزمة في القصيدة أو المقطوعة الصغيرة .

إنما الوزن المقسم بالأسباب والأوتاد والتفاعيل والبحور خاصة عربية نادرة المثال في لغات العالم . وكذلك القافية التي تصاحب هذه الأوزان .

ومرجع ذلك إلى أسباب خاصة لم تتكرر في غير البيئة العربية الأولى : أهمها سببان هما الغناء المنفرد ، وبناء اللغة نفسها على الأوزان .

فالأمم التي ينفرد فيها الشاعر بالإنشاد تظهر القافية في شعرها .. لأن السامعين يحتاجون إلى الشعور بموضع الوقوف والترديد ، ولكن الجماعة إذا اشتركت في الغناء لم تكن بها حاجة إلى هذا التنبيه ، لأن المغنين جميعا يحفظون الغناء بفواصله ولوازمه ومواضع النبر والترديد في كلماته وفقراته . فيستغنون مع الإيقاع بغير حاجة إلى القوافي عند نهاية السطور . وإنما تنشأ الحاجة إلى القافية ، أو وقفة تشبه القافية عند تفاوت السطور وانقسام القوم إلى منشدين ومستمعين .

يقول العلامة جلبرت موري – وهو من ثقات البحث في الأوزان والأعاريض : «إن إحدى نتائج هذا الاختلاف زيادة الاعتماد على القافية في اللغات الحديثة . ففي اللغتين اللاتينية واليونانية ينظمون بغير قافية لأن الأوزان فيهما واضحة . وإنما تدعو الحاجة إلى القافية لتقرير نهاية السطر وتزويد الأذن بعلامة ثابتة للوقوف .. وبغير هذه العلامة تثقل الأوزان وتغمض ولا تستبين للسامع مواضع الانتقال والاتصال ، بل لا يستبين له هل هو مستمع لكلام منظوم أو كلام منثور . وقد اختلف الطابعون عن طبع الكتب هذا الاختلاف في بعض المناظر المرسلة من كلام شكسبير ، فحسبها بعضهم من المنثور وحسبها الآخرون من المنظوم ، ومما يلاحظ أن اللاتين اعتمدوا على القافية حين فقدوا الانتباه إلى النسب العددية .. وإن الصينيين يحرصون على القافية لأنهم يلتزمون الأوزان . وإن انتشار القافية في أغاني الريف الإنجليزية يقترن الترخص في أوزان الأعاريض» .

ويستطرد الأستاذ موري إلى الشعر الفرنسي فيقول : «إن اللغة الفرنسية حين رجع فيها الوزن إلى مجرد إحصاء للمقاطع ، وأصبحت المقاطع بين مطولة وصامتة – نشأت فيها من أجل ذلك حاجة ماسة إلى القافية ، فصارت في شعرها ضرورة لا محيص عنها ، ودعا الأمر إلى تقطيع البيت أجزاء صغيرة ليفهم معناه» .

ومن أسباب الاكتفاء بالوزن دون القافية في أشعار الغربيين سبب لم يذكره الأستاذ موري وهو غناء الجماعة للشعر المحفوظ كما تقدم .

فحيث شاعت أناشيد الجماعة قل الاعتماد على القافية وكثر الاعتماد على حركات الإيقاع، ولو لم تكن متناسقة الوزن على نمط محدود . لأن الغناء بالكلام المنثور ممكن مع توازن الفواصل وموازاة السطور .

وأناشيد الجماعة قد شاعت بين العبريين لأنهم قبيلة متنقلة تحمل تابوتها في رحلتها وتنشد الدعوات معا في صلواتها الجماعية . وفي هذه الدعوات ترانيم على وقع الدفوف كما جاء في الإصحاح الخامس عشر من سفر الخروج حيث « أخذت مريم النبية الدف بيدها وخرجت جميع النساء وراءها بدفوف ورقص ، وأجابتهم مريم : « رنموا للرب فإنه قد تعظم ... » .

وكذلك شاع بين اليونان أغاني المسرح التي ترجع في نشأتها إلى الشعائر الدينية ، ثم انتقلت منها إلى الأمم الأوربية .

ومما يؤيد الصلة بين غناء الفرد والتزام القافية إن شعراء الأمم الغربية الذين ينشدون قصائدهم للمستمعين قد لجأوا إلى القافية والتزموا في مراعاتها أحيانا ما يلتزمه عندنا شعراء الموشحات .

أما البيئة العربية فلم تكن فيها قبل الإسلام صلوات جمعية منتظمة بمواعيدها ومحفوظاتها ، وإنما كان الحداء هو الغناء الذي يصاحب إنشاد الشعر على بساطة كأنها بساطة الترتيل . ينشده الحادي على انفراد وتصغي إليه القافلة أحيانا في هدأة الليل ، إذ يعتمد الحس كله على السمع في متابعة النغم إلى مواضع الوقوف والترديد . فتقفو النغمة على وتيرتها ويصدق عليها اسم القافية بجملة معانيه .

لهذا استقل المنظم بحقه في الصنعة ، لأن هذه الصنعة لازمة لتمييزه مع الغناء يجمع غير الغناء ، فانتظمت قوافيه وانتظم ترتيله انتظاما لابد منه لكفايته، مع بساطة أفانين الغناء .

وإذا التمسنا مدخلا لفن الحركة الموقعة مع الحداء فهناك إيقاع واحد نتابعه في خطوات الإبل وفي خطوات الهرولة التي تصاحبها على القدم ، وإلى هذا الإيقاع يرجع وزن الرجز على قصد وعلى غير قصد ، ومجيئه على غير قصد أدل على تمكن العادة وعلى أصالتها في الحياة البدوية .

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

* * *

هل أنت إلا أصبع دميت   وفي سبيل الله ما لقيت

* * *

وقد تكون حركة الهرولة في الطواف بالكعبة ملحوظة في كل دعاء مروي كيفما اختلف المختلفون في صحة الرواية ، كما قيل عن امرأة أخزم بن العاصر حين نذرت ولدها للكعبة فقالت :

إني جعلت رب من بنيه   ربيطة بمكة العلية
فباركن لي بها إليه   واجعله لي من صالح البرية

فهكذا يفهم الناظم كيف تكون حركة الدعاء مع الهرولة ، أيا كان صاحب النظم أو من ينسب إليه .

هذه الحريات الفردية هي التي ميزت النظم العربي باستقلال فنه ووضوح قافيته وترتيله، ولو وجدت في الجاهلية العربية صلوات جامعة تنشد فيها الدعوات المحفوظة لوجدت فيها القصائد التي تمثل لنا حياتهم الدينية وحياتهم الاجتماعية . أما من أناشيد الصلاة كما عرفها العبرانيون ، أو من أناشيد المسرح كما عرفها اليونان ، ولكننا نعرف العرب من قصائدهم الفردية كما نعرف الأمم الأخرى من أمثال تلك القصائد ، فلا يفوتنا منها غاية ما تدل عليه.

هذا سبب من أسباب تلك الظاهرة النادرة التي ظهرت لنا في القصيدة العربية . وكانت نادرة بين الأمم السامية والأمم الآرية على السواء .

أما السبب الآخر فهو أصالة الوزن في تركيب اللغة ، فالمصادر فيها أوزان ، والمشتقات أوزان ، وأبواب الفعل أوزان ، وقوام الاختلاف بين المعنى والمعنى حركة على حرف من حروف الكلمة تتبدل بها دلالة الفعل ، بل يتبدل بها الفعل فيحسب من الأسماء أو يحتفظ بدلالته على الحدث حسب الحيز الذي ينتقل إليه.

هذه أصالة في موضع الوزن من المفردات والتراكيب لا يستغرب معها أن يكون للوزن شأنه في شعر هذه اللغة وأن يكون شأنها في نظم أشعارها على خلاف المعهود في منظومات الأمم الأخرى ، ولو صرفنا النظر عن أثر الإنشاد الفردي في تثبيت القافية واستقلال فن العروض عن فن الغناء في القصائد العربية .

نعم إن اللغات السامية تجري على قواعد الاشتقاق بتوليد الأسماء من الأفعال ، ولكن المقابلة بين هذه اللغات في أقسام مشتقاتها وتفريع الكلمات من جذورها تدل على تمام التطور في قواعد الأوزان العربية وعلى نقص هذه القواعد أو التباسها في أخواتها السامية، بل تدل في باب الأعراب خاصة على تفصيل في العربية يقابله الإجمال أو الإهمال في أخواتها . وفي غيرها من اللغات الآرية التي دخلها شيء من الأعراب .

* * *

وواضح مما تقدم أننا قصرنا القول على النظم من حيث هو أوزان عروضية أو قوالب تحتوي الكلم المنظوم فيها .

فهذه القوالب هي التي تطورت في اللغة العربية فأصبحت فنا مستقلا بمقاييسه عن فن الغناء أو فن الحركة الموقعة . أما الكلام المنظوم في تلك القوالب فهو عمل ممتد مع الزمن يأتي فيه كل عصر بما هو أهله من إبداع أو الزيادة أو المحاكاة .. وإنما نعود إلى القوالب والأوزان في كل عصر لنسأل هل هي صالحة لأداء المقاصد الشعرية ومجاراة الأمم في تطورها الذي يمتد مع الزمن على حسب حالاتها من الشعور والفهم والقدرة على الأداء ؟ وهل تتسع للتعديل إذا وجب التعديل للوفاء بمطلب جديد من مطالب التعبير ؟

إن تجارب العصور الماضية تنجلي عن صلاح القوالب العروضية لمجاراة أغراض الشعر فى أحوال كثيرة ، ويبدو منها أن أساس العروض العربي قابل للبناء عليه بغير حاجة إلى نقضه وإلغائه . فقد كنت بضعة بحور من أوزان الشعر كافية لأغراض الشعراء فى الجاهلية ، أشهرها الطويل والكامل والوافر والخفيف ، ثم نشأت من أوزانها مجزوءات ومختصرات صالحة للغناء حين استحدثت الحاجة إليه فى الحواضر العربية التى عرفت الغناء على إيقاع الآلات ، ثم اتخذت من هذه البحور أسماط وموشحات وأهازيج تتعدد قوافيها مع اختلاف مواقعها وتطول فيها الأشطر أو تقصر مع التزام قواعد الترديد فيها ، واختار بعض الشعراء نظم المثانى أو المزدوجات ، وبعضهم نظم المقطوعات التى تجتمع فى قصيد واحد متعدد القوافى أو تتفرق وتتعدد بأوزانها مع توحيد الموضوع . ولما نقلت الإلياذة اليونانية إلى النظم العربى لم تضق بها أوزانه ولم يظهر من التجربة أن هذه الأوزان قاصرة عن التنويع فيها على نمط غير هذا النمط من يشاء التنويع ، واستجابت الأوزان لمطالب المسرح كما استجابت للملحمة المترجمة ولما يشبهها من القصائد التاريخية المطولة .

وقد أفرد الموسيقار العصرى الأستاذ خليل اللاوندى فصلا وافيا فى كتابه فلسفة الموسيقى الشرقية لبحث التوزين والإيقاع وتطبيق العروض العربى على الضوابط الموسيقية فانتهى من بحثه إلى إمكان التنويع فى الأوزان العروضية واستطاعة الموسيقى والشاعر أن «يفتتح أشكالا غير محدودة من أشكال الموازين ، واعتمد فى تجاربه على الجهاز الفنى المسمى بالمترونوم وهو صندوق صغير من الخشب هرمى الشكل ، يفتح من إحدى جهاته الأربع فينكشف عن قضيب معدنى مقسم بخطوط ، وعليه ثقل متنقل يحدث حركة متساوية .. فيقسم الدقيقة الواحدة من الزمن إلى نقرات تتراوح بين أربعين ومائتين وثمان ، فيمثل الحد الأدنى النقرات المتناهية فى البطء ويمثل الحد الأعلى النقرات المتناهية فى السرعة» .. ولم يلجأ الموسيقار إلى وحدات للنغمات غير وحدات الفواصل والأوتاد والأسباب التى يستخدمها العروضيون ولم يجعل لها أقساما غير أقسامهم المعروفة كالسبب الخفيف والسبب الثقيل ، والوتد المقرون والوتد المفروق ، والفاصلة الصغرى والفاصلة الكبرى ، وإنما

استخدم الضوابط الموسيقية لبحث الموضوع بمصطلحات فنه ، وترك مجال بحثه للعروضيين يتفاهمون فيه بمصطلحاتهم التى لا تحتاج الى التخصص أو التوسع فى فنون الألحان ، فخلص من بحوثه الموسيقية والعروضية معا إلى نتيجة محققه خلاصتها - كما قال - إن أشكال الموازين الشعرية غير محدودة أو أن حدودها - على ما نرى - أشبه بحدود الكلمات التى تتألف من الحروف الأبجدية ، على حين أن الحروف الأبجدية قلما تزيد على الثلاثين .

فإذا نظرنا إلى ما تم من أشكال العروض ، وما يتأتى أن يتم منها مع التنويع والتوزين، ثبت لنا أنها قائمة على أساس صالح للبناء عليه وتجديد الأنماط والأشكال فيه ، على نحو يتسع لأغراض الشعر ولا يلجئنا إلى نقض ذلك الأساس .

* * *

ومع هذا كله يجب التسليم بداهة بالتفرقة بين الكلام المنثور والكلام المنظوم فى الميسرة أو الصعوبة ، فإن التسهيل المطلوب لفن من الفنون كائنا ما كان - ينبغى أن ينتهى عند بقاء الفن فنا مقرر القواعد والمقاييس ، وما جهل الناس قط أن الكلام أسهل من الغناء ، وأن المشى أسهل من الرقص ، وأن الحركة المرسلة أسهل من الحركة الرياضية ، ولم يكن ذلك قط مسوغا للاستغناء بالكلام عن فن الغناء أو بالمشى عن فن الرقص ، أو بتحريك الأعضاء بغير هدى عن أصول الحركة الرياضية أو الحركة فى ألعاب الفروسية ، فمهما يكن من تيسير الأوزان بالتنويع والتوفيق فلا مناص فى النهاية من التفرقة بينها وبين الكلام المرسل فى سهولة الأداء ، وإنما المطلوب أن تكون فنا سهلا وليس المطلوب مجرد السهولة التى تخرجها من عداد الفنون .

ولابد فى هذا السياق من تفرقة أخرى هى التفرقة بين القواعد والقيود فى كل فن من الفنون ، فلا سبيل إلى الاستغناء عن القواعد فى عمل له صفة فنية ، ولا ضرر من الاستغناء عن القيود التى تعوق حرية الفن ولا يتوقف عليها قوامه الذى يسلكه فى عداد الفنون .

ومن تجاربنا فى تاريخ الشعر العربى يتبين لنا أن قواعد النظم عندنا مؤاتية للشاعر فى كل تصرف يلجئه إليه تطور المعانى والتعبيرات فى مختلف البيئات

والأزمنة ، فلا موجب للفصل بين قواعد النظم وأغراض الشعر فى تجربة من التجارب العربية التى وعيناها منذ نشأت أوائل الأوزان إلى أن بلغت ما بلغته فى منتصف هذا القرن العشرين .

ذلك شأن التجارب العربية ، فما بال التجارب فى أمم الحضارة التى تتصل بنا ونتصل بها وتبادلنا ونبادلها مطالب الفنون والآداب كما يحدث الآن بيننا وبين أمم الحضارة الغربية ؟ ماذا يفرض علينا هذه الثقافة المتبادلة فى ميدان النظم والشعر على اتصال بينهما أو على انفراد ؟

أما فى النظم فلا خفاء بالأمر من أيسر نظرة إلى آدابنا وآداب الأمم الغربية التى نتصل بها فى العصر الحديث .

فمما لا تردد فيه أن هذه الأمم لم تبدع فى موازين النظم بدعا مستفيدة منها ولم نكن قد سبقناها إليه فى عصر من عصورنا ، فإذا التزموا الأعاريض معتدلين أو مبالغين فليس عندهم ما هو أدق وأجمل من الموشحة فى أوزانها التى تقبل التنويع والتشجير إلى غير نهاية ، والتى يعتبر تعدد القافية فيها ندحة وزينة فى وقت واحد ، فإن أطلق الحرية للشاعر لتوزيع القوافى حيث شاء يوشك أن يعفيه من قيودها كما يرى الإيقاع جمالا على جمال ، ولم يبدع الأوربيون – حتى فى شعر المسرحيات الملحنة – فنا من الأناشيد أتم من الموشحة وأصلح منها للتلحين وحركة الإيقاع .

فإذا ترخص الشاعر الغربى فى القواعد فأسقط القافية واختار الوزن الذى يسمونه النظم الحر أو النظم الأبيض – فجهد ما بلغوا إليه أنهم عادوا إلى الأسطر المتوازية أو إلى الاكتفاء بالمقاطع التى لا تبلغ فى دقتها مبلغ الأسباب والأوتاد والفواصل ، وكل أولئك طور من الأطوار التى تخطاها الشعر العربى فى الأزمنة الماضية أو سبقتهم إليه أمة من الأمم الشرقية وتوقف بها التطور عنده لارتباطه بالتقاليد الدينية .

• فليس عند الغرب من فنون النظم جديد نأخذه منه فى أبواب التوزين والتنويع.

ليس فى فن النظم جديد نأخذه من الأعاريض الغربية لم تكن عندنا أسسه العريقة ، ولم تكن عندنا أصوله وفروعه أو جذوره ، وأغصانه على حد تعبير «الموشحين» .

لكن الأمر يختلف كثيراً فى الكلام على «الشعر» أو الكلام على الأدب ومدارسه ومذاهبه ودعواته التى تحفل بها الحياة الغربية فى كل حقبة ، ولا تتميز منها دعوة واحدة دون أن يتميز لها حكم خاص بالشعر يتناوله قبل أن يتناول غيره من الفنون الجميلة ولا سيما فنون التعبير .

هذه المذاهب الشعرية تعنينا كما تعنيهم وتمتد بآثارها إلى أقوالهم وأفعالهم كما تمتد إلى أقوالنا وأفعالنا .

لأنها من أطوار الحياة التى لا تنحصر فى دوائر الفن ولا فى أدوار الثقافة على إطلاقها ، وإن يكن مظهرها الثقافى هو الجانب الذى يشتغل به النقاد والمؤرخون فى ميادين الفنون .

هذه الدعوات أوسع نطاقا من أن يحاط بها فى مقال ولكنها تقترب من الحصر المستطاع إذا جمعناها فى أدوارها الإنسانية العامة التى توشك أن تكون أمواجا دورية فى هذا المحيط الزاخر ، إذ هى عالقة بطبيعة الإنسان فى جملتها ، وطبيعة الإنسان واحدة كما قيل فى كل زمان ومكان ..

ونحن نعلم أن أبقراط حصر الطباع الجسدية فى أربعة أمزجة ، وهى المزاج الدموى والمزاج الصفراوى البلغمى والمزاج السوداوى ، ثم جاء العلامة بافلوف بعد تقسيم خصائص الأجسام بين الهرمونات وعائلات الدم وودائع الوعى الباطن والوعى الظاهر أقساما لا تنفد ولا تحصى – فعاد إلى الأمزجة الإبقراطية تيسيرا للفوارق العامة وجعلها أساسا لتجاربه النفسية التى تعد إلى هذه الساعة من أحدث تجارب العلماء .

فنحن على هذه الوتيرة نقسم الذوق الفنى فى الإنسان إلى أقسامه الخالدة حين نقول . إن الناس كانوا منذ فطروا واقعيين وخياليين ، ومحافظين على القديم وطلابا للجديد ، أو أنهم كانوا إذا اكتفينا بقسمتهم إلى قسمين اثنين : صنفا يمشى فى وسط القطيع وصنفا ينزع إلى الأطراف ، أمام ووراء وعلى كلا الجناحين من اليمين واليسار ، وقد تفكه بعض الجادين فأطلق على الصنف الأول اسم فريق الضأن وعلى الصنف الثانى اسم فريق المعيز ..

ونرى من تاريخ الأمم الغربية منذ ملكت حرية التفكير أنها دارت دورتها بين مذاهب الأدب خلال القرون الثلاثة الأخيرة ، وإنها نزعت فى دعواتها المتعاقبة كل نزعة طبيعية تستلزمها أطوار الحياة بعد عصر الجمود والتقليد .

ففي فترة اليقظة الأولى كان من الطبيعي أن ينزع الإنسان إلى استقلال «الشخصية الإنسانية» في وجه التقاليد المطبقة والقيود العتيقة والأحكام التي تطاع بغير فهم ، بل بغير شعور في أكثر الأحوال . وهذه هي النزعة التي سميت بنزعة الإبداع و «الحرية الشخصية» Romanticism .

ومن الطبيعي أن ينتهي هذا الإبداع من كل جانب على غير هدى متفق عليه - إلى شيء من الفوضى والشرود يستحب معه التوقف إلى حين ، وهنا ظهرت دعوة العود إلى الاتباع والاطراد على نحو جديد يناسب مطالب الزمن ، فنشأت من ثم دعوة الاتباع أو الاطراد الجديد Neo Classicism .

وإذا حكم اختلاف الطبائع حكمه بين أنصار الواقع وأنصار الخيال فهنا مجال الاختلاف بين الواقعيين Reslists والخياليين المثاليين Idealists .

وقد يظهر هذا الاختلاف في صورة أخرى بين الطبيعيين Naturalists وبين الفنيين أنصار الفن للفن Art for Arts sake .

ونقول إن الواقعيين والطبيعيين متقاربون لأنهم جميعا من أنصار الواقع ، وإنما ينفرد الواقعيون بمحاربة النزعات الخيالية . وينفرد الطبيعيون بمحاربة النزعات الصناعية : نزعات الإغراق في التزويق والتنسيق . وإذا اقترنت هذه المذاهب جميعا في عصر من عصور النهضة العلمية فالانقسام بينها يؤول في هذه الحالة إلى قسمين . قسم تغلب عليه الصبغة العلمية وقسم تغلب عليه الصبغة الفنية ، ويتسع كل قسم منهما لكثير من الآراء وأشتات من الأساليب .

ولا جدوى من متابعة العناوين التي تنتهي في الغرب بصيغة النسبة المذهبية Ism فإنها تنطوي جميعا في هذه الدعوات . ويحيط كل منها بعالم من الآراء والأسباب . ولكننا نجمعها في حدودها الواسعة إذا اكتفينا منها بالرومانتيزم والنيوكلاسيزم والريالزم والأيدليزم ، فلا يخرج من هذه المذاهب مذهب جاد يناط به عمل من أعمال البناء والإصلاح في عالم الفنون ، ولا تزال حتى اليوم وافية بأغراض البحث والمناقشة بين المختلفين على الفنون فيما يستحق الخلاف .

وعلى تعدد المذاهب والعناوين في الغرب لا نرى هناك لبسا على الإطلاق بين المذاهب التي أشرنا إليها وبين عشرات المذاهب التي ينتحلها الدعاة على

عجل منذ الحرب العالمية الأولى . ويندر أن تعيش إحداها أو تستقل عن سواها بصفة من الصفات التي يتناولها التطبيق والتمييز .

فلا لبس على الإطلاق بين مذاهب الجد ومذاهب الهزل في الآداب الغربية ، فمذاهب الجد تدعو كلها إلى البناء وتقوم بالبناء فعلا ويعيش ما تبنيه ، ومذاهب الهزل لا تتحدث بشيء غير الهدم والإلغاء فلا لون ولا شبه ولا رسم ولا قاعدة في التصوير ، ولا لفظ ولا معنى ولا منطق ولا مدلول في الشعر والنثر ، وإنه لمن الحظ الحسن أن تقصر هذه الدعوى عن الفنون التي ترتبط بها ضرورات المعيشة والاجتماع ، فإنها لو تناولته لسمعنا بفن المعمار الذي لا حجرات ولا جدران ولا حجارة ولا طلاء فيه ، وسمعنا بمجامع الموسيقى التي لا تميز بين الضوضاء والألحان ، ولا محل فيها للمعازف والآلات . من هذه المذاهب ما يطلق عليه اسم المستقبلية Futurism أو فوق الواقعية Surrealism أو الذئبية Fauvism ... بل منها ما يسمى بمدرسة التأتأة Dadalism ويقول أصحابه أنهم اختاروا له هذا الاسم من أول تأتأت الطفل Da Da وتطلق أحيانا على حصان الخشب ليسهل النطق به على ألسنة الأطفال ، ومؤدى مذهب هؤلاء الدعاة أن التعبير الصحيح عن النفس الإنسانية إنما يرجع إلى صورة الطفولة ورموز الأحلام وخفايا الوعي الباطن كما تبدو للحالم في المنام أو كما يرسلها الناطق عفوا بغير تأمل وبغير انتباه !

ومن هؤلاء الملفقين للمذاهب من يختار اللفظة ويسأل عن معناها فيسخر من السائل لأنه يبحث عن المعنى ولا يكتفي بوقع اللفظة في الأذن أو من منظرها للعين القارئة . فمن عناوين مارينتي أمام المستقبلية «زانج تمب تيايم Zang Tumb - Tuuum ومن عناوين زميله أردينجو سوفيسي Bifs + 18 ما لا يفهم ولا يترجم ، وإنما هو مقابل عندنا لحرف الباء ثم الياء ثم الفاء ثم علامة موسيقية ثم زاي ثم علامة + ثم رقم ١٨) .

وقد عقب صاحب تاريخ الأدب الإيطالي على إمام هذه المدرسة فقال إنه لم يجاوز حدود السخف في شعره ... ولم يخل كلام المؤرخ من مجاملة «لأن السخف معنى يوصف بالرداءة .. ولا معنى هنا ولا وصف لرديء أو غير رديء»[1] .

(١) صفحة ٤٨٥ من كتاب تاريخ الأدب الإيطالي تأليف «أرنست هاتش ولكنز» .

ولابد من وضع هذه الدعوات فى موضعها من تاريخ الآداب الإنسانية والآداب الأوربية التى تظهر بينها فما هو موضعها الصحيح ؟

موضعها الصحيح أنها تمثل جانب السخافة الذى لابد أن يتمثل فى بيئة يباح فيها القول لكل قائل والقراءة لكل قارئ . ولا يخجل فيها العاجز من عجزه ولا صاحب اللجاجة من لجاجته ، وهم جميعا فى غمرة من محن الحروب والفتن والقلاقل والآفات ، فهل تخلو هذه البيئة من جانب سخافة فى الأذواق والدعوات؟ وأين هو هذا الجانب إن لم يكن هذا مظهره الذى يتمثل فى صوت القنوت ؟

ولسنا نقول إن هذه السخافة جانب يهمل ولا يلتفت إليه ، فإنها خليقة أن تدرس كما تدرس عوارض الأمراض والعلل والنكبات ، ولكن البون بعيد جدا بين دراستها لهذا الغرض ودراستها للاقتداء بها واعتبارها من مدارس الفن والأدب ونماذج الذوق والجمال .

ولا تفوتنا فى معرض الكلام على الشطط الفنى ملاحظة وثيقة الصلة بموضوع الخلط الذى يقال عنه إنه هو الفن الصحيح أو أنه هو التعبير الصادق دون غيره عن الوعى الباطن والسريرة الإنسانية فى أعماقها «اللامنطقية» على حد تعبيرهم المأثور .

فالخلط الهاتر مذهب لم يخلقه دعاة «اللامنطقية» فى القرن العشرين ، ولكنهم خلقوا شيئا واحدا فيه لم يسبقهم أحد إليه ، وهو إطلاق العناوين العلمية عليه واستعارتها من دراسات التحليل النفسانى أو من دراسات العلوم الطبيعية ، وقديما وجد فى الشعراء والفنانين من يجنح به هواه أحيانا إلى رفع الكلفة واطراح الحشمة والابتذال فى اللفظ أو المعنى أو فى كليهما ، فيسترسل فى الهذر واللفظ كأنه فى إجازة من «نفسه الفضلى» كما يقولون ، وينسب إلى هذه النزوات شعر المجانة والهزل وشعر الإباحة والجموح ، وينسب إليه كذلك ضرب من الشعر الذى يخيل إلى الناس أنه يحدثهم بالحكم والأمثال وهو فى أسلوبه الهازل ساخر بضروب الحكمة والمثل ، كما صنع بن سودون اليشبغاوى (٨٠١ – ٨٦٨هـ) فى قصيدته البائية التى يقول فيها :

عجب عجب عجب عجب	بقر تمشى ولها ذنب
ولها فى بزبزها لبن	يبدو للناس إذا حلبا

لا تغضب يوما إن شتمت	والناس إذا شتموا غضبوا
من أعجب ما فى مصر يرى	الكرم يرى فيه العنب
والنخل يرى فيه بلح	أيضا ، ويرى فيه رطب
زهر الكتان مع البلسـ	ـان هما لونان ولا كذب
كيهود فى دير ، خلطوا	بنصارى حركهم طرب

وأدخل من هذا فى باب «اللامنطقية» مذهب من مذاهب الزجل فى اللغة الدارجة يعاقبون بينه وبين الأدوار المقصودة ، فيبدءون بالدور العاقل ويتبعونه بالدور المجنون إلى نهاية الزجل ، ويحفظ من هذه الأزجال كثير من مجموعات هذا والأجيال القريبة ، من أمثلتها فى كتاب ترويح النفوس لحسن الآلاتى زجل يقول فيه :

كسرت بطيخة رأيت العجب	فى وسطها أربع مداين كبار
وفى المداين خلق مثل البقر	فى كل واحدة أربع قلاع حصار
وفى القلاع أقوام طوال الذقون	ودمعهم يجرى شبيه البحار
من دمعهم تزرع نجوم السما	فى خلقة المشمش عديم المثال

وأحيانا يقسمون الأدوار إلى دور صاح ودور سكران ، أو يصوغون فيها المفارقات على ألسنة الصبيان كما يجرى على ألسنة العامة :

ياليل ياعين معرفش أكدب	والضفدعة شايلة مركب
وأبو فصادة ريسها	والقط الأعور حارسها

إلى أشباه هذه «اللامنطقيات» المتواضعة التى يضعها أصحابها فى مواضعها ويسمونها بأسمائها ولا تعدو عندهم أن تكون «متنفسا» يستبيحونه إلى حين ويعرضون به «اللامنطقية» فى صورة فنية يعلمون ويعلم الناظرون إليها أنها من قبيل الصور الهزلية أو «الكاريكاتور» ولا يطلبون من الإنسانية أن تحلها فى محل فنونها وأن تنبذ المنطق فى سبيلها .

فإذا كان لابد من هذه اللامنطقية فى الآداب العربية فعندها منها ما يغنيها وبها فيها مجال لا يخرج بالعقل من دائرة العقل ولا بالجنون من دائرة الجنون .

الشعر أسبق أم النثر؟

السيد جوردان شخصية مشهورة من الشخصيات المضحكة فى إحدى روايات «موليير» التى استوى بها على عرش الفكاهة المسرحية فى الآداب الفرنسية ..

ومدار الفكاهة فى شخصية جوردان أنه غنى من محدثى النعمة أراد أن يتشبه بالنبلاء فاتخذ له معلمين يعلمونه الرقص والمسايفة والبلاغة ، وجاء بالطرائف التى لا تخطر على البال وهو يحاول أن يفهم دروسهم ويعقب على شروحهم وأقوالهم ، فإذا هو كما قال يتكلم «النثر» طوال حياته ولا يعرف حتى عرفه من كلام معلم البلاغة !

لقد أفهمه معلمه معنى الشعر ومعنى النثر ، فخيل إليه أن النثر ما ليس بكلام موزون منظوم ، وتخيل إذن أن كلامه طول حياته داخل فى ذلك التعريف ، وأنه كاد أن يقضى بقية حياته وهو يجهل هذه المعجزة .. لولا أنه تلقى الخبر أخيرا من الأستاذ .

أراد موليير أن يجعل السيد «جوردان» مضحكا بهذه العبارة فأفلح فيما أراد وضحك الناس مما قال ، لأنهم أدركوا على البديهة من غير تطويل فى البحث والاستقصاء أن السيد «جوردان» مخطئ فى تصوره الساذج ، وأن النثر شىء غير مجرد الكلام الذى لا ينطبق عليه تعريف الشعر ، وهو الكلام الموزون المنظوم .

فإذا لم يكن الكلام شعرا فليس من الضرورى اللازم فى هذه الحالة أن يكون نثرا لا محالة ، قد يكون كلاما وليس بشعر وليس بنثر ، لأن المقصود بالنثر هو التعبير الأدبى فى غير نظم أو وزن من أوزان البحور الشعرية ، وقد يتكلم الإنسان طول حياته وهو لا ينظم ولا ينثر ، إذا كان كلامه خلوا من التعبير الأدبى فى المنظوم والمنثور .

وإذا سأل السائل : أيهما أسبق ، الكلام أم الشعر ، فلا محل للخلاف ولا لإطالة الروية قبل الجواب ، فإن اللغة سابقة للكلام المنظوم والكلام المنثور على السواء ، ولكن السؤال الذى يقع عليه الخلاف هو : أيهما أسبق ، الشعر أم النثر ، ونعتقد نحن أن الشعر أسبق من النثر بزمن طويل ، نعتقد هذا ولا

نحسب أن الدليل القاطع فى تقرير هذا الرأى مستطاع ، ولكنه رأى يقوم على القرائن التاريخية والقرائن النظرية ، ولا ينقضه من الواقع شىء معلوم حتى الآن .

فمن القرائن التاريخية أن الشعراء أقدم من الكتاب ومن الناثرين على العموم ، إذا صرفنا النظر عن الكلام المكتوب أو المحفوظ فى الأوراق .

فشعراء العرب فى الجاهلية لا يسبقهم ناثر ، ولا يحفظ العرب كلاما منثورا يقترن تاريخه بالتاريخ الذى نظموا فيه قصائدهم المروية ، وما بقى من كلام الكهان المسجوع فهو - إن صح - أدل على قدم الشعر والقافية ، لأن الكلام المقفى محاكاة للشعر الذى تلتزم فيه الأوزان والقوافى ، ودليل على سبق الكلام للكلام المنثور ، ولم يثبت قط أن الشعر هو سجع متطور ، لأن التاريخ لم يحفظ لنا قط كلاما مسجوعا عن عصر من العصور ليس فيه شعر ، ولم نعرف عن الشعراء فى أقدم العصور أنهم سجعوا ثم تطوروا فنظموا ، ولم تزل أسجاع الكهانة غير أوزان الشعرية ، فى طبيعتها وموضوعها ، فالكاهن لا يتدرج من السجع إلى النظم والشاعر لا يتعلم الكلام الموزون من المرانة على الكلام المسجوع .

والآداب اليونانية هى مرجع الباحثين عن أوائل الآداب الأوربية القديمة ، وهى شاهد آخر على سبق النظم للنثر فى جميع الآداب ، لأن «هومير» قد نشأ فى زمن سابق للقرن السابع قبل الميلاد ، وكان من معاصريه فى بعض الأقوال «أرشيوكس» الذى أشار فى قصائده إلى كسوف الشمس ، وحسب الفلكيين أنه كسوف أبريل ٦٤٨ قبل الميلاد ، أو كسوف مارس سنة ٧١١ قبل الميلاد ، وليس فى المحفوظات اليونانية كلام منثور يرجع إلى ما قبل التاريخ .. وكل ما بقى من الكلام المسجوع الذى يقارب ذلك التاريخ فهو من قبيل سجع الكهان ، أو من قبيل السجع الذى يستعان به فى الخطابة ، وأقدم ما ورد من ذكره لا يرجع إلى عصر سابق لعصر الناقد المعروف ثراسيما كوس Thrasymachus وهو من أبناء القرن الخامس قبل الميلاد .

أما الأدب اللاتينى فقد كان من الواجب أن تنعكس فيه هذه القاعدة لأنه الأدب القديم الذى امتاز بالرسائل المأثورة لسعة أطراف الدولة وتجدد الحاجة إلى المراسلة بين سكان تلك الأطراف المترامية ، ومنهم الأدباء والبلغاء .

ولكن الثابت مع هذا أن الأغاني اللاتينية سابقة للملاحم والقصائد في لغة اللاتين بعد تطورها ، وأن مشاهير الشعراء سابقون لمشاهير البلغاء والكتاب وأصحاب الرسائل المنتقاة ، ومنهم شيشرون الناقد الأديب الخطيب .

وما يؤثر عن قدم الشعر في الآداب العربية والأوربية شبيه بالمأثور عن آداب الأمم الشرقية في جملتها ، فليس في آدابها نثر أقدم من قصائدها المقدسة وأغانيها الشعبية الأولى ، وكل محفوظاتها المسجوعة لاحقة بمحفوظاتها من الشعر الموزون .

وقد يخطر على البال أن السبب راجع إلى الحفظ لا إلى القدم ، وأن النثر قد سبق الشعر ولكنه لم يبق كما بقي الشعر ، لأن الكلام الموزون أيسر حفظا من الكلام المنثور ، ولكنه خاطر مردود يسهل نقضه بقليل من الروية فيه ، فإن سهولة الحفظ نفسها تحتاج إلى التعليل ، وليس لها علة إلا أن يكون الكلام المحفوظ أقرب إلى الطباع وأدنى إلى الفطرة وأغنى عن الصناعة ، وأن الكلام الذي يصعب حفظه بغير التسجيل في الورق يعتمد على صناعات كثيرة ولا يكفي فيه الاعتماد على الفطرة ، فهو معلق بمعرفة الحروف ومعروفة الأدوات الكتابية وتطور المجتمع مع تطور الحاجة فيه إلى التدوين بغير الوسائل الفطرية ، وهي وسائل الحفظ والتعويل على الذاكرة .

وقد يبدو للسيد «جوردان» أن تأخر النثر عن النظم شيء غريب ، لأنه يخلط بين ظهور النثر وظهور اللغة ، وهي ولا شك سابقة لظهور الشعراء والبلغاء .

لكن السيد جوردان مضحك كما أراده موليير ، ومضحك كما رأينا من فهمه لكل شيء ، فالواقع أن تأخر النثر عن النظم ترتيب طبيعي لا غرابة فيه ، إذ كانت شروط الشعر تتوافر قبل توافر الشروط المطلوبة للكلام المنثور ، ويكفي لظهور الشعر أن تظهر في إنسان من الناس ملكة غنائية ، وهي من أقدم الملكات في الأحياء ، أما الكلام المنثور فما الحاجة إليه في المجتمعات الأولى، وما أكثر الشروط الصناعية التي ينبغي أن تتوافر في المجتمع قبل شعوره بالحاجة إليه !

ولا تخلط بين الخطيب والناثر فهما شيئان مختلفان ، فإن الخطابة في المجتمعات الأولى صفة من صفات الزعامة ، وليست كذلك صفة الناثر البليغ ، ولكننا - على فرض التشابه بين الخطابة والنثر - قد نتصور ظهور الشاعر

قبل ظهور الخطيب والناثر ، لأن ملكة الشعر لا تتوقف على نشوء «القبيلة السياسية» التي تستمع إلى الخطباء في شؤونها العامة ، بل لعلها توجد مع الدوافع الحيوية التي تهم كل فرد على حدة ولا تتوقف على سياسة الجماعات .

والغالب أن الشعر فطرة وأن النثر تعليم ، وأن الباعث إلى الكلام البليغ يأتي بعد الباعث إلى الغناء ، فقد تغني الحي الذي لا يتكلم ، وليس بالمعقول أن يصل الحيوان الناطق إلى الكلام وهو عاجز عن الغناء وعن صوغ كلامه في النغم الموزون .

* * *

في حديث مروي عن أستاذ المدرسة الموسيقية القديمة مصطفى رضا بك - رحمه الله - أنه كان يعجب للذين يعرضون بين المقامات الموسيقية وعناوين النغمات ، وأنه كان يشبههم بمن يتصدى لكتابة خطاب قبل أن يميز بين الحروف وأنواع الخطوط ، وهذا قياس مع الفارق كما هو ظاهر ، فإن الأحرى أن يقال أن المغني الذي لا يعرف أسماء المقامات والأنغام كالشاعر الذي لا يعرف أسماء البحور والأعاريض .

وقد وجد الغناء قبل أن توجد أسماء مقاماته وأنغامه ، ووجد الشعر قبل أن توجد أسماء بحوره وأعاريضه ..

لكن العجيب حقا هو أن يوجد ناثر قبل أن توجد الحاجة إلى التدوين ، فحيثما يجد النثر فهناك جماعة تحتاج إلى تدوين الكلام ، ولم لم يكن صاحب النثر نفسه هو الذي يدون ما يقول بالحروف أو بغير الحروف .

ولهذا نرى أن سبق الشعر لا عجب فيه ، وأن سبق النثر فيه شيء من العجب، وأن أولاهما بالسبق هو أغناهما عن الصناعة وتطور الجماعة ، وأقدرهما على الاكتفاء بالفطرة على أبسط ما تكون .

الشعر لازم

الشعر لازم في عالمنا هذا كما كان لازما فيما سلف من ألوف السنين ومئات العصور

لا ينقص من لزومه شيوع الصاروخ كما قيل ..

بل هو ألزم ما يكون حين تشيع الصواريخ وتشيع معها أخواتها من صفائح الحديد والخشب وآلات النار والكهرباء.

وكلما غلبت المادة وصنائعها وآلاتها تحسس الإنسان مكان روحه، وارتد إلى قرارة عواطفه ووجدانه، ويطمئن على نفسه: ألا يزال إنسانا بعد، أو هو قد فقد الإنسانية في كيانه وصار مع الصاروخ وأخواته آلة من الآلات، وقطعة من الخشب والحديد، وشواظا من النار والكهرباء.

وما كانت بالإنسان حاجة إلى أن يلمس خلية حياته بين جنبيه، يوم كانت عشرته من الأحياء، ومطعمه من خيرات الأحياء، ومقامه بين صنوف الأحياء، ورحلته على متون الأحياء.

ولكنه في عصر الصاروخ، أحوج ما يكون أن يلتمس موطن تلك الحياة، وأن يستمع إلى نجوى فؤاده بلسان الحياة، وأن ينظم الشعر ويحن إلى النغم ويشهد صور الجمال والعطف في كل منظور ومسموع.

وما كان الصاروخ ليحل محل الشعر وأخواته من فنون الجمال، إذ كان الناس لم ينظموا الشعر لأنهم بحثوا عن الصاروخ فلم يجدوه، وإنما نظموه لأنهم يحسون وينطقون ولأنهم يترقون مع الزمن فيزداد النطق عندهم بالجمال ويحسن الإنسان من التعبير الجميل ما لم يحسنه الحيوان، ويستطيع من النظم ما ليس يستطيعه الطير بالتغريد، ولا الخيل بالصهيل ولا سباع الغاب بالزئير.

ولئن سبق الصاروخ الطيارة لن يسبق الصاروخ سبحات الخيال..

لقد سبقه الخيال يوم تحدث للإنسان عن حصان الأبنوس، وعن أجنحة واق الواق، وسبقه الخيال فأملى على الصانع كيف يكون الطيران بالقوة، وكيف يكون الطيران بالخفة، وقد كان العلماء يجزمون جزم اليقين ألا طيران في الهواء بغير أداة أخف من الهواء، عجزا منهم عن فهم الطير كيف يطير حين لم يعجز الخيال، وإنما هي القوة يطير بها ذو الجناح كما يطير بها الحصان الطيار.

إن الشعر لازم للإنسان الناطق، ما دام ينطق ويعقل ويترقى بالنطق في معارج الكمال ومعارض الجمال.

إن الشعر ألزم ما يكون للإنسان في عصر الصواريخ..

وإن حفاوتنا به في هذا العصر شهادة لعصر الصاروخ وتحليه، لأنه لم يتخلف عن عصور تعلم فيها الإنسان كيف يكون إنسانا بالمنطق الساحر واللسان المبين.

وفي الغرب الذي يدين بالصاروخ علامات كهذه العلامة، وآيات كهذه الآية، تنويها بلزوم الشعر عنوانا على اللهج به والحرص عليه.

في السنوات الأخيرات – سنوات الصاروخ – صارت الجائزة العالمية للأدب إلى ستة من الأدباء: خمسة منهم شعراء، وهم خيمينيز الأسباني، وباسترناك الروسي وكوسيمبدو الإيطالي وبيرس الفرنسي وسيفريس اليوناني.

ومهما يكن من الرأي في إنصاف جائزة نوبل العالمية، أو في نظرتها الناقدة إلى الآداب والفنون فلا نكران عليها أنها علامة من علامات الزمن بصوابه وخطئه، وبما يراه من لزوم وما لا يراه.

ولا علامة للشعر اللازم في هذا الزمن، أصدق من العلامة التي تدل على أمم خمس: بينهن من المشابهات والفوارق ما بين الأسبان والروس والطليان والفرنسيين واليونان.

إذا لزم الشعر في لغة اللغات فإنما يلزم لألزم ما فيه وألزم ما في الشعر أنه فن من الفنون.

وألزم ما في الفن أنه ذو قواعد وأصول، تتوائم في كل لغة ما طبعت عليه تلك اللغة، وتتوائم في اللغة العربية – خاصة – أنها لغة الوزن في كل كلمة وفي كل صيغة، فليست فيها كلمة واحدة تنعزل من وزن اشتقاق أو وزن سماع.. لا شعر بغير فن.. ولا فن بغير قاعدة.

والذين يقولون بغير ذلك يقولون عجبا يستغربه السامع ويستغرب الذي يسمع ويفقه ما يقال كيف يصغي إليه السمع وكيف يستجيب له الفهم، وكيف يتكرر بعد تكرار اللسان فيه.

يقولون إن قواعد الوزن تدعو الإنسان أن يقول ما لا يلزم، تكملة للوزن حيث لا محل له من الكلام.

هل يقال هذا في الشعر وحده أو يقال في شتى الفنون عندنا وعند غيرنا من العالمين؟

ماذا يصنع منشد الغناء ؟

ماذا يصنع الراقص في حركات يديه وقدميه ؟

ماذا يصنع الموسيقار في صوته المرسل بغير كلام ؟

ألا يزيد المغني في غنائه ليطابق فيه بين الألفاظ والألحان ؟

أنبطل الألحان لأنها تسومنا المد في الصوت وراء ما يلزم .. كما يقال ! أو لأنها تسومنا الزيادة في الحروف والكلمات وراء ما تتم به جملة المبتدأ والخبر أو جملة الفعل والفاعل ، أو جملة المحمول والموضوع ؟

أنبطل الرقصة التي تسوم الماشي أن يخطو فوق خطوه أو يقصر عنه باختياره ؟

إن الفنان لا يضع في مده أو زيادته غير ما يلزم ، بل غير اللازم قبل كل لزوم: وهو رعاية الفن والقاعدة في الفنون وليس الوزن زيادة في المقال بل هو قوام المقال كله ، إلا أن يكون من غير الفنون . وإنما الشعر تفاعل كامل بين اللفظ والمعنى وقاعدة القواعد الفنية في وزن أو نظام مقدور .

وملكة الشاعر هي الملكة التي تقدر على هذا التفاعل بغير حشو أو فضول ، أو يكون الحشو والفضول - إن كانا - زيادة للمعنى وتوكيدا للأثر ، لا وقرا محملا عليه ، ولا فضولا ملصقا به ، ولا لغوا مضافا إليه .

وكل بيت في الشعر المطبوع آية على صدق هذا التفاعل التام بين الألفاظ والمعاني والأوزان ، وآية على لزوم الوزن كلزوم لفظ الشعر ومعناه .

أمامنا مثل من أبيات لامرئ القيس وصفا للفرس :

وقد أغتدي والطير في وكناتها	بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معا	كجلمود صخر حطه السيل من عل
كميت يزل اللبد عن حال متنه	كما زلت الصفواء بالمتنزل

لاشك أن كلمات «الهيكل» و«من عل» و«المتنزل» قد جاءت لوزن القافية اللامية .

ولكن هل هي زائدة ؟ كلا .. ونجرب حذف الهيكل لنرى كيف ينقص المعنى والأثر ، ولو كان من الكلام المنثور .

نقول مثلا : «إننا نغدو مبكرين قبل نهوض الطير بمنجرد قيد الأوابد ..»

فنسمع وصفا للسرعة ولا نسمع وصفا للشكل والحجم والمنظر ، وإنما يتم ذلك كله حين نقول إنه قيد الأوابد هيكل أي أنه ضخم جسيم .

ولقد يقال أن كلمة أخرى تحل محل «هيكل» حين نقول «ضخم أو جسيم أو مكين» .

فهل ترانا نشعر بأثر هذه الكلمات كما شعرنا بأثر الهيكل فيما حققته الكلمة من وصف الجسامة والصورة والمثال ؟

جواب ذلك عند من يتهمون القافية بزيادة الفضول ، إن لم يكن جوابهم هنا من فضول المقال .

ونأتي بعد ذلك إلى الكلمة «من عل» وهي التي تتم وصف الجلمود وهو ينحط مع السيل ، فهل يتم الأثر بحذف هذه الكلمة ؟ هل التذكير بانحطاط الحجر من الأعلى فضول وزيادة بغير مدلول ؟

وهل ذكر المطر دون وصفه بالمتنزل تنزيه للبيت من اللغو أو هو مما يتم هذا الوصف للمطر بالتنزل والزلل عن متن الصفواء في هذه الحال .

وأبيات غير هذه الأبيات من كلام المعري يقول فيها مفتخرا :

ألا في سبيل المجد أنا فاعل	عفاف وإقدام وحزم ونائل
أعندي وقد مارست كل خفية	يصدق واش أو يخيب سائل
تعد ذنوبي عند قوم كثيرة	ولا ذنب لي إلا العلا والفضائل

فمما لاشك فيه أن النائل والسائل والفضائل قد جاءت في مواضعها هنا لأن القافية لامية .

ولكن لماذا نغيرها لضرورة المعنى ؟

ولماذا نقول معنى غير هذه المعاني التي تؤدي بهذا النظم وهذه القافية ؟

ولماذا نعدد فضائل أخرى تزيد على هذا العدد أو تنقص منه ، بعد ذكر العفاف والإقدام والحزم والنائل ؟ وإذا كانت كلمة العطاء مثلا تؤدي معنى كلمة النائل ، فلماذا نفضلها عليها ؟

ويقول ابن الرومي في وصف مغن كريه الصوت والغناء :

أبو سليمان لا ترضى طريقته ... لا في غناء ولا تعليم صبيان
له إذا جاور الطنبور محتفلا ... صوت بمصر وضرب في خراسان

فمما لاشك فيه أن خراسان جاءت هنا وزنا لصبيان ، بل لاشك أن «محتفلا» في الشطر الأول كلمة لازمة لتمام البيت ..

لكن الشاعر يقول بدلا من الشطر الثاني : «صوت بمصر وإيقاع ببغداد» إذا كانت القافية دالية .. فما الذي يختلف بين هذين الاسمين ؟

وقد يحذف الناثر كلمة «محتفلا» بعد الطنبور فيقول : له إذا تناول الطنبور صوت هنا وضرب هناك .. فهل يكسب البيت بحذف هذه الكلمة ويقوى ؟ أو يخسر ويضعف ؟

إن كلمة «محتفلا» تصور لنا احتفاء المغني وتأهبه بجلسته وإيماءه واستعداد السامعين للإصغاء إلى شيء حسن ، ثم إذا بهم يفاجأون بالصوت الردىء ، فلا يكون أثره في نفوسهم كأثره فيها وهم لا يرون ذلك الاحتفال ولا ينتظرون بعده الاتقان والكمال .. فما جاءت «محتفلا» هنا فضولا لأجل الوزن ، بل كان تفاعل الكلمة مع الوزن سببا لاستدراك نقص واستكمال أثر ، لم يكن لهما في النثر من داع مثله لهذا الاستدراك .

إننا نردد اليقين بالشعر اللازم والفن الألزم ..

لزوما يتم فيه المعنى واللفظ بالوزن والقافية ، وتؤدي فيه ملكة الشاعر المطبوع عملها «تفاعلا» حيا بين نغماته وحروفه وكلماته ، تتزاوج في جميعها لتزداد بلاغة في الأثر وإيناسا للسمع ، وإشباعا للأداء ، ونفيا للفضول ، وتجاوبا بين الوقع والإيقاع .. وعلى ذلك جبلت ملكة الشاعر المطبوع . من رزقها قال وتغنى وأفهم وأثر ، ومن لم يرزقها فلا حق له في قول الشعر ولا في القول فيه . ولأن يسكت فلا يقول شعرا ولا يقول عن شعر خير له وللناس ، وخير للشعر وللفن وللعقول والأسماع .

التجديد في الشعر

إذا أوجزنا قلنا إن التجديد هو اجتناب التقليد ، فكل شاعر يعبر عن شعوره بصدق في تعبيره فهو مجدد وإن تناول أقدم الأشياء ، هل شيء في هذا العالم الأرضي أقدم من الشمس ؟ إن الذي يصفها اليوم صادقا في وصفه غير مقلد في تصويره مجدد تمام التجديد ، وإن لم يأت بكلام جديد .

هكذا تجدد الشمس النهار ، وتجدد الأرض الربيع ، ويجدد الشباب الأمل والحب جيلا بعد جيل .

وليست الدنيا عتيقة بالية لأنها تجيئنا كل عام بربيع كالربيع الذي تقدمه ، وليس الشاعر عتيقا باليا لأنه يجيئنا بذلك الربيع كما جاءت به الدنيا في حينه ، وصوفا على الصورة التي عهدها آدم في جنة الفردوس ، ثم عهدها أبناؤه في جناتهم على هذه الغبراء ! .. التجديد – في كلمتين – هو اجتناب التقليد .

أما إذا تعمدنا الإسهاب والتفصيل ، وتناولنا عناصر الشعر جميعا فهي مختلفة في قبولها للتجديد ، أو مختلفة على الأصح في حاجتها إلى التجديد .

هذه العناصر هي اللفظ والوزن والموضوع ، وهي على هذا الترتيب في بعد حاجتها إلى التجديد مع الزمن : فاللفظ الذي يتألف منه الشعر يبقى ألف سنة لا يطرأ عليه تغيير يذكر ، ويصلح في هذه الحالة لشعر امرئ القيس كما يصلح لشعر البارودي ، مع قليل من التحوير الذي لا يلتفت إليه المختصون بتسجيل أطوار الكلمات .

ونعني باللفظ هنا المفردات في غير الجمل والأبيات . وهي المفردات التي يطرأ عليها الزيادة القليلة كل بضعة قرون ، أو يطرأ عليها اختلاف الاستعمال من فترة إلى فترة في حياة اللغة الواحدة ؛ ولابد للشاعر من متابعة هذه الأطوار وقد يكون هو عاملا من عوامل الزيادة والتصرف في الكلمات .

إلا أن الجهد في تجديد المفردات يظل على الدوام أقل وأهون من الجهد في تجديد الأوزان وتجديد الموضوعات . فالمعجم الشعري اليوم قريب من المعجم الشعري في عهد أصحاب المعلقات ، أما الوزن فقد اختلف في عدد البحور ، واختلف في عدد القوافي ، ولا يزال قابلا للاختلاف ، وفي حاجة إلى الاختلاف .

كانت أوزان الشعر فى الجاهلية قليلة البحور ، وكانت القصيدة الواحدة ق
الأبيات ، ثم تعددت البحور ومجزوءاتها ، وتضاعف عدد الأبيات فى القص
الواحدة ، وطرأ التنويع على القافية فى الرجز ثم فى التسميط والتوشيح
انتهينا إلى العصر الحديث فظهر بيننا من دعاة التجديد من يدعو إلى إل
القافية ونظم الشعر مرسلا أو مطلقا على الطريقة الأوربية ، ولكنها دعوة
يكتب لها النجاح ، ولا تظنها جديرة بالنجاح فى المستقبل ، لأن أعاري
الشعر العربى تستلزم القافية من حيث لا تلزم فى الأعاريض الأوربية ، و
يكون الإطلاق من القافية فى الأعاريض الأوربية نفسها مقصورا على المطو
والملاحم التى تصلح للقراءة وقلما تصلح للسماع ، والشعر قبل كل ش
سماع.

والذى نعتقده أو نشعر به ، إن تنويع القوافى أوفق للشعر العربى من إرسا
بغير قافية، وأنه يقبل التنويع فى أوزان المصاريع والمقطوعات على أسلو
الموشحات ، فيتسع للمعانى المختلفة والموضوعات المطولة ، ولا ينفصل عن
الموسيقية التى نشأ فيها ودرج عليها ، ولعلنا لا نحتاج إلى تيسير أوسع م
هذا التيسير ، كائنا ما كان موضوع القصيد وإن طال غاية المطال .

تجديد قليل فى اللفظ ، وتجديد أكثر منه فى الوزن ، وتجديد أكثر من هذي
التجديدين فى الموضوع ، فكيف يكون هذا التجديد فى الموضوع ؟

إن صرف الشعر إلى الاجتماعات والأحداث العامة رأى من الآراء فى تجدي
الموضوعات الشعرية ، ويقترن به رأى آخر ينادى بالطابع الإقليمى فى الشع
خاصة وفى الأدب عامة ، ويقول آخرون بالشعر المسرحى أو شعر القص
المسرحية وغير المسرحية، وكل هذه الآراء مقبولة من ناحية مرفوضة من
ناحية، لأن العبرة فى الشعر بالملكة التى توحى معانيه ، وليست العبرة
بالعنوان الذى نختاره لموضوعاته ، كعنوان المسرحية أو عنوان الشعر
الإقليمى ، أو عنوان الشئون الاجتماعية والمسائل العالمية .

ونحن إذا نظرنا إلى الشعر من ناحية الملكة التى توحيه وجدنا أن ملكة
الشعر الغنائى قد لازمت القصيدة العربية من نشأتها الأولى ، فهى تتردد بين
نغمات الغزل والفخر والحماسة والرثاء ، أو تتردد بين ألوان الشعور الفردى

بسيط ، ويندر أن تتخطاه إلى الشعور المركب المتوشح ، وهو الشعور
تجاوب بين عدة نفوس على عدة أمزجة وفى عدة حالات .

وإذا كان للتجديد فى موضوع الشعر وجهة ، فهذه هى الوجهة التى أمامنا .
كن سبيله الرواية المسرحية أو الحادثة العالمية أو الأوصاف الإقليمية .
نما العبرة بالملكة التى توحى المعانى فى جميع الموضوعات ، وليست العبرة
عناوين التى نخلعها على هذه الموضوعات .

والفرق بين الشعر الغنائى والشعر المركب المتجاوب هو الفرق بين الربابة
الفرقة الموسيقية التى نسمع منها عشرات المعازف فى نغمات متعددة مع
متناسق بينها والوحدة فى مجموعها ، وينبغى أن نذكر هنا أن التنوع والتجاوب
ما المقصودان بالتصرف والتجديد ، وليس المقصود هو كثرة الآلات التى
زف عليها فى وقت واحد ، فإن ألف ربابة توقع لنا لحنا واحدا هى أسبب
اذج بغير تصرف ، وقد يكون التصرف كل التصرف فى ربابة ومزمار وطبل
يان تختلف وتتجاوب وتتلاقى فى الارتفاع بالشعور من البساطة والانفراد إلى
تجاوب والتركيب .

ولكن الخير أن نبقى كما نحن ، وأن نقصر نظمنا على الشعر الغنائى ، إذا
نا ننظم فى الموضوعات الجديدة تقليدا الذين سبقونا إلى النظم فيها ، فإن
تقليد نقيض التجديد والدرهم الصحيح أنفس من الدينار الزائف يحكى الذهب
اللون والصورة ولا يحكيه بالمعدن والقيمة .

ومن أمثلة الدعوات الزائفة إلى التجديد أن يسمع بعضنا بالشعر الإقليمى فى
لغة الإنجليزية - وأكثره من شعر الأمريكيين - فيخطر له أن الشعر الإقليمى
ختراع واختيار، وينسى أنه واقع طبيعى لا محل لفرضه على الشعراء ، حيث
لا تفرضه عليهم طبيعة الحياة، وفى أمريكا أقاليم لا تتشابه فى الموقع ولا فى
لمكان ولا فى المعيشة ، فهم لا يختارون الإقليمية فى الشعر ولا فى
الجغرافية، ونحن هنا لن نستطيع أن نزرع قمحا فى التربة المصرية دون أن
[illegible] ... نا أو بغير اختيارنا ، ومن قال لشاعر: كن إقليميا

كذلك يقول بعضهم متعجبا : هل توحي حرب طروادة إلى هوميروس بالإلياذة ولا تظهر في العصر الحديث إلياذة أضخم منها بعد الحرب العالمية العظمى ؟

ولو كان هؤلاء القائلون يفهمون وحي الابتكار في الشعر لما خطر لهم أن شاعرا عصريا ينبغي أن ينظم إلياذة في الحرب العالمية ، لأن شاعرا قديما نظم إلياذة في حرب طروادة. من أين لهم مثلا أن هوميروس كان ينظم في الحرب العالمية إلياذة لو أنه عاش في زماننا ؟

من أين لهم أن ضخامة الحرب هي التي توحي بالنظم فيها ؟ فقد تكون الحرب بين عشرين فرسا متقابلين أعنف في إثارة النفس من حرب الملايين بين الخنادق لا يشهد بعضهم بعضا ولا يعرفون من الحركة غير ضغط الزناد !

كذلك لا يفقه التجديد من يحسب أن الشعر المسرحي حيث كان أرفع من الشعر الغنائي في كل موضوع ، فإن الشاعر المسرحي الذي لا يرسم لك شخصية واحدة صحيحة أقل من الشاعر الغنائي الذي يتحدث لك عن غناء البلبل فيصدقك الحديث والشعور . فكل فضل الشاعر في الملكة التي توحي إليه شعره دون العناوين التي يطلقها على موضوعاته ، ونحن لا نفضل الشاعر المسرحي على الشاعر الغنائي إلا لأن الشاعر المسرحي يستطيع شعر الغناء ويستطيع زيادة عليه . وهذه الزيادة عليه هي الحس المتجاوب في النفوس المتعددة، فإن كان يملك هذا الحس فهو صاحب الفضل بهذه الملكة أيا كان الموضوع الذي يختاره لنفسه ، وإن لم يملكها فالموضوع لا يعطيه ملكه هو محروم منها .

وإذا كان التجديد هو اجتناب التقليد فالتجديد كذلك هو اجتناب الاختلاق ، والمختلق هو كل من يجدد ليخالف ، وإن لم يكن هناك موجب للخلاف ، إن الذي يمشي على يديه يأتي بجديد ويدل على براعة لا يستطيعها من يمشي على قدميه ، ولكننا قد نضع في يده درهما وقد نزج به في مستشفى المجاذيب ، ولا نمشي على الأيدي من أجل تلك البراعة وذلك الاختلاف أو الاختلاق .

...أدب وفنّ...

من هو الأديب؟

كان جماعة من «الأدباء» يتحدثون عن وظيفة الأدب الاجتماعية ، فاختلفوا في الفرق بين وظيفة الأديب في المجتمعات القديمة ووظيفته في مجتمعاتنا العصرية . فخطر لي أن أسألهم : ومن هو الأديب في المجتمعات القديمة ؟

إننا نتكلم عن الأدب في المجتمعات قديمها وحديثها كأن الأدب بمعناه الذي نعرفه اليوم قد كان معروفا هكذا بين جميع الأمم وفي جميع الأزمنة ، وهو ولاشك خطأ لا يصحح لأول سؤال .

فأنت إذا نزلت اليوم ببلد من بلدان الحضارة وقلت لهم دلوني على رجل من أدبائكم لم يجهلوا ما تريد ودلوك على واحد ممن يصح أن يطلق عليهم وصف الأديب كما تعنيه .

ولكن على من يدلك أهل الجاهلية مثلا إذا نزلت بينهم وقلت لهم : دلوني على واحد من أدبائكم ؟

إنهم لا يدلونك على الشاعر ، ولا على الراوية ، ولا على النسابة ، ولا على الخطيب ، وإن كان العلم بالشعر والتاريخ والخطب مما يدخل في نطاق صناعة الأدب في الأزمنة الحديثة . ولو أنك سألت عن أديب في صدر الإسلام لفهموا أنك تقصد إنسانا بريئا من العنجهية البدوية واللوثة الأعرابية :

وإني عني ما في من عنجهية ولوثة أعرابيتي لأديب

وقد تتحدث إلى هذا الأديب الذي يدلونك عليه فيخوض معك في سمر شائق [illegible] هذه ال[illegible] ولا

ولعلهم يدلونك على مثله فى أنس محضره وظرف معشره لو أنك نزلت بمصر أو بقطر من أقطار العربية فى أواخر القرن التاسع عشر ، وسألتهم أن يجمعوك بأديب من الأدباء .

أما معنى الأديب كما نفهمه ، فهو من المعانى المستحدثة التى تطورت فترة بعد فترة فى العصور الأخيرة . فكان الأوربيون يفهمون من مقابل هذه الكلمة Man of letters أنه رجل مطلع على الكتب دارس العلوم ، لأن دراسة الكتب على اختلافها كانت هى الفارق بين العلماء والجهلاء ، ثم شاعت الدراسة وتنوعت فعرفوا الفرق بين عشرات من الموضوعات التى يطلع عليها الدارسون ومنها الموضوع الذى خصص لمعنى الأدب بمدلوله المصطلح عليه فى هذه الأيام ..

ولكن ما هو هذا المدلول ؟ ومرة أخرى من هو الأديب ؟

أهو الشاعر ؟ أهو القصاص ؟ أهو ناقد الشعر ؟ أهو المطلع على سير الأدباء والقصاصين والنقاد ؟

إنك إذا قلت «فلان شاعر» فقد وصفته بغير حاجة إلى وصف الأدب بعد ذلك، وكذلك تصف «القصاص» .. سواء كتب القصة المطولة أو النادرة القصيرة ..

فإذا قلت عن العارف بالشعر والقصاص أنه أديب قيل لك : حسن ! ولكن ما الفرق بين مؤرخ الأدب وناقد الأدب وبين الأديب ؟

حينئذ يلوح لك أن دليلك القديم لم يكن على ضلال بعيد ..

ونعنى بالدليل القديم ذلك المرشد الذى كنت تسأله فى العصور الأولى أن يرشدك إلى أديب فيذهب بك إلى رجل حسن الحديث ..

فالأديب بكلمة واحدة هو «المحدث» فى جميع العصور ، وقيمته فى كل عصر تختلف باختلاف حديثه ومن يحدثه ومن يتطلب منه الحديث ، سواء كان حديثه مما تسمعه الآذان أم تعبره الأعين فى صفحات الأوراق .

وبهذه الصفة وحدها يمكن أن تميزه من الشاعر ، ومن القصصى ، ومن الناقد ، ومن مؤرخ الآداب .. أيكون الأديب شاعرا ؟ أيكون قصاصا ؟ أيكون ناقدا للشعر والقصة ؟.. أيكون عالما مطلعا على تاريخ هؤلاء وتواريخ غيرهم ممن يحفل بهم التاريخ .

نعم ، ولكنه فى هذه الحالة يكون شاعرا وأديبا ، أو قصاصا وأديبا ، أو ناقدا أديبا ، أو مؤرخا وأديبا .. ولا يلزم حتما أن يكون واحدا من هؤلاء ليقال أنه أديب ، فهو محدث حسن الحديث أيا كان موضوع الحديث ، وأية كانت صفاته الأخرى التى تقترن بحسن الحديث

وبهذا المعنى كان أديب الزمن القديم محدثا فى مجلس الصحب أو محدثا فى مجلس الأمير .. وبهذا المعنى أصبح أديب الزمن الحاضر محدثا لقرائه ومستمعيه ، ولو لم يجمعه بهم مجلس أو مقام

ولم ننزل بوظيفة الأديب لأننا جعلناه «محدثا» فى العصور الأولى أو فى هذه العصور .. فإنما العبرة بما يقال وبمن يقال لهم فى جميع الأحاديث .

فمن الناس من يحدث ليعلم ويهذب ، ومنهم من يحدث ليضرب للناس أمثال البطولة والشرف ، ومنهم من يحدث للترويح عن النفس ، ومن يحدث ليكشف للنفس سريرتها ، ومن يحدث ليسلى ويلهى ، ومن يسلى ويلهى كرام الناس ومن يقصد بالتسلية واللهو غير هؤلاء الكرام

وكلهم على هذا المعنى أديب ، ولكن شتان شتان بين أديب وأديب ..

فلا ينزل الأدب لأنه حديث ..

وإنما ينزل الأدب إذا نزل موضوعه ومن يستمع إليه ..

وقد نزل الأدب فى عصرنا هذا وصعد على جميع هذه الدرجات ، فكان من أدباء العربية فى أوائل القرن العشرين من يوصف بالأدب لأنه سمير مجلس ، ثم شهدنا من أدباء العربية فى أيامنا هذه من يحدث قراءه جميعا كما يشاء فيجد من يصغى إليه ، وكل ما تغير بين الأمس واليوم أن الحديث كان بالأمس موقوفا على سامع واحد أو سامعين قلائل ، فأصبح اليوم موجها إلى مئات الوف ، لعلهم لا يجتمعون بالمتحدث فى مكان .

وربما صح أن شيئا آخر قد تغير بهذا الصدد ، وهو أن الأدب - حيثما كان بضاعة تنتظر الجزاء - لم يكن ينتظر جزاءه فيما مضى من غير الآحاد القلائل، وأن الأديب كان يدون أحاديثه فى الورق ليقرأه كل من حصل عليه ، ولكنه لا ينتظر الجزاء الذى يغنيه فى عيشه من هؤلاء القراء ، وإنما ينتظره من فرد يتصل به ويعول عليه .

أما اليوم فالأديب على نقيض ما كان بالأمس . إنه ينتظر هذا الجزاء ممن يوجه إليهم حديثه على يد المطبعة أو المذياع ، وهم مئات وألوف في وطنه وفي غير وطنه وفي زمنه وغير زمنه ، لا يلقاهم ولا يلقونه في أغلب الأحوال .

وذلك هو باب الخير الكثير .. وذلك أيضا هو باب الشر المستطير ..

لأن استغناء الأديب عن هذا السيد أو ذاك قد فتح له باب الاستقلال في المعيشة والاستقلال بالرأي ، والاستقلال بالشعور .

إلا أنه قد يغني عن هذا السيد أو ذاك ثم يتقيد بهذه الجماعة أو تلك ، واستعباد الجماعة شر من استعباد الآحاد .

وليس من الحتم أن تستعبد الجماعة محدثها لأن الجماعة طوائف شتى من الناس ، ولمن يحدث هذه الطوائف أن ينص الحديث لمن شاء منها ويضن به على غيره ، وأن يقنع بالمهذب الكريم من سامعيه ويطوي كشحه عن سواه ، فله ولاشك أن يختار وإن صعبت عليه الموازنة بين أسباب الاختيار .

وهناك باب من أبواب الحرية يطرقه من يستطيع حين يشاء ، فيتحدث «المحدث» العصري وحده ، كأنما يتحدث لنفسه .. ويسمعه من يريدون أن يسمعوه ، وهو لا يأخذ نفسه بكلفة الجلس في محضر الأمير أو أشباه الأمير .

وهو على كل حال «محدث» على نمط العصر وأسلوبه ، يخلفه المحدث القديم على ما كان لعصره من نمط وأسلوب .

وليس لوظيفة الأدب في اعتقادنا تعريف أصدق من هذا التعريف ، فإنه هو التعريف الوحيد الذي يزيل اللبس بينه وبين الشاعر والراوية والناقد والمؤرخ ، ولا يمنعه مع ذلك أن يأخذ بسهم أو سهوم من جميع هذه الفنون ، على اعتبار أنه مادة من مواد الحديث .

فمن هو الأديب في كل عصر من العصور ؟ هو المحدث في كل مجتمع ، على اختلاف العصور .. ونسأل مرة أخرى . هل الأدب إذن وظيفة اجتماعية ؟

فإذا أردت أن الحديث يجري بين متحدث ومستمع أو مستمعين فالأدب ولاشك وظيفة اجتماعية .

ولكنك خليق أن لا تنسى بعد هذا أن الملكة الشخصية شرط لا معدى عنه في كل حديث كائنا ما كان قائله ومستمعوه ، فإن الناس جميعا أعضاء في بنية جماعة ، ولا يحسن التحدث منهم إلا الآحاد المعدودين .

كذلك لا تنس أن الأديب في مجتمع هذا العصر يستطيع أن يكلم نفسه و[illegible] يحسب من المجانين بل من صفوة العقلاء .. أو يضمن المستمعين إليه كلما كان حديثه لنفسه جديرا بالإصغاء ..

الفن بين الصدق والكذب

ما الصدق ؟ هو كما عرفوه مطابقة للواقع ..

ولكن ما هو الواقع ؟ وكيف نطابقه ؟ هل نطابقه بإدراك الحواس ؟ أو نطابقه بألفاظ اللسان ؟ .. أو نطابقه بوعي القريحة والخيال ؟

كل أولئك مطابقة .. وكل مطابقة من هذه المطابقات صدق على حسب ذلك التعريف . ولكنها على هذا تختلف فيما بينها أوسع اختلاف في التعبير والتمثيل.

فإذا رأيت مرجا من مروج الربيع صدقت في وصفه حين أقول أنه رقعة من الأرض ذرعها ألف ذراع ، يتخللها جدول ماء وفيه ثمر من فصيلة كذا وكذا وزهر من فصيلة كذا وكذا في علم النبات ..

وصدقت في وصفه حين أقول أنه جميل مريح ..

وصدقت في وصفه حين أقول أنه يتألق كما تتألق العيون ، ويزدهر كما تزدهر الوجنات، ويفتر كما تفتر الثغور ، وتمرح فيه النضرة كما يمرح صفو الشباب في الصبايا الحسان ، وتتغنى فيه العصافير كما تتغنى الوصائف الثملات في الأعراس ..

أما إذا قلت إنني رأيت فيه ثغورا ووجنات ، ولمحت فيه أحداقا مؤتلقات ، واستخفني المرح من قدود حسانه ، واستطربني الطرب من ألحان عيداته ، فما أنا بكاذب ، وما أنا بمخالف لما قلته في تلك العبارة التي أوردتها مورد التشبيه، وكل ما هنالك أنني حذفت الكافات والكائنات ، واعتمدت على فطنة السامع في فهم هذه التشبيهات .. فعبرت عن الواقع بأسلوب يختلف في اللفظ ولا يختلف في المدلول .

إن كان هذا هو الكذب الذي أرادوه حين قالوا إن «أعذب الشعر أكذبه» فهذا هو الواقع بعينه فيما نراه .

وغاية ما فى الأمر أننا نطابق الواقع هنا بوعى القريحة والخيال ، ولا نصح أن نطبقه بلغة الحس ، أو بلغة الحساب والإحصاء ..

وأيا كان نوع المطابقة فهو صدق على أية حال ..

* * *

مثل آخر قريب من هذا المثل ..

أعرابى غمر يغرب فى رحلة مهلكة فى مفازة موحشة ..

تسأله فيقول لك إنها عامرة بالغيلان والسعالى ، ومتجاوبة بأصداء الجن والعفاريت . من يسلكها لا يسلم من شر سكانها هؤلاء ، ومن سلم منهم فقد كتب له عمر جديد ..

فهذا الأعرابى الغمر كاذب إن شئت ، ولكن فى حساب واحد ، هو حساب الرحلات الجغرافية والمباحث العلمية .

فإن الرحالين والباحثين يجوبون تلك الصحراء ويعودون منها فيقولون وهم صادقون : ما عثرنا فى تلك الصحراء بسعلاة ، وما السعلاة التى ذكرها الأعرابى مما يمكن العثور عليه..

ولكنه إذا كذب فى حساب الجغرافيين أفما من حساب آخر هو صادق فيه ، أو مطابق للواقع فيما يدعيه ؟

بلى ! هناك حساب هو صادق فيه كل الصدق ، مطابق للواقع كل المطابقة ، وهو حساب الشعور والخيال ..

لأن وصف الخوف من الهلاك ، ولا فرق بين الهلاك من الغول والسعلاة والهلاك من الوحشة والانقطاع . وغاية ما فى الأمر أنه وصف الخوف محذوفًا منه المكافآت والكائنات ، ولا يزال صادقا حين قال لنا : أن من يسلم من شر تلك المفازة فقد كتب له عمر جديد ..

وكذلك قل فى عرائس البحار ..

وكذلك قل فى كنوز الأرض وما يحرسها من المردة والشياطين ..

وكذلك قل فى همسات النسيم ونجوى الأنفاس ..

وكذلك قل فى واقع نطابقه بالشعور والخيال ، ولا نقصر المطابقة فيه على اللمس والعيان ..

* * *

وننتقل إلى الشعر الذى يتمثل فيه هذا الضرب من الواقع فنذكر بيت أبى الطيب فى وصف الأسد .

وردإذا وردالبحيرة شاربا ... وردالفرات زئيره والنيلا

فعلماء الطبيعة يقولون لك أنه كذب .. لأنهم يقيسون سرعة الصوت فى الهواء وسرعة الصوت فى الماء ، ويقيسون المسافة بين البحيرة ومصر والعراق ، ويقدرون النسبة التى يتخافت بها الصوت فيجدون أن زئير الأسد الذى وصفه أبو الطيب لا يصل إلى النيل ، ولا يصل إلى الفرات ..

أفكاذب أبو الطيب فيما وصف ؟ ..

إن قلت نعم مع علماء الطبيعة ، قلت لا على الأثر مع سامع ذلك الزئير ..

لأن زئير الأسد ملأ جوانب نفسه وشاع فى منافذ حسه ، فلم يدع فيها فراغا لغير الرهبة والحذر ..

ورهبة تملأ كل مكان فى دنياه ، خليقة أن تملأ كل مكان على وجه الأرض ، ولو فى الساعة التى ملأته الرهبة فيها ، وذلك حسبه من مطابقة الواقع كما وقع فى لحظة من اللحظات ..

ولو أن أبا الطيب قال يومئذ فى وصف شعوره بزئير الأسد أنه يصل فى الدقيقة إلى بعد كذا من الأميال لما خالف الواقع فى حساب العلم الطبيعى ، ولكنه لا يذكر لنا شيئا عن الواقع فى طبيعة الشعور

وهذا هو الواقع الذى يعنينا ويعنيه من وصف الأسد وزئيره ..

كذلك يقول البحترى فى وصف البناء السامق :

ذعر الحمام وقد ترنم فوقه ... من منظر خطر المزلة هائل

فيصيب فى تمثيل الذعر كما يحسبه الواقف على شرفات ذلك الصرح ولا [illegible] ٤٦٧ يقول عن الحمام المذعور أنه

ويقول أبو العلاء في سخرية الموت والحياة .

رب لحد قد صار لحدا مرارا ضاحك من تزاحم الأضداد

والواقع أن اللحد لا يسخر ، ولكنه من حقه أن يسخر إذا استطاع ، وإن هناك سخرية في تعاقب الموتى على مكان واحد يكرهونه ، ويتزاحمون عليه كأنهم يشتهونه . فإذا أعرنا اللحد سخريتنا فنحن لم نعبر من السخرية ولا من الواقع ، ولكنها «استعارة» لا تضيع معها الحقوق ! ..

هذه خلاصة القول عن الفن بين الصدق والكذب ..

فلن يكون الفن جميلا إذا كان فنا كاذبا لا يطابق الواقع ولكن أى واقع ؟ .. وأى مطابقة؟ ..

الواقع في الشعور ، والمطابقة لذلك الشعور ، وهى مطابقة لا ريب فيها ، ومطابقة أصدق من كل مطابقة أخرى ، إذا كانت المطابقات الأخرى خلوا من تمثيل ما نشعر به ونؤديه في فن من الفنون ، سواء أديناه بالقلم أو بالريشة أو بالأزميل أو بالوتر والمزمار ..

ويصدق على الواقع التاريخي ما يصدق على الواقع الحاضر أمامنا ..

فمن مثل لنا بطلا في غير عصره فأحسن تمثيله فهو صادق في الفن كاذب في التاريخ ، أو هو شاعر حسن ومؤرخ ردىء ، نلومه على كسله وجهله ، ولا ننكر عليه الصدق في حسه وخياله ولا القدرة على حسن تعبيره وتمثيله .. فنمنحه درجة النجاح في الشعر ونضن عليه بها في التاريخ ..

وكل فن جميل ، فلن يكون كاذبا أبداً ، لأنه لابد له من مطابقة الواقع ، على اختلاف صور المطابقة في الشعور ..

ولقد قيل عن أرواح شكسبير وعفاريته أنها لو برزت إلى عالم الحياة لما برزت في غير الصورة التي تصورها .. وما قيل عن المخلوقات الخيالية في شعر شكسبير يقال عن كل مخلوق خيالي يمثل لنا حالة نفسية نشعر بها ونتصوره فيه ، لأنه ولد من شعورنا ، فإن لم يطابقه فلا صلة بيننا وبينه في عالم الحس ولا في عالم الخيال .

... المدرسة الرمزية ...

١ - حب الأزياء

كانت باريس فيما بعد القرون الوسطى عاصمة الحضارة الأوربية وكان بلاطها الفخم مصدر المراسم والتقاليد في أرجاء الغرب كله ، تصدر عنه الأزياء والآداب والعرف المتبع في مجالس الطبقات العليا ، وكان لها الشأن - كل الشأن - يومئذ في جميع البلدان ، فلا تنقضى فترة يسيرة من الزمن دون أن يسفر التنافس بين فرسان البلاط وحسانه عن شارة جديدة وزى جديد ، ولم يكن لهم بد من طرافة يتحدثون بها في عالم الأدب والفن كما يتنافسون بالطرائف في عالم الشارات والأزياء ، فلما بدأت نهضة الأحياء الحديثة باستحياء الأساليب اللاتينية واليونانية رحب بها طلاب الجديد ريثما طال عهدهم بها فبرموا بها وتطلعوا إلى نمط جديد ، فتوالت الأنماط بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن العشرين من المدرسة المجازية إلى المدرسة الرومانية إلى المدرسة البرناسية إلى المدرسة الرمزية ، إلى هذه المدارس التي تسمى بالمستقبلية تارة وبما وراء الواقعية تارة أخرى ، ولا تستقر طويلا على حال .

ولم يكن التفات الناس إلى عاصمة الأزياء وانتظارهم منها الجديد بعد الجديد هو الباعث الوحيد إلى تعاقب هذه المدارس بمختلف الأسماء والآراء ، وإنما صادفت هذه الحالة معينا لها من حب الاندفاع في السليقة الفرنسية ، فأصبح حب التغيير نتيجة لازمة لكل اندفاع بلغ مداه واستنفد قواه .

فلا تجد في غير فرنسا ولعا كهذا الولع بالمدارس الأدبية المتلاحقة ، ولا سأما كهذا السأم من أسلوب بعد أسلوب وصبغة بعد صبغة .

وفي فرنسا نفسها لا تجد هذه المدارس في القمم العالية أو الأعلام البارزة من أفذاذ الأدب المعدودين ، وإنما تجدها في بيئات الأوساط وأشباه الأوساط الذين يخضعون لموجات التقلب وحركات التكلف والاصطناع .

أما أعلام الأدب الفرنسي من أمثال موليير وراسين وفولتير وشاتوبريان ولامرتين وهوجو ومسيه وأناتول فرانس وبروست فأنت لا تجدهم تحت راية من هذه الرايات ، ولا على شارة من الشارات ، وإذا بدت على أحدهم مسحة من

هذه الصيغة أو تلك فهي مسحة لا تنحرف به قط عن اللونين الخالدين اللذين يرجع الانقسام بينهما إلى طبيعة الإنسان لا إلى تقلب الأزياء بين جيل وجيل ، وهما لون الواقعية ولون المجازية ، أو لون البساطة ولون التنميق ، وسمهما بعد ذلك بما تشاء من الأسماء .

٢ - ظهور الرمزية

وكان الصف الأول من صفوف الطليعة في هذه المدارس هو صف الأحياء ، أو صف الأساليب اللاتينية واليونانية القديمة ، ولا يخلو من دعوة إلى بساطة «الطبيعة» على ألسنة الفلاسفة والشعراء .

ثم تفنن الأدباء في المجاز على أنماط شتى من الأساليب المجازية التي توشك أن تتعدد بتعدد الآحاد .. فأسلوب موجز مجازي ، ولكنه مجاز يريك الدنيا كأنها في موكب دائم من الطبول والأبواق ومن الغنائم والأسلاب ، وأسلوب لا مرتين مجازي ولكنه مجاز يريك الدنيا كأنك تعيش منها أبدا في عالم مسحور تتهامس فيه الأرواح وتتخافت فيه الأصداء .

واتفق في الأيام الأخيرة من هذه المدرسة المجازية أن شاعت مباحث العلم ومقررات العلماء المحدثين ، فظهرت المدرسة الواقعية والمدرسة البرناسية ، ونزعت كلتاهما إلى الأسلوب المدرسي البسيط – أسلوب اللاتين واليونان – ممزوجا بلون الدراسات العلمية التي اشتغل بها كل عقل مثقف في عهد المدرسة البرناسية على التخصيص .

ويدل اسم المدرسة البرناسية على مذهبهم بعض الدلالة لأن أصحابها يسمون أنفسهم بالبرناسيين المعاصرين منتسبين إلى البرناس وهو جبل أبولون وعرائس الفن في اليونان القديمة . فالبرناسيون المعاصرون مدرسيون من ناحية الاقتداء بأعلام الأدب اليوناني القديم ، ومحدثون علميون من ناحية التجديد العصري على نمط لم يعرفه قدماء اليونان .

وكان شعارهم «الكلمة المحكمة» أي الكلمة في موضعها الذي لا تتجاوزه للتنميق أو للتهويل . وعقيدتهم «أن الفن للفن» بغير قصد آخر غير أحكام التعبير وحسن الأداء .

وأفرط البرناسيون كما يفرط الدعاة إلى المدارس الخاصة فيندفعون فيها

٣ - مسوغات الرمزية

والتعبير بالرموز عادة قديمة في تعبير الإنسان ، بل عادة قديمة في بديهة الإنسان .

فالحالم مثلا يعبر في منامه عن شعور الضيق أو الخوف بقصة رمزية يتمثل فيها شيئا مخيفا في صورة وحش أو مارد مرهوب .

والكاتب الذي لم يعرف الحروف الأبجدية يرمز إلى المعاني بالشخوص والرسوم ، ويعبر عن الكتابة بصورة الكاتب أو صورة القلم أو صورة المكتوب ، وقد يلجأ إلى هذه الرمزية بعد عرفان الحروف لأنها نوع من التصوير الذي يساعد على اختصار التعبير .

وكهان الديانات يرمزون ويعمدون كثيرا إلى الكنايات والألغاز ، لأنهم يجعلون لغة الدين لغة سرية ينفردون بها ولا يطلعون سواد الناس على دخائلها ، فيختارون الرمز في التعبير وإن قدروا على الإفصاح والتصريح .

والنساك المتصوفون يرمزون لأنهم لا يستوضحون المعاني الغامضة التي تجيش بها نفوسهم في حالة كحالة الغيبوبة أو نشوة من نشوات الذهول ، فيؤثرون التشبيه لأنهم عاجزون عن التوضيح ويخاطبون من يعرف حالهم برمز من هنا وتورية من هناك فلا يحتاج منهم إلى زيادة إيضاح .

وكان بعض الدول يقسر الرعية على عقيدة لا يدينون بها وقد يدينون بغيرها فيشيرون إلى عقائدهم برموز يفهمونها ويجعلون للألفاظ الشائعة معاني غير معانيها المتفق عليها في اللغة المتداولة ، ثم ينبذون تلك الرموز إذا ارتفع عنهم الضغط والإكراه .

وقد يكون الرمز اختصارا لعبارة مفهومة أو صورة ظاهرة كرمز الرياضيين والكيميائيين بالخطوط والنقط إلى الأفلاك أو العناصر أو المقادير .

فالرمز شيء مألوف في تعبير الإنسان وفي طبيعة الإنسان ، ولكنه مألوف على حالة واحدة لا يخرج منها معرض الرمز والكتابة ، وهي حالة الاضطرار والعجز عن الإفصاح ، فلم يرمز الإنسان قط وهو قادر على التصريح والتوضيح ، ولم يجد كلمة واضحة لمعنى واضح ثم آثر عليها الالتواء شغفا بالالتواء .

فإذا لوحظت هذه الحالة فالرمز أسلوب متفق عليه لا يحتاج إلى مدرسة تنبه الأذهان إليه ، فالخيال لا يستشير مدرسة من المدارس لتشير عليه أن يحلك

بالصور والتشبيهات أو يحلم بقواعد التحليل والتركيب في معامل الكيمياء والشاعر لا يعاب إذا مثل لنا الكواكب والأزهار فألبسها ثوب الأحياء ، ومن ضاق به اللفظ فعمد إلى التخييل والتشبيه فالناس لا يحسبونه من هذه المدرسة أو تلك لأن المدرسة التي يصدر عنها في هذه الحالة هي مدرسة البديهة الإنسانية حيث كان الإنسان ويأي لغة من اللغات ألغز أو أبان .

وفحوى ذلك أنه لا حاجة إلى مدرسة لتعليم الناس كيف يرمزون ويكنون حين ينبغي الرمز وتنبغي الكناية ، ولكنهم قد يحتاجون إلى مدرسة لتذكيرهم بحقيقة واحدة قد ينسونها في دفعة الإفراط والمغالاة ، وهي أن الحياة تنطوي على كثير من الأسرار ، وأن العالم نور وظلام وجهر وخفاء ، وأنه يفاجئنا أحيانا بمعاني لا تترجم عنها الألفاظ ولا غنى فيها عن الإشارة والاستعارة ، أو عن تمثيل الظل بالظل ، والحجاب بالحجاب .

وقد كانت الآداب الفرنسية بحاجة إلى هذا التذكير في النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، ولم تكن هذه الحاجة مقصورة على الآداب الفرنسية في الواقع لأنها كانت حاجة من حاجات التطور العقلي في العالم بأسره ، ولكنها أظهر ما تكون حين يكون الاندفاع من الأطراف إلى الأطراف .

فالعالم الأوربي قد تنقل في ثلاثة أطوار عقلية منذ عصر الإصلاح .

طور لم يكن فيه سلطان للعقل في تفسير الوجود ، وطور ثار فيه العقل لحقوقه المشروعة ثم بالغ في الثورة حتى أوشك أن يستبد بكل سلطان . وطور ثارت فيه البديهة الإنسانية لتذكير العقل بالحقيقة التي نسيها في شططه وغلوائه ، وهي أن البديهة الإنسانية تشاطر العقل حقوقه في تفسير العالم والاتصال بخفايا الوجود .

ففي الطور الأول كان السلطان للكهنة ورجال الدين . وكانت النصوص التي يساء فهمها ويساء العمل بها هي مرجع المراجع كلها في العالم والحكمة والفنون والآداب .

وفي الطور الثاني تفرد العقل بتفسير كل شيء بزعم أن العلوم التجريبية وحدها كفيلة بالكشف عن جميع الحقوق وجميع الأسرار .

وفي الطور الثالث صنع «رد الفعل» صنيعه المعهود في أمثال هذه الأطوار ، فثار المفكرون أنفسهم على العقلية Rationalism كما ثار الفنانون على الواقعية

Realism وسمعنا بضروب شتى من دعوات المثاليين والنفسانيين والروحانيين وفلاسفة المنطق الحديث الذي يدين بالبصيرة كما يدين بالقياس والتحليل .

في هذه الفترة ظهر الرمزيون في الآداب الفرنسية وكان لهم حق في الظهور .

بل ظهروا «متأخرين» عن رواد هذا المذهب في الآداب الأوربية الأخرى ، وفي عالم الفنون التي لها تأثير بين على الآداب .

فكانت موسيقى «فاجنر» تدوي في أرجاء القارة الأوربية قبل أن تتحول الموسيقى الفرنسية من لغة الطرب والمشاهد الواقعية إلى لغة الأغوار والكنايات ، وكان كولردج وبروننج وسوينبرن وتنيسون من أعلام الشعر الإنجليزي يتناولون المعاني الغامضة تارة بالرمز والكناية وتارة بالكلمات التي تماثلها في الغموض ، ويكفي أن يذكر القراء تأثير دافيد هيوم في روسو وفولتير ، وتأثير بيرون في لامرتين ، ليذكروا أن المدرسة الرمزية في الآداب الفرنسية لم تكن فريدة في الآداب الأوربية حين ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر وراجت إلى أوائل القرن العشرين .

لكنها ظهرت سائغة مدعوة إلى الظهور بدعوة التصور في التفكير والشعور ، ثم استحقت الاحتجاب قبل أن تتمكن من الثبات على الأساس الصحيح .. وصدقت عليها الفكاهة التي تحدث بها ظرفاء بغداد عن بهلول المجنون ، حين قالوا إنه كان يغني بدرهم ويسكت بدرهمين .

فإن المدرسة الرمزية التي وجب ظهورها وجب سكوتها بعد ذلك مرتين ، ولم يلبث الفرنسيون أن أطلقوا عليها اسم مدرسة الهبوط والانحدار Decadents ولم يظلموها بهذه التسمية الصادقة ، لأن شعراءها وكتابها قد جعلوا ديدنهم من الرمز أن يرمزوا إلى كل وضيع خليع ، وأن يعتبروا التسمية مطلوبة لذاتها لا لمزية من مزايا التعبير والتقرير . فلو تهيأت لهم للمعنى الواحد عبارتان تؤديانه على السواء لفضلوا الأغمض منهما على الأوضح في غير سبب معقول لهذا التفضيل ، بل يفضلون الغموض على الوضوح ولو كان الوضوح أجمل في اللفظ وأقرب إلى البديهة وأثبت في الأفهام .

وما هو إلا أن تلقفوا من الأفواه كلمة عن مذهب فرويد ، وأقوال العلماء النفسانيين عن «الوعي الباطن» و «اللاوعي» المكنون في أطواء النفس حتى اندفعوا من الرمزية المتطرفة الجامحة إلى رمزية أبعد منها في التطرف والجموح ، فنشأت بينهم مدرسة يسمونها بمدرسة ما وراء الواقع ، تترجم

الرموز بالرموز ، والألغاز بالألغاز ، وراجت هذه البدعة الجديدة في عالم التصوير ، لأن رواجها في عالم الكتابة والشعر يستلزم جمهورا كاملا من المحيولين والأدعياء ، وقلما يجتمع جمهور كامل من هؤلاء ، كما يتفق اجتماع الآحاد من طلاب الصور الملفقة بين الأغنياء .

وخلاصة ما وعاه هؤلاء الرمزيون الغلاة من الوعي الباطن أنهم لا يفقهون ما هو الوعي الباطن وما هو الوعي الظاهر على السواء ، فإن الوعي الباطن قديم لم تخلقه التسمية الحديثة في كتب العلماء النفسانيين ، وقد كان الناس يعيه الباطن حين وصفوا ما وصفوه وصوروا ما صوروه من الناظر والضمائر والوهم ، ومن شأن العقل الباطن أن يظل عقلا باطنا حيث خلقه الله ، فإن برزت لنا بعض خباياه فليس معنى بروزها أنها تلغي العقل الظاهر وتبطل عمل الحواس ، وتقلب معالم الأجسام والأشياء ، ولا موجب لتمييز المصورين بالقلم أو الريشة بالتخمين والتنجيم عن الوعي الباطن أو العقل الباطن لأنهم يستعينون لصناعتهم بمزج الألوان ونقل الأشباه لا بالتدريب على الكهانة ونقش الطلاسم ووضع الألغاز .

فالرمزية في حدودها المعقولة – ما لم تجعل الدنيا كلها رموزا وكنايات وأطيافا – تعيش في الظلام ولا تعيش في الضياء ، وهي ضرورية ما شعر الإنسان بضرورتها في تمثيل الدقائق والأسرار ، ولكنها تخرج من الضرورة إلى الضرر إذا أصبحت مطلوبة لغير سبب وأصبح شعارها «الرمز للرمز» والغموض للغموض والتلفيق للتلفيق .

وهي على الجملة «خطر» حين تصبح مدرسة قائمة بذاتها لأن الإنسان لا يحتاج إلى مدرسة ليكون إنسانا يعبر باللفظ الصريح حين يتأتى له التعبير باللفظ الصريح ، ويعبر بالكناية حين لا تسعفه وسيلة غير وسيلة الكناية ، وقد عرف الناس «الاستعارة» في جميع اللغات فلم تكن استعاراتهم إلا ضربا من الرمز والتصوير بالكلام ، ولم تفسد هذه الاستعارات إلا حين أصبحت فنا مصطنعا وانقطع ما بينها وبين البداهة الصادقة والتخيل السليم .

وكذلك أفاد الرمزيون الفرنسيون حين التزموا هذه الحدود المعقولة ومثلوا ثورة بديهية على غرور الحسيين والعقليين ، وأطلقوا الشعر الفرنسي والشعر الأوربي عامة من أوزانه المتحجرة وقيوده العتيقة ، ولكنهم لم يقفوا عند ذلك فاستحقوا أن يقال فيهم أنهم : غنوا بدرهم وسكنوا بدرهمين .

من مؤلفات عملاق الأدب العربي الكاتب الكبير عباس محمود العقاد

١ - الله
٢ - إبراهيم أبو الأنبياء
٣ - مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية
٤ - عبقرية محمد ﷺ
٥ - عبقرية عمر
٦ - عبقرية الإمام علي بن أبي طالب
٧ - عبقرية خالد
٨ - حياة المسيح
٩ - ذو النورين عثمان بن عفان
١٠ - عمرو بن العاص
١١ - معاوية بن أبي سفيان
١٢ - داعي السماء بلال بن رباح
١٣ - أبو الشهداء الحسين بن علي
١٤ - فاطمة الزهراء والفاطميون
١٥ - هذه الشجرة
١٦ - إبليس
١٧ - جحا الضاحك المضحك
١٨ - أبو نواس
١٩ - الإنسان في القرآن
٢٠ - المرأة في القرآن
٢١ - عبقري الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبده
٢٢ - سعد زغلول زعيم الثورة
٢٣ - روح عظيم المهاتما غاندي
٢٤ - عبد الرحمن الكواكبي
٢٥ - رجعة أبي العلاء
٢٦ - رجال عرفتهم
٢٧ - سارة
٢٨ - الإسلام دعوة عالمية
٢٩ - الإسلام في القرن العشرين
٣٠ - مايقال عن الإسلام
٣١ - حقائق الإسلام وأباطيل خصومه
٣٢ - التفكير فريضة إسلامية
٣٣ - الفلسفة القرآنية
٣٤ - الديمقراطية في الإسلام
٣٥ - [illegible] في الحضارة الأوروبية
٣٦ - الثقافة العربية
٣٧ - اللغة الشاعرة
٣٨ - شعراء مصر وبيئاتهم
٣٩ - أشتات مجتمعات
٤٠ - حياة قلم
٤١ - خلاصة اليومية والشذور
٤٢ - مذهب ذوي العاهات
٤٣ - لا شيوعية ولا استعمار
٤٤ - الشيوعية والإنسانية
٤٥ - الصهيونية العالمية
٤٦ - أسوان
٤٧ - أنا
٤٨ - عبقرية الصديق
٤٩ - الصديقة بنت الصديق
٥٠ - الإسلام والحضارة الإنسانية
٥١ - مجمع الأحياء
٥٢ - الحكم المطلق
٥٣ - يوميات جزء أول
٥٤ - يوميات جزء ثاني
٥٥ - عالم السدود والقيود
٥٦ - مع عاهل الجزيرة العربية
٥٧ - مواقف وقضايا في الأدب والسياسة
٥٨ - دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية
٥٩ - آراء في الأدب والفنون
٦٠ - بحوث في اللغة والأدب
٦١ - خواطر في الفن والقصة
٦٢ - دين وفن وفلسفة
٦٣ - فنون وشجون
٦٤ - قيم ومعايير
٦٥ - ديوان في الأدب والنقد
٦٦ - عبد القلم
٦٧ - ردود وحدود

فهرس

